

الدكتور رمضان عبد النواب

النظور النفوس

مظاهره وعلاقه وقوانينه

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة



التطور اللغوي
مظاهره وعلا وقوانينه

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصوري

مكتبة الحناحي

للطباعة والنشر والتوزيع

ص . ب ١٣٧٥ القاهرة

حقوق الطبع محفوظة للناسخ

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

٨٣٣٨٢٤٤ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٠ : ☎

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

التطور اللغوي مظاهره وعلاته وقوانينه

تأليف

الدكتور رمضان عبد النّوّاب

العميد السابق لكلية الآداب

جامعة عين شمس

الطبعة الثالثة

مزيدة ومنقحة

الناشر مكتبة النخاس بالفايزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُتَمِّمَةُ الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ

هذه طبعة جديدة ، مزيّدة ومنقّحة ، من كتاب : « التطور اللغوى » الذى أنفقت شطراً من حياتى فى جمع مادته ، عبر القراءة الواسعة المتأنية ، لتراثنا العربى المجيد ، ولم أخل عليه بوقت أو جهد ، فى إعدادهِ وتبويهِ ، وتوضيح مسأله ، والاحتجاج لقضاياه ؛ فجاءت الطبعة الأولى منه ، قبل سبع سنوات ، وقد اشتملت على الكثير من التفسيرات اللغوية الجديدة ، لبعض مظاهر التطور اللغوى .

وتقبّل الكثير من العلماء الأجلّاء ، ورفقة الدرب من الزملاء والأبناء ، هذا العمل المتواضع ، بروح الود والحب والإنصاف . وكنت أرقب بعين الرضا مادته وتفسيراته المختلفة ، تنتثر هنا وهناك فى ثنايا البحوث والمؤلفات .

ولاشك أننى مدين بكل إضافة أو تنقيح ، تضمنته هذه الطبعة الجديدة ، لتشجيع هؤلاء وأولئك جميعاً . ورُبّ وجهة نظر هنا ، أو مناقشة هناك ، جعلتني أضاعف الجهد ، وأعيد النظر ، وأحاول البسط والتفصيل .

وتمتاز هذه الطبعة ، إلى جانب المادة الجديدة ، التى تراها فى ثنايا الموضوعات القديمة ، بأربعة فصول جديدة ، عن : سياحة الألفاظ ، وشاهد الحال ، وتعاقب التطور ، وسيادة الحالة الواحدة من الحالات الإعرابية

وإنه على الرغم من أنني حذرت في موضوع : « المبادئ الأساسية » من هذا الكتاب ، من الوقوع في الخلط بين دراسة التطور اللغوي ، والدعوة إلى اتباع هذا التطور بلا قيد ولا شرط ؛ فقد ظن بعض علمائنا الأجلاء ، أنني من أنصار التطور المطلق في العربية الفصحى . وتجد بعد هذه المقدمة صورة لرسالة طيبة ، من رئيس المجمع اللغوي بالقاهرة ، قد ترى فيها شيئا من هذا الاتجاه ، في واحدة من أكبر مؤسساتنا اللغوية في بلدنا الطيب . غير أن كثيرا من شبابنا الناهض ، أدرك ما قصدت إليه تماما ، حينما تمنيت ألا يظن بعض الناس « أننا حين نعالج قضايا التطور اللغوي ، نكون من أنصار هذا التطور في العربية ؛ فإننا نعالج هذه القضايا هنا ، من الناحية الوصفية التاريخية . وهناك فرق كبير في مناهج البحث في اللغة ، بين الوصفية والمعيارية » .

ومن هؤلاء الدكتور صبيح حمود التميمي ، الذي يقول في كتابه عن التفكير اللغوي عند العرب في العراق : إن إدراك اللغويين للتطور « واقع لا مغمز فيه . وما فيه من خلاف مع وجهة النظر الحديثة ، هي مسألة عدم الاعتراف بالتطور ، كظاهرة لغوية تسائر العربية في عصورها المختلفة ، وإنما أجازوه ضمن فترة زمنية محددة ، لا تتعدى منتصف القرن الثاني الهجري تقريبا ، اعتقادا منهم بأن عرب تلك الفترة فصحاء ، لا تشوب ألسنتهم وفصاحتهم أية شائبة ... فهم اعترفوا بالتطور وأقروه ، صراحة وتمثيلا ، لأمد محدود . وأساس هذا التحديد عندهم هو المحافظة على الكيان الأمثل للغة العربية ، بعد أن دبت رياح التغيير اللغوي ، وبدأت تعصف بهذا الكيان بجميع جوانبه ، من أصوات ، وألفاظ ، ودلالات ، وأساليب ؛ فعز عليهم أن يروا لغة القرآن الكريم ، نهبا لهذا الخطر المُحْدِق بها ، فاضطروا لهذا التحديد ، حفاظا على صورتها المثلى » .

ثم قال بعد ذلك : « وجميل بنا أن نذكر هنا قول الدكتور رمضان عبد التواب : إن العربية لها ظرف خاص ، لم يتوفر لأية لغة من لغات العالم

وهذا الظرف يجعلنا نرفض ما ينادى به بعض الغافلين ... من ترك الحبلى على الغارب للعربية الفصحى ، لكى تتفاعل مع العاميات ؛ ذلك أنها ارتبطت بالقرآن الكريم ، منذ أربعة عشر قرناً ، ودون بها التراث العربى الضخم ، الذى كان محوره هو القرآن الكريم فى كثير من مظاهره . وقد كفل الله لها الحفظ ما دام يحفظ دينه ... لولا كل هذا لأُمتت العربية الفصحى لغة أثرية ، تشبه اللاتينية أو السنسكريتية . هذا هو السر الذى يجعلنا لا نقيس العربية الفصحى ، بما يحدث فى اللغات الحية المعاصرة » .

ثم قال معقبا : « فقول الدكتور رمضان ، هو تمثيل صادق لنظرة علماء العربية ، فى تحديد أمد التطور اللغوى ، التى كانت أولى ثماره ، هى أننا فى هذا العصر ، نقرأ ونفهم بيسر وسهولة ، ودونما أية صعوبة ، ما كتب قبل أربعة عشر قرناً . وهى ميزة تكاد تنفرد بها اللغة العربية » .

هذا ، وقد أسعدنى حقاً شيوع المصطلحات المختلفة ، التى جاءت بهذا الكتاب ، فى كثير من المؤلفات اللغوية المعاصرة ، كالركام اللغوى ، والحذقة ، والبلى اللفظى ، والفصل الخاطيء ، والاشتقاق الشعبى ، وانكماش الصوت المركب ، وانحلال الصوت المزدوج ، وغير ذلك . وآمل أن تلقى الفصول الجديدة ، من القبول والرضا ، لدى الدارسين من الزملاء والأبناء ، مالقيته الفصول القديمة ، التى يراها القارئ الكريم هنا فى ثوب قشيب .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يرزقنا التوفيق والسداد ، ويجنبنا الخطأ والزلل . كما نسأله عز وجل أن يُقَضَّ مضاجع أعداء العربية والدين ، ويرزقهم الحسرة والندامة ، ويمتعهم بالكثير من الحقد يأكل قلوبهم ، والمزيد من الغل تاكلهم ناره . فأما الزَّيْد فيذهب جُفَاءً ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

منيل الروضة فى ١٩٨٩/٥/٥ م . أ . د . رمضان عبد التواب

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة في ٢٢ ديسمبر ١٩٨١

مجمع اللغة العربية

ش الدكتور طه حسين بالجيزة

مكتب الرئيس

تليفون : ٨٩٧٢٦٤

السيد الدكتور رمضان عبد التواب

وكيل كلية الآداب - جامعة عين شمس

تجيسة طيبة ومحمد

فأنا شاكر لك أصدق الشكر على كريم إهدائك ، وقد قضيت زمنا معك يذكرك
عن * التطور اللغوي * . وراقتني أن تنفع طويلا عند ظاهرة كبرى من الظواهر اللغوية ،
وأن تتلمح لها بشئ أصلحتك ، من اطلاع واسع ، وبحث عميق ، ونظرة شائبة ، وهذا هو
عهدى بك دائما فيما تشغل به .

وقد آن الأوان فعلا لأن نسو من التطور اللغوي ، وكثيرا ما ترددت في التسليم به ،
وأغفينا على العربية جسودا وقداية لا تتلاءم مع سنة الحياة . وما قامت الجامع
اللغوية كلها إلا على أساسين هامين أولهما أن اللغة ظاهرة اجتماعية تسير بسير
المجتمع وتقف بوقوفه ، وثانيهما أن اللغة ملك من يتخاطبون بها ، فإن أريد بها أن تملكهم
هي وتحميهم فقدت وظيفتها .

والتطور أمارة حركة حياة ، وسبيل تحسين وتجويد ، يقدر الناس ، ويواجهه الحاضر ،
ويمد للمستقبل .

وقد أثبت بوضوح أن العربية خضعت لسنة التطور منذ نشأتها ، وكشفت عن مظاهر
هذا التطور وطله وفوائده فسر في طريقك ، والله يوفقك .

وتقبل شكري مرة أخرى وأصدق تحياتي

رئيس المجمع

م. ك.

إبراهيم مذكور

مُقَدِّمَةُ الطَّبَعَةِ الْأُولَى

دفعنى إلى كتابة هذا البحث ، ما أومن به من أن اللغات ، لا تسير فى حياتها على نحو من الصدفة المطلقة ، ولا تخبط فى تنقلها على ألسنة الناس خبط عشواء ، بل يحكمها فى هذا وذاك قوانين ، تكاد ترقى إلى مكانة القوانين الطبيعية ، ثباتا وقوة ، ولا يعنى جهلنا بهذه القوانين فى بعض الأحيان ، أنها غير موجودة ، ومهمة العلم هو البحث عن هذه القوانين ، يكتشفها ولا يخترعها ، يميظ اللثام عنها ولا يتحكم فيها .

ومن المهم هنا أن نعرف أن الظاهرة اللغوية حرة الحركة ، يمكن أن تتجه إلى أية جهة شاءت من جهات التطور ، غير أنها لا تولى وجهها هنا أو هناك ، إلا وهى محكومة بقانون لغوى معين .

ولهذا السبب لا يستطيع التنبؤ باتجاه التطور اللغوى ، فى ظاهرة من الظواهر اللغوية ، كما أنه لا يمكن الإجابة عن السؤال التالى ، فى الدرس اللغوى : لماذا أثرت الظاهرة اللغوية ، السير فى اتجاه معين ، ولم تسر فى اتجاه آخر ؟ فلا يستطيع أكبر عباقرة اللغة ، معرفة لماذا تطورت القاف فى بعض اللهجات المصرية إلى همزة ، ولم تتطور إلى غين ، كما حدث لهذا الصوت ، فى بعض نواحي العراق والسودان .

غير أن الإجابة عن كيفية هذا التطور ، أمر سهل ، فلا تطور إلا بقانون تحدده طبيعة الظاهرة اللغوية ، ويندرج تحته الكثير من أمثلة اللغات المختلفة فتطور القاف إلى همزة أو غين أو كاف أو جيم قاهرية مثلا ، أمر يمكن تفسيره جيدا بالقوانين الصوتية ، من قرب المخارج أو صفات الأصوات .

فالطرق التي يمكن للقاف أن تسلكها في تطورها كثيرة ومتعددة ، ويمكن للدارس اللغوى معرفة الكيفية ، التي تم في ضوئها التطور إلى إحدى هذه الطرق ، غير أنه لا يستطيع بأية حال من الأحوال ، معرفة السر في إثثار طريق على آخر .

وأصل هذا البحث ، مقالة نشرتها في العدد الخامس ، من مجلة كلية اللغة العربية بالرياض ، في عام ١٩٧٥ م . وقد رأيت كيف اشتد إقبال الدارسين على تصويرها والإفادة منها ، ورجاني كثير من الزملاء والأبناء ، أن أضمنها بعض كتبي التي نشرتها في الفترة السابقة ، غير أنني - وقد رأيت في حواشي نسختي الخاصة ، كثيرا من التعليقات والإضافات ، وجملة صالحة من الزيادات والتنقيحات - آثرت أن أجعل من هذه المقالة كتابا مستقبلا .

وأمل أن يسد هذا الكتاب فراغا في المكتبة العربية ، وأن يفيد منه الدارسون للغة ، والباحثون في قضاياها ومشكلاتها . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

رمضان عبد التواب

المبادئ الأساسية

أراني في بداية حديثي ، مضطرا إلى تأكيد عدة أمور فرغ منها المحدثون من علماء اللغات ، منذ فترة طويلة ، وهي تعد عندهم الآن من البديهيات ، على حين يجادلنا فيها بعض الدارسين العرب ، ممن بقى في الكهوف القديمة ، يرددون قولتهم المشهورة : ليس في الإمكان أبدع مما كان .

وأول هذه الأمور ، أن اللغة كائن حي ، لأنها تحيا على ألسنة المتكلمين بها ، وهم من الأحياء ، وهي لذلك تتطور وتتغير بفعل الزمن ، كما يتطور الكائن الحي ويتغير وهي تخضع لما يخضع له الكائن الحي في نشأته ونموه وتطوره ، وهي ظاهرة اجتماعية ، تحيا في أحضان المجتمع ، وتستمد كيانه منه ، ومن عاداته وتقاليده ، وسلوك أفرادها ، كما أنها تتطور بتطور هذا المجتمع ، فترقى برقيه وتنحط بانحطاطه .

وليست اللغة من صنع فرد أو أفراد ، وإنما هي نتيجة حتمية للحياة في مجتمع يجد أفرادها أنفسهم مضطرين إلى اتخاذ وسيلة معينة للتفاهم ، والتعبير عما يجول بالنفوس ، وتبادل الأفكار . تلك الوسيلة هي اللغة . و « اللغة - شأنها في ذلك شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى - عرضة للتطور المطرد في مختلف عناصرها : أصواتها وقواعدها ومنتها ودلالاتها ، وتطورها هذا لا يجري تبعا للأهواء والمصادفات ، أو وفقا لإرادة الأفراد ، وإنما يخضع في سيره لقوانين جبرية ثابتة مطردة النتائج ، واضحة المعالم محققة الآثار ، ولا يد لأحد على وقف عملها ، أو تغيير ما تؤدي إليه ، فليس في قدرة الأفراد أن يقفوا تطور لغة ما ، أو يجعلوها تجمد على وضع خاص ، أو يسيروا بها في سبيل غير السبيل ، التي رسمتها لها سنن التطور الطبيعي ، فمهما أجادوا في وضع معجماتها ، وتحديد ألفاظها ومدلولاتها ، وضبط أصواتها وقواعدها ،

ومهما أجهدوا أنفسهم في إتقان تعليمها للأطفال ، قراءة وكتابة ونطقاً ، وفي وضع طرق ثابتة سليمة يسير عليها المعلمون بهذا الصدد ، ومهما بذلوا من قوة في محاربة ما يطرأ عليها ، من لحن وخطأ وتحريف ، فإنها لا تلبث أن تحطم هذه الأغلال ، وتفلت من هذه القيود ، وتسير في السبيل التي تريدها على السير فيها سنن التطور » ^(١) .

وفي ذلك يقول ماريوباي : « إن الاتجاه الطبيعي للغة ، وبخاصة في صورتها الدارجة ، أو المتكلمة ، هو اتجاه يبعدها عن المركز ، فاللغة تميل إلى التغير ، سواء خلال الزمان أو عبر المكان ، إلى الحد الذي لا توقف تياره العوامل الجاذبة نحو المركز .. هذه الخاصية العالمية للغة ، هامة لعالم اللغة التاريخي ، حيث إنها تشكل الأساس في كل تغيير لغوي » ^(٢) .

كما يقول أولمان : « اللغة ليست هامة أو ساكنة ، بحال من الأحوال ، بالرغم من أن تقدمها قد يبدو بطيئاً في بعض الأحيان ، فالأصوات والتراكيب ، والعناصر النحوية ، وصيغ الكلمات ومعانيها ، معرضة كلها للتغير والتطور ، ولكن سرعة الحركة والتغير فقط ، هي التي تختلف ، من فترة زمنية إلى أخرى ، ومن قطاع إلى آخر من قطاعات اللغة ، فلو قمنا بمقارنة كاملة بين فترتين متباعدتين ، لتكشف لنا الأمر ، عن اختلافات عميقة كثيرة ، من شأنها أن تعوق فهم المرحلة السابقة ، وإدراكها إدراكاً تاماً » ^(٣) .

واللغة العربية الجاهلية ، ليست بدعاً بين اللغات ، فهي حلقة في

(١) اللغة والمجتمع ، للدكتور علي عبد الواحد وافي ٧٨

(٢) أسس علم اللغة ٧١

(٣) دور الكلمة في اللغة ١٥٦

سلسلة حلقات طويلة ، من التطور والتغير ، أى أنها لم تكن كما يتخيل بعض الناس ، بصورتها التى رويت لنا ، منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها .

وإننا لنبتسم لسداجة من روى لنا شعرا عربيا ، على لسان قحطان ابن هود عليه السلام ، يسلى به بعض ما كان بأبيه هود ، من الكآبة والجزع والغم والحزن ، على قومه عاد ، فقال :

إنى رأيت أئى هوداً يؤرّقه حُزنٌ دخيلٌ ولبالٌ وإسهادٌ
لا يُحزننك أن طاحت بداهية عادُ بن لاوى فعادُ بئسما عادُ^(١)

بل لقد رووا لنا أن آدم عليه السلام ، قال شعرا عربيا فى رثاء ابنه (هابيل) حين قتله (قابيل) ، وقالوا : إن أول من أقوى فى الشعر هو آدم عليه السلام ، وهو يقول فى قصيدته تلك :

تغيّرت البلادُ ومَن عليها فوجهُ الأرض مغبرٌ قبيحُ
تغيّر كل ذى حُسن وطيب وقل بشاشةُ الوجه المليح^(٢)

والحقيقة الثانية أن ما نسميه نحن بالعربية الفصحى ، يشتمل فى الكثير من ظواهره ، على بعض حلقات التطور ، أى أننا نلاحظ فى هذه اللغة أحيانا ، صورتين أو أكثر لظاهرة لغوية واحدة ، وبعض هذه الصور ، يمثل فترة تاريخية أقدم من الصور الأخرى ؛ إذ « تدلنا الملاحظة ، على أنه من المحتمل جداً ، أن يوجد نطقان مختلفان ، أحدهما جديد ، والآخر تقليدى محافظ ، أو أكثر ، يتعايشان سويا لسنوات كثيرة ، قد تصل أحيانا إلى عدة قرون »^(٣) .

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ، للأصمعى ٤

(٢) الدرر اللوامع ، للشنقيطى ٢٠٩/٢

(٣) لغات البشر ، لمايوباي ٤٢

وإن من لا يعرف هذه الحقيقة ، يظن هذه الصور كلها ، قد وضعت هكذا وضعاً . وما أكثر الأوهام التي ترتبت على الجهل بهذا الأمر في الدرس اللغوي عند العرب ، كما سترى فيما بعد ، عند حديثنا عن السين وسوف ، في العربية الفصحى .

والقضية الثالثة التي نريد تأكيدها هنا ، أن العربية الفصحى لها ظرف خاص ، لم يتوفر لأية لغة من لغات العالم ، وهذا الظرف يجعلنا نرفض ما ينادى به بعض الغافلين - عن حسن نية أو سوء نية أحياناً - من ترك الحبل على الغارب للعربية الفصحى ، لكي تتفاعل مع العاميات ، تأخذ منها وتعطي ، كما يحدث في اللغات كلها .

حقاً إن اللغة كائن حي ، يتطور على ألسنة المتكلمين بها ، فينشأ من هذا التطور اختلاف بين لغة عصر والعصر الذي سبقه ، وهنا يحدث الصراع بين أنصار الشكل القديم ، وأنصار الشكل الجديد ، وبعد فترة يصبح قديماً ما كان بالأمس جديداً ، فيتصارع مع جديد آخر ، وتضمحل لغة العصر الأسبق أو تندثر ، غير أن كل جديد لا يظهر فجأة ، ولا يقضى على القديم بين يوم وليلة ، بل يظل الصراع بينهما لفترة قد تطول أو تقصر ، غير أن الانتصار يكون في النهاية للشكل الجديد . تلك سنة الحياة ، وتاريخ اللغات كلها يشهد بهذا ولا نعرف لغة على ظهر الأرض ، جمدت على شكل واحد مئات السنين .

غير أن العربية لها كما قلنا - ظرف لم يتوفر لأية لغة من لغات العالم ذلك أنها ارتبطت بالقرآن ، منذ أربعة عشر قرناً ، ودونَ بها التراث العربي الضخم ، الذي كان محوره هو القرآن الكريم في كثير من مظاهره ، وقد كفل الله الحفظ ، ما دام يحفظ دينه ، فقال عز من قائل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ . ولولا أن شرفها الله عز وجل ، قاتل بها كتابه ،

وقيض له من خلقه من يتلوه صباح مساء ، ووعد بحفظه على تعاقب الأزمان - لولا كل هذا لأمست العربية الفصحى لغة أثرية ، تشبه اللاتينية أو السنسكريتية ، ولسادت اللهجات العربية المختلفة ، وازدادت على مر الزمان بعدا عن الأصل ، الذى انسلخت منه .

هذا هو السر الذى يجعلنا لا نقيس العربية الفصحى ، بما يحدث فى اللغات الحية المعاصرة ، فإن أقصى عمر هذه اللغات ، فى شكلها الحاضر ، لا يتعدى قرنين من الزمان ، فهى دائمة التطور والتغير ، وعرضة للتفاعل مع اللغات المجاورة ، تأخذ منها وتعطى ، ولا تجد فى ذلك حرجا ، لأنها لم ترتبط فى فترة من فترات حياتها بكتاب مقدس ، كما هو الحال فى العربية .

وقد صدق الشيخ أحمد رضا العاملى ، حين قال : « وأنا لا أرتاب فى أن اللغة التى حملها الفرنسيين ، أيام الحروب الصليبية ، إلى سوريا ، لم تكن كاللغة التى حملها أحفادهم إليها فى هذه الأيام ، وأن اللغة التى نظم بها شكسبير قصائده ، لا يفهمها العامى الإنجليزى اليوم ، أكثر مما يفهم العامى العربى قصائد المتنبى ، وأبى العلاء المعرى ، وأن لغة مولير الفرنسية فيما أحسب - بعيدة عن لغة إميل زولا ، ولكن لغة المتنبى لم تتغير عن لغة شوقى ، وبينهما ألف عام ، إلا أن لغة المتنبى تخالف لغة الزاجل فى زجله اليوم ، بل إن لغة الزاجل اليوم ، تخالف لغة الزاجل فى عصر ابن خلدون ^(١) » .

وارتباط العربية الفصحى بالقرآن الكريم ، هو السر كذلك فى تمسكنا بالعربية الفصحى القديمة ، ودعوتنا إلى دراستها دراسة مستفيضة ، لكى نفهم بها القرآن الكريم ، ومادار حوله من دراسات ، وكذلك الشعر

العربى القديم ، الذى يلقى أضواء على المعانى القرآنية ، ويفيد فى توضيح القرآن الكريم ، ولقد صدق الصحابى الجليل عبد الله بن عباس ، حين قال : « الشعر ديوان العرب ، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن ، الذى أنزله الله بلغة العرب ، رجعنا إلى ديوانها ، فالتمسنا معرفة ذلك منه (١) » .

فهذه العربية الفصحى ، التى استمرت حية ، أربعة عشر قرناً ، والتى ستستمر فى حياتها إلى ما شاء الله تستمد من ارتباطها بالقرآن الكريم عنصر الحياة . وهذه القضية كانت واضحة فى أذهان اللغويين العرب فى الماضى فهذا هو أبو حاتم الرازى (المتوفى سنة ٣٢٢ هـ) يقول : « ولولا ما بالناس من الحاجة إلى معرفة لغة العرب ، والاستعانة بالشعر على العلم بغريب القرآن ، وأحاديث رسول الله ﷺ ، والصحابة والتابعين ، والأئمة الماضين ، لبطل الشعر ، وانقرض ذكر الشعراء ، ولعفى الدهر على آثارهم ونسى الناس أيامهم (٢) » .

وقد أطلنا فى إبراز هذه القضية هنا ، حتى لا يظن بعض الناس ، أننا حين نعالج قضايا التطور اللغوى ، نكون من أنصار هذا التطور فى العربية ، فإننا نعالج هذه القضايا هنا ، من الناحية الوصفية التاريخية . وهناك فرق كبير فى مناهج البحث فى اللغة ، بين الوصفية والمعيارية .

كما أن استخدام اللغويين المحدثين لكلمة (التطور) لا يعنى تقييم هذا التطور ، والحكم عليه بالحسن أو بالقبح ، فإنه لا يعنى عندهم أكثر من مرادف لكلمة : (التغير) .

(١) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنبارى ١٠٠ ، والإتقان للسيوطى ١١٩/١

(٢) الزينة فى الكلمات الإسلامية ١١٦/١

مَجَالَاتُ التَّطَوُّرِ اللُّغَوِيِّ

تتوزع اللغة مجموعة من الأنظمة ، التي تبدأ بالنظام الصوتي ، بصوامته وصوائته ، وفونيماته ، ومقاطعته ، وما يسود فيه من ظواهر النبر والتنغيم وغيرهما ، وتمر بالكلمات من حيث بناؤها ، ومورفيماتها ، ودلالاتها على المعاني المختلفة ، في أذهان الجماعة اللغوية التي تستخدمها ، وتنتهي ببناء الجملة ، ووظيفة الكلمات في داخل الجمل ، وعلاقة بعضها ببعض ، وغير ذلك .

وليست عناصر اللغة كلها على سواء ، في سرعة قبول التطور ؛ إذ هناك فرق في تطور اللغة بين الصوتيات والصرف والمفردات ، « فالنظام الصوتي يستقر منذ الطفولة ويستمر طول الحياة ، فالإنسان يحتفظ حتى آخر حياته ، بمجموعة الحركات التي تعودت عليها أعضاؤه الصوتية ، منذ طفولته ، اللهم إلا أن يحدث له عارض ناتج من التعليم ، وذلك في حالة أن يتلقن نطقاً أجنبياً ، يحل محل النطق القومى .

والنظام الصرفي ثابت أيضاً ، نعم إن استقراره يتطلب وقتاً أطول ، ولكنه بعد أن يستقر لا يعتريه تغير يذكر ؛ ذلك لأن الصرف لا يتغير في أثناء جيل واحد ، بل هو كالصوتيات ، إنما يتغير في الانتقال من جيل إلى جيل ، فالنظام الصوتي والنظام الصرفي إذا ما اكتسبا مرة بقيا طول العمر ، وهما يدينان باستقرارهما ، إلى استقرار ذهنية المتكلم .

أما المفردات ، فإنها على العكس من ذلك لا تستقر على حال ، لأنها تتبع الظروف فكل متكلم يكون مفرداته من أول حياته إلى آخرها ، بمداومته على الاستعارة فمن يحيطون به ، فالإنسان يزيد من مفرداته ، ولكنه ينقص منها أيضاً ، ويغير الكلمات في حركة دائمة من الدخول والخروج .

ولكن الكلمات الجديدة لا تطرد القديمة دائماً فالذهن يروض نفسه على وجود المترادفات والمتماثلات ، ويوزعها على وجه العموم على استعمالات مختلفة ، ذلك لأن الحياة تشجع على تغير المفردات ، لأنها تضاعف الأسباب التي تؤثر في الكلمات ، فالعلاقات الاجتماعية والصناعات ، والعدد المتنوعة تعمل على تغير المفردات ، وتقضى على الكلمات القديمة ، أو تحور معناها ، وتتطلب خلق كلمات جديدة ^(١) .

غير أننا نجد « النظام الصرفي في كل لغة حية ، لا يثبت على حال كذلك ، ولسنا نتحدث هنا عن الأخطاء الفردية ، التي تندأ أحياناً عن أقلام الكتاب ، مهما بلغ حرصهم ، ولكن كل نظام صرفي فيه مواضع نقص ، لا تخلو منها أية لغة ، ولو كانت من أشد اللغات تثقيفاً ، ففي كل قاعدة من قواعدها شواذ لا يبررها منطق ، وقصارى القول أن النظام الصرفي لدى كل متكلم ، يحمل في نفسه من أسباب التغير بقدر ما يحمله النظام الصوتي ، والفرق بين المسلكين يظهر في نتائجهما ، فالتطور الصوتي عام شامل ، لا يترك وراءه بقايا ، إذ إنه يستبدل حالاً جديدة ، مكان حال قديمة ، أما التطور الصرفي ، فيندر أن يشمل جميع الحالات التي يؤثر فيها ، فهو يدع إلى جانب الصيغ الجديدة التي يستحدثها ، عدداً كبيراً من الصيغ القديمة ، التي تستمر في الاستعمال . وهكذا تترك كل حلقة من حلقات التطور الصرفي بقايا لها ^(٢) ؛ ذلك لأن « التغير لا يكون تاماً إطلاقاً ، فكثيراً ما تبقى الصيغ القديمة ، إلى جانب الصيغ المستحدثة ، حتى لنلاحظ في النظام العام للغات التي لها تاريخ طويل ، والتي عانت

(١) اللغة لقندريس ٢٤٦ - ٢٤٧

(٢) اللغة لقندريس ٢٠٣ - ٢٠٤

تطوراً ضخماً ، كالفرنسية أو الإنجليزية ، مزيجاً من النظم التى تضم حالات مختلفة » (١) .

وهذه البقايا الصرفية من النظام القديم ، تبدو فى صورة الشواذ فى داخل النظام الجديد ، ونؤثر أن نسميها « بالركام اللغوى » للظواهر المندثرة فى اللغة (٢) .

وتزداد سرعة التطور اللغوى ، بازدياد انتشار اللغة بين غير أهلها ، وبازدياد عدد الذين يتكلمونها وتنوعهم ؛ « إذ إن انتشارها فى أقاليم تحتك فيها بلغات أخرى ، يعرضها لأن تفقد خصائصها الموغلة فى الذاتية . والتأثير الذى يقع عليها من الخارج يؤدى بها إلى التغير السريع ، فإذا ما قارنا لهجة موطن أصلى بلهجة مستعمراته ، تبين لنا أن هذه الأخيرة ، قد فقدت بعض القواعد النحوية الخفية الدقيقة ، ذلك لأن التقاليد قد أبقت عليها فى مهبط رأسها ، ثم تلاشت بهجرتها بعيداً عن موطنها . من ذلك أن الاختلاف بين : I shall و I will لم يعد له وجود فى الإنجليزية المتكلمة فى أمريكا ، فلا يقال الآن إلا : I will » (٣) .

كما يؤثر المسكن كذلك على تطور اللغات ، فإذا كان السكان مخلخلين متفرقين ، فإن هذا التبدد يساعد على الانقسام إلى لهجات ، وإذا كان السكان يعيشون متجمعين فى محلات ومدن ، فإن هذا النوع من الحياة يساعد على خلق اللغات المشتركة ، ومن ذلك نرى أن التأثير

(١) اللغة لقندريس ٤٢٣

(٢) انظر مقالنا : الركام اللغوى ، فى المجلة العربية (السنة الثانية / العدد الأول)

ص ٥٥ - ٦٠ . وكتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى ٣٧٦

(٣) اللغة لقندريس ٤٢٧

الاجتماعى لا يعوق تطور اللغة ، أو يعجل به فحسب ، بل يعين كذلك اتجاه هذا التطور ومداه ^(١) .

وبهنا هنا أن نشير إلى أن « التطور اللغوى » لا يحدث على نحو مشتت غير مطرد ، بل يحدث وفقاً لقواعد ثابتة ، يمكن أن نصوغها فى صورة قوانين دقيقة ، إذا تناولنا لغة ما فى عصرين متتابعين من تاريخ تطورها . وفيما يلى نعرض لطائفة من هذه القوانين بالشرح والتثليل :

١ - القَوَانِينُ الصَّوْتِيَّةُ

جرت العادة فى علم اللغة ، على أن يطلق على التغييرات الصوتية ، التى تطرأ على اللغة اسم : « القوانين الصوتية » ، مثل تلك التى تسمى قوانين « جريم » Grimm المتعلقة بالإبدال المباشر فى الأصوات الصامتة فى الجرمانية (Lautverschiebung) ، وقد نشرها « جريم » فى عام ١٨٢٢ م ^(٢) .

والقوانين الصوتية تعبر عن « علاقة بين حالتين متتابعتين للغة واحدة ، فى وسط اجتماعى معين » ^(٣) ، فهى ليست قوانين عامة شبيهة بقوانين علم الطبيعة أو الكيمياء ولهذا السبب نجد تطوراً صوتياً فى إحدى اللهجات ، ولا نجد له أثراً فى لهجة أخرى .

« فمن المعروف مثلاً أن القوانين فى العلوم الطبيعية ، تصدق دائماً ، بقطع النظر عن المكان والزمان ، فالتيار الكهربائى ، إذا وقع تحت ظروف معينة ، سوف يحلل الماء إلى أوكسجين وهيدروجين ، فى أى مكان وفى أى زمان ،

(١) انظر : اللغة لفندريس ٤٢٨

(٢) اللغة لفندريس ٧١ . وانظر : اللغة بين المعيارية والوصفية ٩٥

(٣) علم اللسان ، لأنطوان ميه ٤٦٧

وسوف يكون في استطاعتنا أيضا ، أن نتنبأ ببعض النتائج الأخرى إلى حد معين ، أما قوانين الأصوات فليست لها هذه الخواص ، إنها تنبئ فقط عن قدر معين من الاطراد في التطورات السابقة ، في حدود معينة ، من حيث الزمان والمكان ، أى أنها تشير إلى أن صوتا معينا قد تطور إلى صوت آخر بذاته ، في فترة كذا وفي لغة كذا ، تحت ظروف معينة ومحددة تحديدا دقيقا ^(١) .

ومن أجل ذلك كله ، يجب أن يؤخذ مصطلح : « القانون الصوتي » بمعناه الواسع لا بمعناه الدقيق ، كما في ميادين العلوم الطبيعية ، والكيميائية وما شابهها من العلوم .

« والذي يجمع بين حالتين متتابعتين في لغة واحدة ، إنما هو رباط تخلفه وليس رباطا طبيعيا ؛ لذلك لا يمكن أن نعرف مقدماً ، كيف يتطور هذا الصوت أو ذاك ، لأنه يوجد دائماً في تطور الأصوات ، عدد يكثر أو يقل من العوامل غير المنظورة التي تنتج أثرها . ومع ذلك فالقانون الصوتي ، بوصفه تعبيراً عن تغير وقع في الماضي ، له صفة الإطلاق ، وهذه الصفة نتيجة لانسجام النظام الصوتي واطراد التغيرات ... ويمكننا بواسطة القوانين الصوتية ، أن نصوغ في بضع عبارات ، تاريخ الأصوات في لغة من اللغات ، أو أن نكشف عن سر التغيرات التي أصابتها ... فإذا كان هناك لهجتان صادرتان عن لغة واحدة ، تبعا لقوانين خاصة ، فإن مظهرهما الصوتي يستبين بمعرفة هذه القوانين ، فإذا عرف أن الألمانية قد أبدلت ال z (تُس) من ال t (ت) القديمة الواقعة في أول الكلمة ، والتي احتفظت الإنجليزية بها ، فهنا المقابلة التي بين : ten و Zehn (عشرة) ، وبين : Zwingen

(يقسر) و twinge (يضغط) وبين : Zunge و (لسان) إلخ .
فالواحدة من هذه الكلمات تنبئ عن الأخرى » (١) .
وقد لاحظ العلماء ، أن التطور الصوتي يتصف بعدة خصائص ،
أهمها :

- ١ - أنه غير شعورى ، بمعنى أنه تلقائى غير متعمد ، ولا دخل فيه للإرادة الإنسانية « فالطفل يعتقد أنه يقوم بنفس الحركات الصوتية ، التى يقوم بها أبواه ، مع أنه يخالفهما ، فعدم شعورية التغير ، هو الذى يفسر لنا استمراره ، لأن الطفل قد يسعى إلى تصحيح خطئه ، لو أنه شعر به » (٢) .
- ٢ - أنه غير فردى ، وهذا عكس الاعتقاد القديم بأن « جميع الظواهر الاجتماعية فردية المنشأ وتصبح اجتماعية عن طريق التقليد » (٣) . وقد « ساد شطراً طويلاً من الزمن ، الاعتقاد بأن كل تغير صوتى ، إنما يصدر عن الفرد ، وأنه لم يكن إلا تغييراً فردياً ثم عُمم ، وهذا إدراك غير صحيح ، فليس فى وسع أى فرد أن يفرض على جيرانه نطقاً تنبؤ عنه فطرتهم ، وليس هناك من قسر جدير بتعميم تغير صوتى ، فلأجل أن يصير تغير ما ، قاعدة لمجموعة اجتماعية ، يجب أن يكون لدى كل أفراد هذه المجموعة ، ميل طبيعى لتحقيقه من تلقاء أنفسهم ، بل إن سلطان المحاكاة نفسه ، لا يقدر هنا على شيء ، فإن النطق الشاذ لا يجلب أتباعاً لصاحبه ، بل لا يجلب له بوجه عام إلا السخرية منه » (٤) .

(١) اللغة لفتندريس ٧٢

(٢) اللغة لفتندريس ٦٥ وعلم اللغة لعلى عبد الواحد وافي ٢٦٠ واللغة بين المعيارية

والوصفية ٩٢

(٣) علم اللغة ، لعلى عبد الواحد وافي ٥٣

(٤) اللغة لفتندريس ٦٩

٣ - أنه يسير ببطء وتدرّج ، فتطور الأصوات لا يحدث فجأة بين يوم وليلة ، وإنما يظهر أثره بعد أجيال ؛ لأن « اختلاف الأصوات في جيل ، عما كانت عليه في الجيل السابق له مباشرة ، لا يكاد يتبينه إلا الراسخون في ملاحظة هذه الشئون ، ولكنه يظهر في صورة جلية ، إذا وازنا بين حالتيهما في جيلين ، تفصلهما مئات السنين » ^(١) ؛ ولذلك فإن « النظام الصوتي بعيد كل البعد من أن يكون ثابتاً ، طوال تطور لغة من اللغات » ^(٢) .

٤ - أنه محدود بمكان معين ؛ « فمعظم ظواهر التطور الصوتي يقتصر أثرها على بيئة معينة ، ولا نكاد نعثر على تطور صوتي ، لحق جميع اللغات الإنسانية في صورة واحدة ، فتحول صوت القاف مثلاً إلى همزة ، لم يظهر إلا في بعض المناطق التي تتكلم العربية » ^(٣) .

وبهذا يمكننا أن نفسر اختلاف اللهجات العربية القديمة ، في الظاهرة اللغوية الواحدة ؛ وفي ذلك يقول أبو الطيب اللغوي : « ليس المراد بالإبدال أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف ، وإنما هي لغات مختلفة لمعان متفقة ، تتقارب اللفظتان في لغتين لمعنى واحد ، حتى لا يختلفا إلا في حرف واحد . قال : والدليل على ذلك أن قبيلة واحدة لا تتكلم بكلمة طوراً مهموزة ، وطوراً غير مهموزة ، ولا بالصاد مرة وبالسین أخرى ، وكذلك إبدال لام التعريف ميماً ، والهمزة المصدرة عينا ؛ كقولهم في نحو أن : عَن . لا تشترك العرب في شيء من ذلك ،

(١) علم اللغة ، لعلي عبد الواحد وافي ٢٦٠

(٢) اللغة لثندريس ٦٤

(٣) علم اللغة ، لعلي عبد الواحد وافي ٢٦١

وإنما يقول هذا قوم وذاك آخرون ^(١) » .

٥ - أنه محدود بزمان معين ؛ وهذا يعنى أنه قد ينتهى أثره بعد فترة من الزمن ، « فما دام التغير قد أصاب جميع الكلمات ، التى تقع تحت طائلته ، يصبح القانون الذى يفسره وكأنه قد نسخ ، ويمكن للغة أن تخلق مركبات صوتية جديدة مشابهة كل الشبه ، للمركبات التى كان التغير يعمل فيها سابقا ، فهذه المركبات تبقى دون تغير فيقال إنها لم تعد واقعة تحت سلطة القانون ، وهكذا يوجد فى كل اللغات مزدوجات ، تمثل كلمات من منبع واحد ، دخلت اللغة فى حقب مختلفة » ^(٢) . فقد لوحظ مثلاً أن العربية كانت تنطق الشين فى الكلمات المستعارة من الآرامية سينا ، فى فترة من فترات ، فتقول مثلاً : « سارية » بدلا من : šāritā (سَـرِيتَا) . غير أن هذا القانون فقد أثره بعد مدة ، فأبقت العربية على الشين ، فى الكلمات التى استعارتها من الآرامية ، فى هذه الحقبة الجديدة من الزمن ، مثل : « شقراق » وهو طائر النقار الأخضر ^(٣) .

٦ - أنه مطرد ، فالتطور الذى يصيب صوتا من الأصوات يسرى على هذا الصوت فى جميع أحواله ، ويظهر أثره فى جميع الكلمات المشتملة على هذا الصوت ، وعند جميع الأفراد الذين يوجدون فى هذه البيئة ؛ لأنه « لما كان التغير لا ينحصر فى كلمة منعزلة ، بل فى آلة النطق نفسها ؛ فإن جميع الكلمات ، التى تتبع آلية واحدة فى النطق ، تتغير بنفس

(١) المزهرة ١/٤٦٠ وليس فى المطبوع من كتاب : « الإبدال » لأبى الطيب اللغوى !

(٢) اللغة لفندريس ٧٤

(٣) انظر : فقه اللغات السامية ، لبروكلمان ٤٩ - ٥٠

الصورة ^(١) ؛ فإنه « إذا حدث لأى تغير صوتى أن صار فعالا ، فى منطقة معينة ، وزمن معين ، فإنه يتوقع له أن يكون تأثيره عاما ، إلا إذا تدخلت عوامل أخرى أجنبية ... مثل التأثيرات التعليمية ، أو الاقتراض الأجنبى ، أو اللهجى ، أو القياس ^(٢) » .

التَغْيِيرَاتُ التَّارِيخِيَّةُ وَالرَّكِبِيَّةُ لِأَصْوَاتِ

أولاً : التَغْيِيرَاتُ السَّارِيَّةُ :

وتنقسم التغيرات الصوتية عموماً ، إلى قسمين كبيرين ، أولهما :
التغيرات التاريخية ، والثاني التركيبية . ونعنى بالتغيرات التاريخية ، تلك
التغيرات التي تحدث من التحول في النظام الصوتي للغة ، بحيث يصير
الصوت اللغوي ، في جميع سياقاته صوتاً آخر ، أما التغيرات التركيبية ،
فهى التي تصيب الأصوات ، من جهة الصلات التي تربط هذه الأصوات ،
بعضها ببعض في كلمة واحدة .

ومن أمثلة التغيرات التاريخية في الأصوات : تطور الياء المهموسة
(P) في اللغة السامية الأم ، إلى « فاء » في اللغات السامية الجنوبية ، وهى
العربية والحبشية ، وقد بقى الأصل كما هو ، في اللغات السامية الشمالية ،
وهى : العبرية والآرامية والأكدية ، مثال ذلك كلمة : pōl (פֹּל) في
العبرية ^(١) ، التى صارت في العربية : « فول » ، وفي الحبشية : fāl (ቶል) .

ومثال ذلك أيضاً : Pē (פֶּ) في العبرية = Pūmā (פֻּמָּא)
في الآرامية = pū في الأكادية = « فو » في العربية [إلى جوار : « فَم » بالتميم ،
الذى نسى أصله ، فعَدَّ أصلاً من أصول الكلمة ، وألحق به التنوين الذى
يقابل التميم ، وفتحت الفاء قياساً على بعض أسماء الأعضاء في الجسم ، مثل :
يد ، وخذ ، وعين ، ورأس ، وغير ذلك] af = (אֶף) في الحبشية .
ومثال ذلك أيضاً : pālag (פֶּלַג) في العبرية = plāg (פֶּלַג)

(١) انظر : سفر صمويل الثانى ٢٨/١٧ وسفر عزرا ٩/٤

في الآرامية ، بمعنى (شق) فيهما = Palgu في الأكادية بمعنى (قناة) = falag (𐎧𐎵𐎶) في الحبشية بمعنى « جدول » = « فَلَج » و « فَلَج » في العربية بمعنى « شَقَّ » .

وتطور هذه الپاء (P) المهموسة في العبرية والآرامية إلى « فاء » ، مسألة خاصة بالسياق الصوتي فيهما ، فإن هذا الصوت مع خمسة أخرى ، يطلق عليها أصوات (بجذ كپت) الأصل فيها أن تكون انفجارية ، إلا إذا جاءت بعد حركة ، فإنها في هذه الحالة تتحول إلى أصوات احتكاكية ، دون أن يتأثر المعنى بذلك ، فمثلا : كلمة « فتح » في العربية ، تقابل في العبرية pātah (𐤐𐤕𐤕) ، كما تقابل في الآرامية : ptah (𐤐𐤕𐤕) غير أن المضارع من هذا الفعل في العبرية هو : yiftah (𐤕𐤕𐤕𐤕) وفي الآرامية (𐤕𐤕𐤕𐤕) ، فلم تنطق « الپاء » فيهما « فاء » ، إلا لوقوعها هنا بعد حركة .

وبعد صوت الجيم في العربية ، مثالا طيبا للتغيرات التاريخية في الأصوات ؛ فإن مقارنة اللغات السامية كلها ، تشير إلى أن النطق الأصلي لهذا الصوت ، كان بغير تعطيش ، كالجيم القاهرية تماما ؛ فكلمة : « جمل » مثلا ، هي في اللغة العبرية : gāmāl (𐤒𐤓𐤓𐤕) وفي الآرامية : gamlā (ܓܡܠܐ) وفي الحبشية : gamal (ገሙል) أما العربية الفصحى ، فقد تحول فيها نطق هذا الصوت ، من الطبق إلى الغار ، أى من أقصى الحنك إلى أوسطه كما تحول من صوت بسيط إلى صوت مزدوج يبدأ بـ دال من الغار ، ثم ينتهى بشين مجهورة .

ومن التغيرات التاريخية لهذا الصوت ، انحلاله إلى أحد عنصريه المكوّنين له في اللهجات العربية الحديثة ؛ إذ ينطق كالدال في صعيد مصر ، فترى أهالى مدينة « جرجا » مثلا ، يسمون مدينتهم : « دردا » كما يقولون : « دَمَل » و « داموسة » فى : « جمل » و « جاموسة » وغير ذلك .

والمكون الثانى للجيم ، وهو الشين المجهورة نسمعه جيداً فى نطق الشوام لهذا الصوت ، وهو ما نسميه « بالجيم الشامية » .

ويبدو أن انحلال الجيم العربية الفصيحة ، إلى العنصر الأول من عنصرها ، قد حدث منذ وقت مبكر فى اللهجات العربية ، فقد ذكر ابن مكى الصقلى (المتوفى سنة ٥٠١ هـ) فى كتابه : « تثقيف اللسان وتلقيح الجنان » أن الناس فى عصره ، كانوا يقولون « دشيش » فى : « جشيش » ^(١) . ومثل ذلك رواه أبو بكر الزبيدى (المتوفى سنة ٣٧٩ هـ) عن عوام الأندلس ، فى كتابه : « لحن العوام » ^(٢) ، كما ذكر ابن هشام اللخمي (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ) إلى جانب هذه الكلمة كذلك : « تَدَشَّيت » فى : « تجشأت » ^(٣) .

وأقدم من هذا انحلالها إلى العنصر الثانى ، وهو الشين المجهورة ، وقد ضاع منها الجهر ، فصارت شيئاً مهموسة ، كالشين الأصلية فى العربية ، فقد روى عن قبيلة تميم أنهم كانوا يقولون فى المثل : « شَرُّ ما أشاءك إلى مُحَّةِ عُرقوب » ^(٤) ، بدلا من : « أجاءك » أى ألجأك ، وقال زهير بن ذؤيب العدوى :

فَيَالِ تَمِيمٍ صَابِرُوا قَدْ أُشْتِمْتُ إِلَيْهِ وَكَوْنُوا كَاخِرَةِ الْبُسْلِ ^(٥)

(١) انظر لحن العامة والتطور اللغوى ٢٠٦

(٢) لحن العوام للزبيدى ٢٠

(٣) انظر لحن العامة والتطور اللغوى ٢٤١ وتصحيح التصحيف ١٨٢

(٤) انظر : معانى القرآن للفراء ١٦٤/٢ والصحاح (شياً) ٥٩/١

(٥) الصحاح للجوهري (شياً) ٥٩/١

كما قال الراجز :

إذ ذاك إذ حبلُ الوصال مُدْمَش ^(١)

أى : (قد أُجثتم) بمعنى : « أُجثتم » ، و « مدمج » .

كما يروى لنا أبو عمرو الشيباني شيئاً من هذا ، فيقول : الإِشاءة : الاضطرار . وأهل الحجاز يقولون : الإِجاءة ، تقول : ما أجاءك إلى كذا وكذا ؟ أى ما اضطرك إليه قال الله عز وجل : فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، وقال الأخطل :

[ستقذف وائل حولي جميعاً] وأطعن إن أُشِئت إلى الطعان

وفي الأمثال : قد أُشِئت عقيل إلى عقلك ، أى قد اضطرت إلى عقلك ^(٢) .

ويروى لنا أصحاب كتب لحن العامة ، بعض أمثلة هذه الظاهرة ، عبر عصور العربية ، وفي أصقاعها المختلفة ؛ فقد رويوا لنا مثلاً : « اشترت الدابة » فى : « اجترت » و « فلان مشتهد » فى : « مجتهد » و « اشترأ على فلان » فى : « اجترأ عليه » و « شخّ الصبى » فى : « جخّ » و « فشر » فى : « فَجَرَ » و « وشّ » فى : « وجه » ^(٣) وغير ذلك .

وهناك تغيير تاريخي ثالث للجيم فى اللهجات العربية ، وهو تحولها إلى « ياء » ، وقد حدث هذا فى لهجة تميم كذلك ؛ فقد روى أن بنى تميم يقولون فى : « الصهريج » وفى جمعه : « الصهاريج » وهو الذى يجتمع فيه الماء : « الصهرى والصهارى » ، كما روى أبو زيد أن بعض بنى تميم قال :

(١) سر صناعة الإعراب ٢١٥/١ وألف باء للبلى ٤٣٢/٢

(٢) الجيم لأبى عمرو الشيباني ٧٠/١ والبيت فى ديوان الأخطل ١٩٢ والتكملة منه .

(٣) انظر : لحن العامة والتطور اللغوى ٢٠٦ ؛ ٢٤١ ؛ ٣١٥ ؛ ٣٣٥ وتصحيح

« شيرة » للشجرة ، وعلى ذلك أنشدت أم الهيثم :
إذا لم يكن فيكنّ ظلّ ولا جنى فأبعد كنّ الله من شيرات
تريد : « شجرات » .

وهذه الظاهرة تشيع في عصرنا الحاضر ، في بعض قرى جنوبى العراق ، وبعض بلدان الخليج العربى ، إذ يقولون فى « مسجد » مثلا :
« مسيد » ، وفى « دجاج » : « دياى » وغير ذلك (١) .

وصوت « القاف » كذلك من الأصوات التى عانت كثيرا من التغيرات التاريخية فى العربية ؛ فإن مقارنة اللغات السامية تدل على أنه صوت شديد مهموس ، ينطق برفع مؤخرة اللسان ، والتصاقها باللهاة لكى ينحبس الهواء عند نقطة هذا الالتصاق ، ثم يزول هذا السد فجأة ، مع عدم حدوث اهتزازات فى الأوتار الصوتية ؛ ففي العبرية مثلا Kōl (כּוֹל) بمعنى « صوت » ، وفى الآرامية : Kdām (כְּדָם) بمعنى « قدام » ، وفى الحبشية kōma (ካማ) بمعنى « قام » ، وفى الأكادية : pakad بمعنى « بَحَثَ » وهذا النطق المهموس ، هو الذى نسمعه الآن من أفواه مجيذى القراءات القرآنية فى مصر .

وقد عدّ قدماء اللغويين العرب : « القاف » من الأصوات المجهورة ، فإن صدق وصفهم هذا ، كان ذلك النطق من التغيرات التاريخية فى العربية القديمة ، وقد بقى هذا النطق المجهور ، فى أغلب البوادر العربية فى الوقت الحاضر .

غير أن هناك تغيرات تاريخية أخرى كثيرة ، طرأت على هذا الصوت

(١) انظر فى كل ذلك : فصول فى فقه العربية ١٣٢ - ١٣٣

في البلاد العربية ، فهو في كلام كثير من أهل مصر والشام : « همزة » ، وقد روى لنا في القديم مثل هذا النطق في كلمة : « القَفْز » و « الأَفْز » ^(١) ، كما ينطق في السودان وجنوب العراق « غينا » ، فنسمعهم يتحدثون عن « الاستغلال » ، وهم يقصدون بذلك : الاستقلال ، وفي لهجة مصر كلمتان من هذه الظاهرة هما : « يَغْدِر » ومشتقاتها ، بدلا من « يَقْدِر » ، و « زغزغ » بمعنى : حرك يده في خاصرة الصبي ليضحكه ، ولها صلة « بالزرقعة » المروية لنا عن العرب بمعنى ترقيص الطفل ^(٢) . كما ينطق صوت القاف صوتاً مزدوجاً كالجيم الفصيحة ، في بعض بلدان الخليج كالبحرين ؛ إذ يقولون مثلاً : « الجُبلة » بدلاً من : « القِبلَة » ، كما نسمعها في مدينة الرياض ، صوتاً مزدوجاً كذلك غير أنه مكوّن من الدال والزاي (dz) ، في مثل : « دُزيلة » في : « قِبلَة » ، و « المَذْزيرة » في : « المَقْييرة » و « دُزليب » في : « قليب » بمعنى : « البئر » وغير ذلك . وهناك أخيراً تطور للقاف ، لدى كثير من الفلسطينيين ، بنطقها كالكاف ، فهم يقولون مثلاً : « كال » في : « قال » ، و « كتله » في : « قتله » وغير ذلك .

ثانياً : التغيرات التركيبية :

عرفنا من قبل أن التغيرات التركيبية ، هي تلك التغيرات ، التي تصيب الأصوات ، من جهة الصلات التي تربط هذه الأصوات بعضها ببعض في كلمة واحدة ، فهي لذلك مشروطة بتجمع صوتي معين ، وليست عامة في الصوت في كل ظروفه وسياقاته اللغوية .

(١) انظر : الإبدال لأبي الطيب ٥٦٢/٢

(٢) انظر : اللهجة العامية المصرية في القرن الحادي عشر ١١٥

وأهم قوانين التغيرات التركيبية للأصوات ، قانونان هما : قانون المماثلة ، وقانون المخالفة ، أما الأول فيدعو صوتين مختلفين إلى التماثل أو التقارب ، في حين يدعو الثانى صوتين متماثلين إلى التخالف والتباعد . ونفصل فيما يلى القول فى هذين القانونين :

(أ) قَانُونُ الْمِمَاتَلَّةِ (Assimilation)

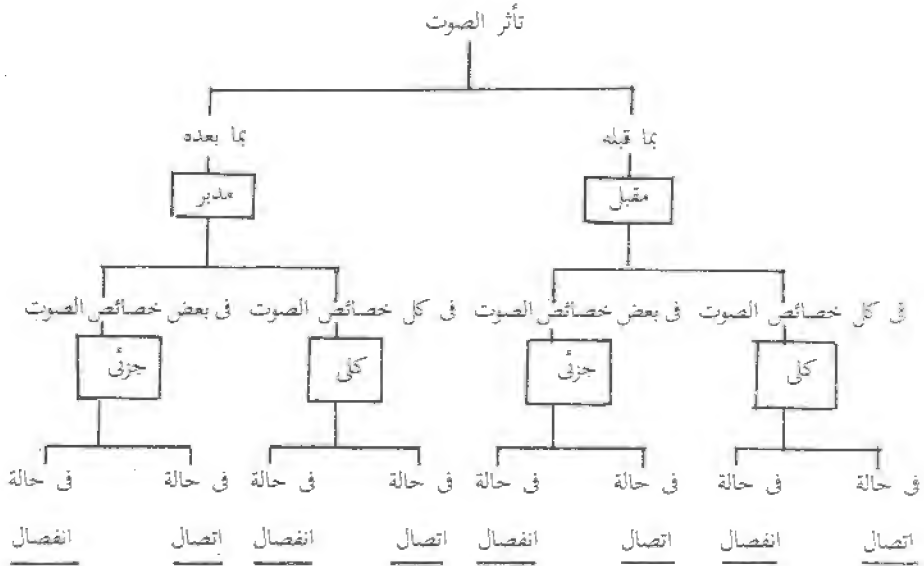
تتأثر الأصوات اللغوية ، بعضها ببعض ، عند النطق بها فى الكلمات والجمل ، فتتغير مخارج بعض الأصوات أو صفاتها ، لكتى تتفق فى المخرج أو فى الصفة ، مع الأصوات الأخرى المحيطة بها فى الكلام ، فيحدث عن ذلك نوع من التوافق والانسجام ، بين الأصوات المتنافرة فى المخرج أو فى الصفات ، ذلك أن أصوات اللغة تختلف فيما بينها - كما نعرف - فى المخرج ، والشدة والرخاوة ، والجهر والهمس ، والتفخيم والترقيق ، وما إلى ذلك ، فإذا التقى فى الكلام صوتان من مخرج واحد ، أو من مخرجين متقاربين ، وكان أحدهما مجهوراً والآخر مهموساً مثلاً ، حدث بينهما شدّ وجذب ، كل واحد منهما يحاول أن يجذب الآخر ناحيته ، ويجعله يتماثل معه فى صفاته كلها ، أو فى بعضها .

ويعرف « دانيال جونز » D.Gones المماثلة بأنها « عملية استبدال صوت بصوت آخر ، تحت تأثير صوت ثالث قريب منه ، فى الكلمة أو فى الجملة ^(١) » .

وهذا التوافق كما يحدث بين الأصوات الصامتة ، يحدث كذلك بين الحركات ، كما يحدث أيضاً بين الأصوات الصامتة والحركات .

وهناك اصطلاحات لعلماء الأصوات ، في أنواع التأثير الناتجة عن قانون المماثلة ، فإن أثر الصوت الأول في الثاني ، فالتأثير (مُقْبِل) ، وإن حدث العكس فالتأثير (مُدْبِر) ، وإن حدثت مماثلة تامة بين الصوتين ، فالتأثير (كلى) ، وإن كانت المماثلة في بعض خصائص الصوت ، فالتأثير (جزئى) . وفى كل حالة من هذه الحالات ، قد يكون الصوتان متصلين تماماً ، بحيث لا يفصل بينهما فاصل ، من الأصوات الصامتة أو الحركات ، وقد يكون الصوتان منفصلين بعضهما عن بعض بفاصل من الأصوات الصامتة أو الحركات .

ويمكن تلخيص بيان أشكال التأثير الصوتى ، على النحو التالى :



وقبل أن نضرب الأمثلة المختلفة على ذلك ، نحب أن نشير هنا إلى أن الصوت لا يمكن أن ينقلب إلى صوت آخر ، بعيد عنه في المخرج جدا ، فلا ينقلب صوت من أصوات الشفة أو الأسنان مثلاً ، إلى صوت آخر من أصوات الحلق ، وكذلك العكس .

وقد فطن إلى هذه الحقيقة ، العلامة ابن جنى ؛ فقال : « فأما قول من قال في قول تأبط شرًا :

كأنما حثحثوا حُصًا قوادمه أو أمّ خشف بذي شتّ وطباق

إنه أراد : حثّثوا ، فأبدل من الثاء الوسطى حاء ، فمردود عندنا ، وإنما ذهب إليه البغداديون وأبو بكر [بن السراج] معهم . وسألت أبا علي عن فساده ، فقال : العلة في فساده أن أصل القلب في الحروف ، إنما هو فيما تقارب منها ، وذلك : الدال والطاء والثاء ، والذال والظاء والثاء ، والهمزة والهاء ، والميم والنون ، وغير ذلك مما تدانت مخارجة . فأما الحاء فبعيدة عن الثاء وبينهما تفاوت يمنع من قلب إحداهما إلى أختها . قال : وإنما (حثحث) أصل رباعي ، و (حثّ) أصل ثلاثي ، وليس واحد منهما من لفظ صاحبه ، إلا أن (حثحث) من مضاعف الأربعة ، و (حثّ) من مضاعف الثلاثة » (١) .

كما يقول ابن سيدة الأندلسي : « ما لم يتقارب مخرجاه ألبتة ، فقليل على حرفين غير متقاربين ، فلا يسمى بدلا ؛ وذلك كإبدال حرف من حروف الفم ، من حرف من حروف الحلق » (٢) .

ويقول الفراء : « إذا تقارب الحرفان في المخرج ، تعاقبا في اللغات ؛ كما يقال : جَدَف ، وجَدَث » (٣) .

(١) سر صناعة الإعراب ١٩٧/١ ورأى البغداديين وابن السراج نقله صاحب اللسان (حبيب) ٣٣٣/١ في قوله : « وخيخوا عنكم من الظهرة : أريدوا . وأصله : خيخوا ، بثلاث باءات ، أبدلوا من الباء الوسطى خاء ، للفرق بين فعلل وفعل . وإنما زادوا الجاء من سائر الحروف ؛ لأن في الكلمة خاء . وهذه علة جميع ما يشبه من الكلمات » .

(٢) المخصص ٢٧٤/١٣

(٣) معاني القرآن ٢٤١/٣

وفيما يلي نضرب الأمثلة لكل نوع من أنواع التأثير السابقة :

١ - التأثير المقبل الكلى في حالة الاتصال : من أمثله ما يلي :

أ - تتأثر تاء الافتعال دائماً بالذال أو بالطاء قبلها ، فتقلب ذالا أو طاء مثل : ادترك ، أدرك ، ادتهن ، آدهن ؛ اطلب ، اطلّب ؛ اطلع ، اطلّع ؛ اطرّد ، اطرّدت .

ب - تتأثر تاء الافتعال غالباً بالذال أو بالصاد أو بالضاد قبلها فتقلب ذالا أو ضاداً ؛ مثل : اذتكر ، اذكر ؛ اضجع ، اصبر ؛ اصبر .

ج - تتأثر تاء الفاعل بلام الفعل ، إذا كانت طاء ، فتقلب طاء في بعض اللهجات القديمة ؛ وعلى هذه اللغة ، جاء قول علقمة ابن عبدة التميمي :

وفي كل حي قد خبطُ بنعمة فحقّ لشأس من نذاك ذئوب
ويقول سيويه : « وأعرب اللغتين وأجودهما أن لا تقلبها طاء ، لأن هذه التاء علامة الإضممار ، وإنما تحيى لمعنى ، وليست تلزم هذه التاء الفعل ، ألا ترى أنك إذا أضمرت غائباً قلت (فَعَل) فلم تكن فيه تاء » (١) .

د - تتأثر الواو الساكنة بالكسرة القصيرة قبلها ، فتحول إلى كسرة ماثلة ، وتتحد مع الحركة المؤثرة في كسرة طويلة ؛ مثل موزان > ميزان ؛ موعاد > ميعاد (٢) .

(١) كتاب سيويه ٤٢٣/٢

(٢) انظر : المصنف ٣٢٠/٢ والمقتضب ٩٢/١ ؛ ٢١١/١

ومثل ذلك تتأثر الياء الساكنة بالضممة القصيرة قبلها ، فتحول إلى ضمة مماثلة ، وتتحد مع الحركة المؤثرة في ضمة طويلة ؛ مثل : مُيَقِن « موقن ؛ مُيَسِر « موسر »^(١) .

٢ - التأثير المقبل الكلى في حالة الانفصال : ومن أمثلته ما يلي :

أ - تتأثر حركة الضم في ضمير النصب والجر الغائب المفرد المذكور (هُ) والجمع المذكور (هُم) الجمع المؤنث (هُنَّ) والمثنى (هُما) - بما قبلها من كسرة طويلة أو قصيرة أو ياء ، فتقلب الضمة كسرة ، مثل : *برجلُهُ* < *برجلِهِ* ؛ *فيه* < *فيه* ؛ *عليه* < *عليهِ* ؛ *ضربتُهُ* < *ضربتِهِ* ؛ *بصاحبِهِم* < *بصاحبِهِم* ؛ *قاضيهِم* < *قاضيهِم* ؛ *بهنَّ* < *بهنَّ* ؛ *بهُما* < *بهُما* . وفي قراءة حفص عن عاصم : « وما أنسانيهُ إلا الشيطان » (الكهف ٦٣/١٨) على الأصل في حركة هذا الضمير ، وفيها كذلك : « ومن أوفى بما عاهد عليهِ الله » (الفتح ١٠/٤٨) . وقد حافظت القبائل الحجازية على هذا الأصل في نطقها ، قال سيبويه : « فاهاء تكسر إذا كانت قبلها ياء أو كسرة ... وذلك قولك : مررت بهى قبل ، ولديهى مال ، ومررت بدارهى قبل ، وأهل الحجاز يقولون : مررت بهُو قبل ، ولديهو مال ، وقرعُون « فحسفنأ بهُو ودارهُو الأرض »^(٢) . كما يقول المبرد : « فأما أهل الحجاز خاصة ، فعلى الأمر الأول فيها ، يقرعون : فحسفنأ بهُو ودارهُو الأرض ... ومن لزم اللغة الحجازية ، قال : عليهِ مأل »^(٣) .

(١) انظر : المقتضب ٩٢/١ ؛ ٢١١/١

(٢) كتاب سيبويه ٢٩٤/٢

(٣) المقتضب للمبرد ٣٧/١

وفي التسهيل لابن مالك : « وهاء مضمومة للغائب ، وإن وليت ياء ساكنة أو كسرة ، كسرهما غير الحجازيين » ^(١) . وفي شرحه يقول ابن مالك : « ولغة الحجازيين في هاء الغائب الضم مطلقا ، وهو الأصل فيقولون : ضربتُه ، ومررت بهُ ، ونظرت إليهُ . ولغة غيرهم الكسر بعد الكسرة ، أو الياء الساكنة إتباعا . وبلغه غيرهم قرأ القراء إلا حفصا في : وما أنسانيهُ إلا الشيطان ، وبما عاهد عليهُ الله ، وحمزة في : لأهلُهُ امكثوا في الموضوعين ، فإنهما قرءا بالضم ، على لغة الحجازيين ^(٢) » .

ب - روى أبو بكر الزبيدي أن عوام الأندلس في القرن الرابع الهجري ، كانوا يقولون : خيْزَران وسيْكِران ، وهو نبت تدوم خضرته في القيظ ^(٣) بدلا من : خيْزَران وسيْكِران .

٣ - التأثير المقبل الجزئي في حالة الاتصال : من أمثلته ما يلي :

أ - تتأثر تاء الافتعال بالصاد أو بالضاد أو بالزاي قبلها فتقلب طاء في الحالتين الأوليين ، ودالا في الحالة الثانية ، مثل : اصطبغ ، اضطجع ؛ اضطلع ، ازتجر ؛ ازدجر . ويقول الزجاج في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ^(٤) ﴾ إن اصطفاه « افتعل من الصفوة . الأصل : اصتفاه ، فالتاء إذا وقعت بعد الصاد أبدلت طاء ؛ لأن التاء من مخرج الطاء ،

(١) التسهيل لابن مالك ٢٤

(٢) شرح التسهيل لابن مالك ١٤٤/١ . وانظر في أصالة هاء الضمير : معاني القرآن

للغراء ٥/١

(٣) لحن العوام للزبيدي ٥٤ ؛ ١٢٤

(٤) البقرة ٢٤٧/٢

والطاء مطبقة ، كما أن الصاد مطبقة ، فأبدلوا الطاء من التاء ؛
ليسهل النطق بما بعد الصاد ^(١) .

ب - تتأثر تاء الافعال بالجيم ، إذا كانت فاء للفعل ، فتقلب دالاً
في بعض اللهجات القديمة ، مثل : اجتمع ، اجدمع ؛ اجتز ،
اجدز .

ويقول ابن جنى : « وقد قلبت تاء افتعل دالاً مع الجيم في بعض
اللغات . قالوا : اجدمعوا ، في : اجتمعوا ، واجدز ، في : اجتز ،
وأنشدوا :

فقلت لصاحبي لا تحبساني بنزع أصوله واجدز شيعا
ولا يقاس ذلك إلا أن يسمع ، لا تقول في اجتراً : اجدرأ ، ولا
في اجترح اجدرح » ^(٢) !

ج - تتأثر التاء بالأصوات المجهورة قبلها ، فتقلب ذالاً في بعض
اللهجات القديمة ، مثل : يجنو ؛ تلعم ؛ تلعزم ، وإن
كان ابن جنى ينكر أن يكون ذلك قلباً ويدعى أنهما لغتان ؛
فيقول : « وأما قولهم : جذوت وجثوت ، إذا قمت على أطراف
أصابعك . وقرأت على أبي علي :

إذا شئت غنتني دهاقين قرية وصناعة تجذو على كل منسم
فليس أحد الحرفين بدلاً من صاحبه ، بل هما لغتان ، وكذلك
قولهم أيضاً : قرأ فما تلعم ، وما تلعزم » ^(٣) !

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣٢٤/١

(٢) سر صناعة الإعراب ٢٠١/١

(٣) سر صناعة الإعراب ٢٠١/١

د - تتأثر تاء الفاعل بلام الفاعل ، إذا كانت صوتاً مفخماً ، فتقلب التاء طاء في بعض اللهجات القديمة ، وهي تلك التي يقول أصحابها : فَحَصَّطُ برجلي ، بدلاً من فحصت ^(١) .

هـ - روى أبو الطيب ^(٢) أنه يقال في « نَشْرُ » : « نَشْس » ، كما يقال في : « رجل جبس » للرجل الدنيء : « رجل جَبْز » ؛ ففي المثال الأول تأثرت الزاى المجهورة بالشين المهموسة قبلها ، فقلبت إلى نظيرها المهموس وهو السين ، وفي المثال الثاني تأثرت السين المهموسة بالباء المجهورة قبلها فقلبت إلى نظيرها المجهور وهو الزاى .

٤ - التأثير المقبل الجزئي في حالة الانفصال : من أمثلته ما يلي :

أ - تتأثر السين المهموسة بالراء المجهورة قبلها ، فتقلب إلى نظيرها المجهور وهو الزاى في كلمة : مِهْرَاس ، التي صارت : مِهْرَاز ، في لهجة الأندلس العربية ، في القرن السادس الهجري ، كما روى لنا ذلك ابن هشام اللخمي ^(٣) .

ب - تتأثر الذال بالقاف قبلها ، فتقلب إلى نظيرها المفخم وهو الظاء ، في بعض اللهجات القديمة ، يقال للشاة التي تضرب بخشبة حتى تموت : وقيد ووقيظ . ويقول ابن جنى : « يقال : تركته وقيداً ووقيظاً . والوجه عندي والقياس أن تكون الظاء بدلاً من الذال ، لقوله عز اسمه : والموقودة ، بالذال . ولقوهم : وقدة يقدة ،

(١) انظر كتاب سيبويه ٤٢٣/٢ وسر صناعة الإعراب ٢٢٥/٢

(٢) الإبدال لأبي الطيب اللغوي ١١٨/٢

(٣) المدخل إلى تقويم اللسان ٣٤

ولم أسمع : وقطة ولا موقوطة ؛ فالذال أعم تُصرفاً فلذلك قضينا بأنها الأصل « (١) .

ج - تتأثر الدال بالراء قبلها ، في لهجة الأندلس العربية في القرن الرابع الهجري فتنقلب إلى نظيرها المفخم ، وهو الضاد لأن الراء صوت ذو قيمة تفخيمية مثل : معريد « معريض » (٢) .

وهذه إحدى خصائص صوت الراء في العربية ، إذ يميل هذا الصوت إلى تفخيم بعض الأصوات المجاورة له ، مثل قولنا : « صور » في « سور » و « أحرص » في « أحرص » و « رفض » في « رفس » (٣) ، وفي كراسة الامتحان كتب بعض الطلاب كلمة : « أضران » بدلا من : « أدران » ؛ وقد روى مثل ذلك كثيرا في العربية الفصحى ؛ إذ فيها : « الخراس » و « الخراص » بمعنى صاحب الدنان ، و « رسخ الشيء » و « رصخ » بمعنى : ثبت و « رجل أرسح » و « أرسح » بمعنى : خفيف لحم الوركين ، و « السراط » و « الصراط » بمعنى : الطريق ؛ وغير ذلك (٤) .

هـ - التأثير المدبر الكلي في حالة الاتصال : من أمثلته ما يلي :

أ - في مضارع صيغتي : تفعل وتفاعل ، تتأثر التاء بعد تسكينها للتخفيف ، بفاء الفعل إذا كانت صوتا من أصوات الصغير أو

(١) سر صناعة الإعراب ٢٣٣/١

(٢) لحن العوام للزبيدي ٢٩٦

(٣) انظر كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوي ٣٣٥ وفصول في فقه العربية ٢٠٠

(٤) انظر في هذا وغيره : كتاب الإبدال لأبي الطيب اللغوي ١٧٨/٢ وما بعدها ،

وكتاب القلب والإبدال لابن السكيت ٤٢ - ٤٣

الأسنان ، ثم قيسـت على ذلك صيغة : الفعل الماضي ؛ مثل :

يَتَذَكَّرُ ، يَتَذَكَّرُ ، يَذْكُرُ ← اذْكُرْ (في الماضي)
يَتَطَهَّرُ ، يَتَطَهَّرُ ، يَطْهَرُ ← اطْهَرْ (في الماضي)
يَتَدَارَأُ ، يَتَدَارَأُ ، يَدَارَأُ ← اِدَارَأْ (في الماضي)
يَتَثَاقِلُ ، يَتَثَاقِلُ ، يَثَاقِلُ ← اَثَاقِلْ (في الماضي)

وقد حدث هذا في اللغة العربية القديمة ، وجاء ذلك في القرآن الكريم جنبا إلى جنب مع الصيغة الأخرى ، التي لم يحدث فيها تطور ، كقوله تعالى : ﴿ اَثَاقِلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ [التوبة ٣٨/٩] واذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها ﴿ [البقرة ٧٢/٢] بل اذكرك علمهم في الآخرة ﴿ [النحل ٦٦/٢٧] وما يذكر إلا أولو الألباب ﴿ [البقرة ٢٦٩/٢] وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنتفه الذكري ﴿ [عيس ٣/٨٠ - ٤] حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيّنت ﴿ [يونس ٢٤/١٠]

ولعل هذه الظاهرة كانت في سبيل التطور في العربية الفصحى ، عندما جاء الإسلام ، ولذلك نجد أمثلتها في القرآن الكريم - كما قلنا - جنبا إلى جنب مع الصيغة القديمة التي لم يحدث فيها تغير للأصوات ، كقوله تعالى : ﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه ﴾ [القلم ٤٩/٦٨] وما يتذكر إلا من ينيب ﴿ [غافر ١٣/٤٠] قالوا إنا تطيرنا بكم ﴿ [يس ١٨/٣٦] وهو يقول في آية أخرى : ﴿ قالوا اطيننا بك وبمن معك ﴾ [النحل ٤٧/٢٧] . بل إن الآية الواحدة لتحتوى في بعض الأحيان على الصورتين معاً ، كقوله تعالى ﴿ ليدَّبَرُوا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ [ص ٢٩/٣٨] .

وقد ظل هذا التطور سائرا في طريقه في لهجات الخطاب ، حتى ساد وحده وقضى على الظاهرة القديمة ؛ ففي اللهجة العامية المصرية نقول مثلاً : فلان اصَّدعت دماغه ، واسَّرع في كلامه ،

واشَّهَى الأَكْل ، واصَّوَر ، واطَّوَع في الجيش ، ولا أثر للصيغة القديمة في لهجات الخطاب ؛ إذ لا يقال فيها مثلاً : فلان تصدعت دماغه ، وتسرع في كلامه ، وتشهى الأكل ، وتصور ، وتطوع في الجيش .

وكذلك الحال في صيغة (تفاعل) إذ ماتت هي الأخرى ، وحلت محلها صيغة (اتفاعل) ، التي شاهدنا مولدها في عصر نزول القرآن الكريم ؛ إذ نقول الآن في لهجات الخطاب : فلان أطاول على فلان ، واشَّاتم هوَّ وهوَّ ، واسَّاهل معاه ، واصَّالحوأ سوا ، بدلا من : تطاول عليه : وتشَّاتم ، وتساَّهل ، وتصالح . بل لقد سادت صيغتنا : اتفَعَّل واتفاعَل ، في اللهجة العامية المصرية حتى ولو لم يكن في الأصل صوت من أصوات الصفير أو الأصوات الأسنانية ؛ كقولنا مثلاً : « اتفرج » و « اتبهذل » و « اترازل عليه » وغير ذلك .

وهذه الظاهرة خير مثال على ما سبق أن قلناه ، من أن التطور اللغوي في أية ظاهرة لغوية ، لا يحدث فجأة فيقضى بين يوم وليلة على كل أثر للقديم .

ب - تتأثر النون في : إِنْ وَأَنْ وَمَنْ وَعَنْ ، بالميم واللام التي تليها ، فتقلب ميمًا أو لامًا ، مثل : إِمَّا وَأَمَّا وَأَلَّا وَمِمَّا وَعَمَّا ، وما إلى ذلك .

ج - في العربية القديمة ، تتأثر لام التعريف بما بعدها ، من أصوات الصفير والأسنان والأصوات المائعة (الراء واللام والنون) ، وهي ما تسمى عند اللغويين العرب بالحروف الشمسية ، فتدغم فيها ،

وقد جمعها بعض الشعراء في أوائل كلمات البيت التالي :

طب ثم صل رحما تفضضف ذا نعم دع سوء ظن زر شريفا للكرم

كما ضبطها أبو العلاء المعرى بقوله : « والحروف التي تدغم فيها لام التعريف تنقسم في ترتيب حروف المعجم ثلاثة أقسام ، فالقسم الأول : حرفان متواليان ، وهما الثالث من حروف المعجم والرابع ، وذلك : التاء والتاء ، والثاني : عشرة أحرف متواليات ، أولها الدال على ترتيب حروف المعجم ، وآخرها الظاء . والثالث : حرف فارد تدغم فيه اللام ، وهو النون ^(١) » .

د - روى لنا اللغويون في (وَتَدَ) : (وَدَّ) وقالوا : « الأصل : وَتَدَ وهي اللغة الحجازية الجيدة ، ولكن بنى تميم يسكنون التاء ويدغمونها في الدال » ^(٢) .

وتسكين الوسط للتخفيف ، روى لنا في العربية كثيرا ، وقالوا عنه إنه « لغة بنى بكر بن وائل ، وأناس كثير من تميم ^(٣) » ، كما يروى عن قبيلة ربيعة كذلك ^(٤) .

هـ - تتأثر اللام في كلمة : (بل) بالراء في أول الكلمة التي تأتي بعدها ، فتقلب راء ؛ كقول الشاعر :

عافت الماء في الشتاء فقلنا بل رديه تصادفيه سخينا

(١) الصاهل والشاحج ٤٨٥

(٢) الجمل للزجاجي ٢٨٠ وتصحيح الفصيح ٢٠٢/١

(٣) انظر : شرح شواهد الشافية ١٥/٤

(٤) انظر : الصاهل والشاحج ٤٤٠ ، ٤٨٦ ، ٦٦٦

فإنها تنطق : « برديه » وكان ذلك هو السبب الذي أوقع قطرباً
النحوى المشهور ، فى الخطأ ، حين زعم أن « برده » من كلمات
الأضداد ، تأتى بمعنى : برّد وسخّن ، اعتماداً على هذا البيت ،
ولم يدر أن الراء منقلبة عن اللام فى (بل) . وقد عابه بذلك
أبو الطيب اللغوى ، فى كتابه الأضداد (٨٦/١) ، ومن أمثلة
ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم ﴾ [النجم ١٤/٨٣] ،
وهذا هو السر فى أن بعض القراء يسكت بعد اللام سكنة لطيفة ،
حتى يوجد فاصلاً بين اللام والراء بعدها ، فلا تتأثر بها .

و - تتأثر الراء فى بعض قراءات القرآن ، باللام بعدها ، فى مثل قوله
تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ فتقلب لاما ، وإن كان ابن جنى ينكر
ذلك ويقول : « اعلم أن الراء لما فيها من التكرير ، لا يجوز
إدغامها فيما يليها من الحروف ، لأن إدغامها فى غيرها يسلبها ما
فيها من الوفور بالتكرير ، فأما قراءة أئى عمرو : يغفر لكم ،
بإدغام الراء فى اللام ، فمدفوع عندنا ، وغير معروف عند
أصحابنا ، إنما هو شيء رواه القراء ، ولا قوة له فى القياس » (١) .

ز - أورد سيبويه شواهد على تأثر لام (هل) و (بل) بالشين والثاء
والناء بعدها مثل قول طريف العنبري :

تقول إذا استهلكْتُ مالاً بلذة فكيف هشيء بكفيلك لائق
يريد : هل شيء ... وقرأ أبو عمرو : هُتوب الكفار ، يريد : هل
توب الكفار ... وقد قرئ : بتؤثرون الحياة الدنيا ، يريد : بل
تؤثرون . وقال مزاحم العقيلي :

فدع ذا ولكن هُتعين متيماً على ضوء برق آخر الليل ناصب

يريد : هل تعين ^(١) .

٦ - التأثير المدبر الكلى فى حالة الانفصال : من أمثلته ما يلى :

أ - كلمة : ^{emza} (^{كلمة}) فى الحبشية ، تقابل كلمة : « مُنْذُ » العربية ، وهى فى الحبشية مركبة من : ^{em} بمعنى : « مِنْ » ، و ^{za} بمعنى اسم الموصول « ذو » الطائية ، وقد « حكى عن بنى سليم : ما رأيته مِنْذُ ست بكسر الميم » ^(٢) . وهذا كله يدل على أن أصل (مُنْذُ) العربية : (مِنْ + ذُو) فقلبت كسرة الميم ضمة ، تأثراً بضمة الذال بعدها ^(٣) . ويخطئ من يرى أن الذال فى مُنْذُ « ضمت إتباعاً لحركة الميم ، ولم يعتد بالتون حاجزاً » ^(٤) .

ب - تطورت كسرة الميم إلى فتحة فى صيغتى اسم الآلة : مِفْعَل ومِفْعَلَة ، وذلك مطرد تمام الاطراد فى لهجة الأندلس العربية فى القرن الرابع الهجرى ^(٥) ، إذ تتأثر حركة الميم بحركة العين ، وذلك من نوع التأثير المدبر الكلى فى حالة الانفصال ، مثل : مَقُود ، وَمَسَنَّ ، وَمَقْنَع للثوب الذى يغطى به الرأس ، وَمَطْرَد للرمح الصغير ، وَمَحْدَّة وَمَزْدَغَة للوسادة . وقد استمر ذلك فى القرون

(١) انظر : كتاب سيبويه ٤١٧/٢

(٢) انظر : لسان العرب (منذ) ٤٧/٥

(٣) إلى مثل هذا يذهب الفراء ، انظر : شرح ابن يعيش ٤٥/٨ والإنصاف فى المسألة السادسة والخمسين ، وشرح الملوكي ٤٢٥ وانظر كذلك : التطور النحوى لبرجشتراسر ٦٢ (٤) الأشباه والنظائر ٧/١ وسيبويه ٤٥/٢ وحكاة أبو حيان فى تذكرة النحاة ١٠

عن اللحياني فى نواتره

(٥) انظر : لحن العامة والتطور اللغوى ١٩٠ - ١٩١

التالية ، فقد روى لنا ابن هشام اللخمي (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ)
أن الأندلسيين كانوا يقولون : مَصيدة ، ومَطْرِقة ، ومَغْرِفة ، ومَرود ،
ومَشْرط ، ومنجل ، ومنبر ، ومكنسة ، ومروحة ، وملعقة ^(١) .

وهذا هو الاتجاه العام في تطور هاتين الصيغتين في اللهجات
العربية الحديثة ؛ ففيهما يسود التأثر المدير كما في الأمثلة السابقة .
أما التأثر المقبل فيهما ، فلم أعثر له على مثال ، إلا فيما رواه ابن
الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) من قول العامة في عصره :
مَكْنِسة بدلاً من مَكْنِسة ^(٢) .

ج - صيغة (فَعِيل) تتحول في نطق بني تميم باطراد ، إلى (فِعِيل) ،
وإن كان اللغويون يشترطون لذلك أن يكون الحرف الثاني من
حروف الحلق ؛ مثل : « لَيْم » و « نِهْيَق » و « بَعِير »
و « نَحِيف » و « رَغِيف » و « بَخِيل » .

قال ابن جنى : « ومن ذلك تقرب الصوت من الصوت مع
حروف الحلق ؛ نحو : شَعِير و بَعِير و رَغِيف . وسمعت الشجرى
غير مرة يقول : زَيْر الأسد ، يريد : الزَّيْر . وحكى أبو زيد
عنهم : الجَنَّة لمن خاف و عِيَدَ الله ^(٣) » .

وقال ابن سيدة : « وفي فَعِيل لغتان : فَعِيل و فِعِيل ، إذا كان
الثاني من الحروف الستة ... كسرت الفاء في لغة تميم ؛ وذلك
قولك : لَيْم و نَحِيف و رَغِيف و بَخِيل ^(٤) » .

(١) انظر : لحن العامة والتطور اللغوي ٢٣٧ - ٢٣٨

(٢) تقويم اللسان لابن الجوزي ٤٤

(٣) الخصائص ١٤٣/٢ وانظر كذلك : المحتسب ٤١/٢ والنصف ١٩/١

(٤) المخصص ٢١٣/١٤

لكن أبا جعفر النحاس لم يشترط هذا الشرط ، وإن كانت أمثله لا تخرج عما ثابته حرف حلق ، حين قال : « الرَّحِيم : هذه لغة أهل الحجاز وبنى أسد وقيس وربيعة . وبنو تميم يقولون : رَحِيم ورَغِيف ورَبِير ^(١) » .

وهذه الظاهرة ممتدة في اللهجات العامية في العصر الحاضر ، وإن خلت بعض أمثلتها من حروف الحلق ؛ مثل : كَبِير وفَطِير وكَبِير وشَرِيك . إلى جانب : يَهِيم ويَعِيد وشَخِير وغيرها .

د - ومن الأمثلة كذلك : نطق السودانين لكلمة : « مَنَبَر » : « بَنَبَر » ^(٢) .

٧ - التأثير المدبر الجزئي في حالة الاتصال : من أمثله ما يلي :

أ - في اللهجات العربية القديمة ، تتحول الصاد قبل الدال إلى زاي ، مثل : « يَزْدُق » في : « يَصْدُق » واتصال الصاد بالدال هنا ، شرط لتحقيق التأثير السابق ؛ قال ابن السكيت : « والعرب تقول : اَزْدُق بمعنى : اصدق ، ولا يقولون زَدَق » ^(٣) . ولم يعين اللغويون القبيلة التي ينتمي إليها هذا الإبدال ، وأغلب الظن أن الزاي هنا كانت مفخمة ، غير أنهم كتبوها بالزاي المرققة ، لعدم وجود رمز للزاي المفخمة في الكتابة العربية .

وقد روى لنا هذا الإبدال كذلك في المثل العربي : « لم يُحرم من فُزْد له ^(٤) » . ويقول ابن جنى عن هذا المثل : « أصله : فُصِد له ،

(١) إعراب القرآن للنحاس ١١٧/١

(٢) انظر : العربية في السودان ، للأمين الضير ١٠

(٣) انظر : القلب والإبدال لابن السكيت ٤٥

(٤) انظر : لحن العوام للزبيدي ١٩٤ وانظر شرحه هناك أيضاً .

ثم أُسكنت العين ... فصار تقديره : فُصِّدَ له ، فلما سكنت
الصاد فضَعُفَتْ به ، وجاورت الصاد وهي مهموسة ، الدال
وهي مجهورة ، قُرِبت منها بأن أُشِمَّت شيئاً من لفظ الزاى المقاربة
للدال بالجهر ^(١) .

وقد زعم أبو الطيب اللغوى أن طيئاً تقلب كل صاد ساكنة زاياً ،
ولم يقيدها بوقوعها قبل الدال ، فقال : « ويقال : هي المزدغة
والمُصدغة للمُخذة ، وطيئٌ تقلب كل صاد ساكنة زاياً . قال
الأصمعي : كان حاتم الطائي أسيراً في عنزة ، فجاءته النساء
بناقة ومُفَصِّد ، وقلن له : افصد هذه الناقة ، فأخذ المفصد فلتمَّ
في سبلتها ، أى نحرها وقال : هكذا فَرَدَى أَنَّهُ ، أى : فصدى أنا ،
ثم قال :

لا أفصد الناقة من أنفها لكننى أوجرها العالية
وقد قرئ : حتى يَصُدُّرَ الرعاء ، ويَزْدُرُ الرعاء ، ويقال : هو
كثير القَرْد لك والقَصْد لك » ^(٢) .

وكل هذه الأمثلة ، وقعت فيها الصاد قبل الدال مباشرة ، وهي
السبب في هذه المماثلة ، فلا يصح أن يقال كما في هذا النص :
« وطيئٌ تقلب كل صاد ساكنة زاياً » بل تزداد عبارة : « قبل
دال » ، ولعلها ساقطة من أصل الكتاب .

ب - تتأثر النون الساكنة بالباء التالية لها ، فتقلب إلى صوت من

(١) الخصائص ١٤٤/٢

(٢) الإبدال ، لأبي الطيب ١٢٦/٢ - ١٢٨

مخرج الباء وهو صوت الميم ، إذ هو شفوى كالباء ، وهذا هو ما سماه علماء القراءات العرب بالإقلاب ، في مثل قوله تعالى : ﴿ من بعد ما جاءهم ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ عليم بذات الصدور ﴾ وقوله : ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ . ومثل ذلك قول عامة الناس اليوم : « مَمْبَر » في : « مِنبَر » إلى جانب التأثر المدبر الكلى في حركة الميم ، كما سبق أن عرفنا .

ج - تقول العامة في عصرنا الحاضر : « يسحف » بدلا من : « يَزْحَف » ^(١) فقد تأثرت الزاى في هذا المثال ، وهى صوت مجهور ، بالحاء التالية لها ، وهى صوت مهموس ، فقلبت الزاى إلى نظيرها المهموس وهو السين .

٨ - التأثر المدبر الجزئى في حالة الانفصال : من أمثلته ما يلى :

أ - الصاد قبل الراء تقلب زايًا في بعض قراءات القرآن الكريم ، مثل : « زراط » في : « صراط » ، أو لعلها كانت تنطق مثل الظاء العامة ، إذ يقول صاحب مقدمتان في علوم القرآن (١٤٧) : « غير أن الذى يُشتم بالصاد زايًا ، يحافظ على بقاء الإطباق في الصاد » . وهذا هو ما سبق أن ذكرناه من ترجيح أن تكون الزاى مفخمة في مثل هذه الكلمات .

ب - روى ابن هشام اللخمي أن الناس كانوا في الأندلس والمغرب ، في القرن السادس الهجرى ، يقولون في : سِرْدَاب ، زِرْدَاب ^(٢) .

(١) انظر تذكرة الكاتب لأسعد داغر ٨٥

(٢) المدخل إلى تقويم اللسان ٤٣

ج - الناس في مصر وبعض البلاد العربية ، يطلقون على : السَعْتَر ، زَعْتَر ^(١) .

د - بنو أسد يقولون في : الدَّفْتَر : تَفْتَر ^(٢) .

هـ - تميل الرائ إلى تفخيم الأصوات المجاورة لها ، ومن هذا الأثر قولنا في مصر : « طُور » في : « تُور » المنقلبة عن : « ثُور » ، كما نطلق كلمة : « الضرب » على : « الدَّرب » بمعنى الطريق المسدود .

و - السين قبل الطاء تقلب صادًا في بعض قراءات القرآن ، فقد روى « عن ورش عن نافع : أم هم المصيطرون ، و : لست عليهم بمصيطر ، بإخلاص الصاد ، وروى محمد بن الجهم عن الفراء ، قال : الكتاب وخط المصحف بالصاد في : مصيطر ، والمصيطنون ، والقراءة بالسين » ^(٣) .

(١) انظر : تهذيب الألفاظ العامية للشيخ الدسوقي ٦٦

(٢) انظر : الإبدال لأبي الطيب اللغوي ١٠٩/١

(٣) انظر : مقدمتان في علوم القرآن ١٤٨

التَّأثيرُ المُتبادِلُ :

وهناك نوع آخر من المماثلة الصوتية ، يتم فيها التماثل على مراحل ، ويتراوح بين التأثير المقبل الجزئي ، والمدير الكلي في حالة الاتصال . ومن أمثلة ذلك :

(أ) تؤثر الذال من : « ذخر » في تاء الافتعال من هذا الفعل : « اذخر » ، فتقلبها دالا : « اذدخر » ، وهذا من نوع التأثير المقبل الجزئي في حال الاتصال . ثم تؤثر الدال في الذال ، فتقلبها دالا : « اذخر » ، وهذا من نوع التأثير المدير الكلي في حال الاتصال . وجاء ذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَنْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ ^(١) .
وقد فطن الزجاج إلى هذا ، فقال : « وإنما قيل : تَدْخِرُونَ ، وأصله : تذخرون ، أى تفتعلون من الذُّخْر ؛ لأن الدال حرف مجهور ...
والتاء مهموسة ، فأبدل من مخرج التاء حرف مجهور يشبه الذال في جهرها ، وهو الدال ، فصار : تذدخرون ، ثم أدغمت الذال في الدال ، وهذا أصل الإدغام ، أن تدغم الأول في الثانى ^(٢) » .

(ب) تؤثر الذال من : « ذكر » في تاء الافتعال من هذا الفعل : « اذكر » فتقلبها دالا : « اذدكر » ، وهذا من نوع التأثير المقبل الجزئي في حال اتصال . ثم تؤثر الدال في الذال ، فتقلبها دالا : « اذكر » ، وهذا من نوع التأثير المدير الكلي في حال الاتصال . وجاء ذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ ^(٣) .

(١) آل عمران ٤٩/٣

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤١٩/١ وانظر : لسان العرب (ذخر) ٣٨٩/٥

(٣) يوسف ٤٥/١٢

وقد فطن إلى هذا الزجاج كذلك ، فقال : « وَاذْكُرْ ، أصله : واذتكر ، ولكن التاء أبدل منها الدال ، وأدغمت الدال في الدال (١) » .

ومن ذلك أيضا العدد : « سِتْ » في العربية ، الأصل فيه : « سِدْس » (٢) ، بدليل العدد الترتيبي : « السادس » ، والكسر : « سُدْس » .

وقد مرت الكلمة بالتطورات التالية : تأثرت الدال المجهورة بالسين المهموسة ، فقلبت إلى النظير المهموس وهو التاء ، فصارت الكلمة : « سِتْس » ، ثم أثرت التاء في السين فقلبت تاء ، فصارت الكلمة : « سِتْ » . أى أن الكلمة مرت في تطورها بالتأثير المدبر الجزئى في حال الاتصال ، ثم بالتأثير المقبل الكلى في حال الاتصال .

واللغة الآرامية حدث فيها ما حدث في العربية تماما ؛ فالكلمة فيها (سِدْس) sedseti . وقد تحول الأصل في العربية الجنوبية إلى : sidt ، بالتأثير المقبل الجزئى في حال الاتصال .

ولم يبق الأصل القديم إلا في الحبشية ، في صيغة العدد المؤنث : (سِدْسَتِي) sedseti . أما صيغة المذكر فهي : (سِدْس) sessū التى حدثت بالمماثلة من نوع التأثير المدبر الكلى في حال الاتصال . ومثل ذلك حدث في الأكادية : šiššu وفي العبرية : (شِش) šēš .

(١) معاني القرآن وإعرابه ١١٣/٣

(٢) على العكس مما يراه برجستراسر ، من أن أصلها : « سدث » . انظر : التطور النحوى ٣٢ - ٣٣ وقد ذهب اللغويون العرب إلى مثل ما ذهبنا إليه . انظر : الفاضل للمبرد ١٩ والجمل في النحو للزجاجي ٤١٧ والخصائص لابن جني ٤٧٢/٢

تَبَادُلُ التَّأْثِيرَيْنِ الْحَرَكَاتِ وَالصَّوَامِتِ

كل الأمثلة التي عرضناها من قبل ، لم نذكر فيها إلا تأثير الصامت على الصامت ، أو تأثير الحركة على الحركة . وهناك أنواع أخرى من المماثلة الصوتية ، تؤثر فيها الحركات على الصوامت ، أو تؤثر الصوامت على الحركات . وفيما يلي عرض لبعض أمثلة هذين النوعين من المماثلة :

(أ) المماثلة بتأثير الحركة على الصامت :

١ - من أمثلة هذا النوع أثر الحركات الأمامية ، كالكسرة الخالصة ، والكسرة الممالأة ونحوهما ، على أصوات أقصى الحنك ، كالقاف ، والجيم ، والكاف ، ونحوها ؛ إذ يؤدي هذا التأثير إلى نوع من التوافق والانسجام بين هذه الصوامت الخلفية والحركات الأمامية ، بأن تقلب هذه الصوامت الخلفية إلى صوامت من مقدمة الفم . ويغلب على هذه الأصوات الجديدة أن تكون من الأصوات المزدوجة ، أى التى تجمع بين الشدة والرخاوة ، وهى التى تسمى باللاتينية : Affricata . وقد اكتشف العلماء قانونا لذلك ، سموه بقانون : « الأصوات الحنكية » . وسوف نفرد له فصلا خاصا فيما بعد ، غير أننا نشير هنا إلى أمثلة هذا النوع من المماثلة بين الصوامت والحركات .

فالقاف مثلا ، تتأثر فى نطق أهل مدينة « الرياض » القدامى ، بالكسرة التالية لها ، فتقلب صوتا مزدوجا من مقدمة الفم ، مكونا من الدال والزاي (dz) ، فى مثل : « دَزِيلَة » فى « قِيلَة » ، وكذلك : « دَزِيلِب » فى « قِيلِب » بمعنى « البتر » ^(١) .

(١) انظر : بحوث ومقالات فى اللغة ١٠

والجيم العربية القديمة ، كانت صوتاً طبقياً شديداً مجهوراً ، كما في بقية اللغات السامية : العبرية ، والآرامية ، والحبشية ، والأكدية ، وكامتدادها في النطق المعروف اليوم بالجيم القاهرية .

غير أن وقوع الكسرة بعدها ، أثر فيها في مرحلة قديمة من مراحل تطور العربية القديمة ، فتحولت هذه الجيم إلى صوت مزدوج من مقدمة الفم ، ليتوافق مع الكسرة ، وهي تبدأ بدال من الغار ، وتنتهى بشين مجهورة . وقد عمم القياس اللغوى في مرحلة تالية هذا النطق الجديد ، في كل جيم ، طرداً للباب على وتيرة واحدة (١) .

ومثل ذلك حدث للكاف ، في بعض اللهجات القديمة ، في الظاهرتين المعروفتين عند القدماء بالكشكشة والكسكسة ؛ إذ تتأثر الكاف في لغات ربيعة ومضر وبكر القديمة ، بالكسرة التي تأتى بعدها ، فتتحول إلى صوت مزدوج من مقدمة الفم ، ليتوافق مع الكسرة ؛ وهو صوت : (ثشْ) في الكشكشة عند ربيعة ومضر ، في مثل : « ثشيف حالك ؟ » ، وصوت : (ثسْ) في الكسكسة عند بكر ، في مثل : « ثسيف حالك ؟ » . وقد عمم القياس اللغوى هذا التطور في اللهجات العربية الحديثة ، مع كل كاف ولو كانت مفتوحة أو مضمومة (٢) .

٢ - ومن أمثلة هذا النوع كذلك : أثر الحركات على الأصوات المعروفة في العبرية والآرامية بأصوات : (بجد كيت) ؛ إذ تتأثر هذه الأصوات بأية حركة تتقدم عليها مباشرة ، وتقع معها في مقطع واحد ، فتتحول

(١) انظر : فصول في فقه العربية ١٤٦ - ١٤٧ والمدخل إلى علم اللغة ٥١ ؛ ٢٢١

(٢) انظر : فصول في فقه العربية ١٤٦

لذلك من صفة الشدة إلى صفة الرخاوة ، أى أن هذه الأصوات
الشديدة : (ب ج د ك پ ت) تتحول إلى مقابلاتها الرخوة ، بعد
أية حركة ؛ فتصير : (ف غ ذ خ ف ث) . مثال ذلك فى العبرية :
(כָּתַב) katab (كاثف) بمعنى : « كتب » ، ومضارعها (יִכְתֹּב) yiktoḥ
(يُخْتَف) . وفى الآرامية : (ܬܪܒܝܬܐ) tarbīṭā (تَرْبِيثًا) بمعنى :
« نَمُو » أو « تربية » ^(١) .

(ب) المماثلة بتأثير الصامت على الحركة :

المعروف فى اشتقاق المضارع من الماضى ، أن تختلف حركة عين
الفعل فى المضارع عنها فى الماضى ، تبعاً لما يسمى عند علماء اللغة بقانون :
« المغايرة » (Polarity) ؛ ولذلك يقال فى العربية مثلاً : « ضَرَبَ يَضْرِبُ »
و « نَصَرَ يَنْصُرُ » .

غير أن أصوات الحلق ، إذا وقعت فى مقطع واحد مع حركة العين ،
فإننا نرى أثر هذه الأصوات الحلقية واضحاً ، فى اللغات السامية ، فى تغيير
حركة العين إلى فتحة ، بدلاً من الضمة والكسرة . وسبب هذا التحول أن
« اللسان فى نطق الحروف الحلقية ، يجذب إلى وراء ، مع بسط وتسطيح
له . وهذا هو وضعه فى نطق الفتحة ^(٢) » ؛ ومن أمثلة ذلك فى العربية :
« فتح يفتح » و « ذبح يذبح » و « دمع يدمع » و « شدخ يشدخ »
و « سأل يسأل » و « ظهر يظهر » و « زرع يزرع » و « سعل يسعل »
ونحو ذلك .

(١) انظر : فى قواعد الساميات ١٧ ؛ ١٨٦ وقد أهمل اليهود الشرقيون تغيير نطق

(ج. د ت) فى العبرية الحديثة !

(٢) التطور النحوى ليرجشتراسر ٦٣

وقد حدث ذلك أول ما حدث في المضارع المجزوم ، وفيه تقع الحركة مع حرف الحلق في نفس المقطع . أما المضارع المرفوع والمنصوب ، فقد قيس على المجزوم ، طردا للباب على وتيرة واحدة ، كما سيأتى ذلك في باب القياس .

قال ابن السكيت : « وما كان ماضيه على فَعَلَ ، مفتوح العين ، فإن مستقبله يأتى بالضم أو بالكسر ، نحو : ضرب يضرب ، وقتل يقتل . ولا يأتى مستقبله بالفتح إلا أن تكون لام الفعل أو عين الفعل أحد الحروف الستة ، وهى حروف الحلق : الخاء ، والغين ، والعين ، والحاء ، والهاء ، والهمزة ^(١) » .

وقال ابن جنى : « فَعَلَ يَفْعَل ، مما عينه أو لامه حرف حلقى ، نحو : سأل يسأل ، وقرأ يقرأ ... وذلك أنهم ضارعوا بفتحة العين في المضارع جنس حرف الحلق ؛ لما كان موضعاً منه مخرج الألف التى منها الفتحة ^(٢) » .

ونختم عرضنا لموضوع « المماثلة » بالحديث عن موقف اللغويين العرب ، من استخدام الأصل القديم ، الذى تغير بفعل هذا القانون . وقد أدت قراءتنا للتراث العربى ، واستقراء أقوال اللغويين العرب ، إلى تصنيف هذا الأصل على ثلاثة أقسام :

١ - الأصل أجود من الصورة التى نتجت بفعل قانون المماثلة ؛ وذلك كقلب الصاد سينا ، بسبب المماثلة بينها وبين الحروف المستعلية . وقد ضرب ابن سيدة لذلك بعض الأمثلة ؛ نحو : « صبقت » و « صبقت » و « صاطع » فى : « سُبُت » و « سَبُت » و « ساطع » ^(٣) .

(١) إصلاح النطق ٢١٧

(٢) الخصائص ١٤٣/٢

(٣) المخصص ٢٧٢/١٣ - ٢٧٣

ويرى المبرد أنها تُقلب صاداً وجوباً في حال الاتصال ، أما في حال الانفصال ، فيجوز القلب وتركه أجود ؛ يقول : « هذا باب ما تقلب فيه السين صاداً ، وتركها على لفظها أجود ، وذلك لأنها الأصل ، وإنما تقلب للتقريب مما بعدها ؛ فإذا لقيها حرف من الحروف المستعلية ، قلبت معه ليكون تناولهما من وجه واحد . والحروف المستعلية : الصاد والضاد والطاء والظاء والخاء والغين والقاف ... فإن كانت السين مع حرف من هذه الحروف في كلمة جاز قلبها صاداً ، وكلما قرب منها كان أوجب . ويجوز القلب على التراخي بينهما ، وكلما تراخى فترك القلب أجود ، وذلك قولك : سطر وصطر ، وسَقَر وصقر ^(١) » .

٢ - الأصل مستعمل على ما فيه من عنت ومشقة ؛ وذلك كبإبدال النون ميماً قبل الباء ، في مثل : عَنبر ، وشَنبَاء ، ومِنبر ، التي تتحول بالمماثلة إلى : عمبر ، وشمباء ، وممبر . ويرى السيرافي أن الأصل إذا استخدم كانت فيه مشقة ، فيقول : « ولو تكلف المتكلم إخراجها من الفم ، وبعدها الباء ، لأمكن على مشقة وبِعلاج ^(٢) » .

وإن كان ابن الحاجب يرى أن المماثلة هنا لازمة ، وشرح ذلك الرضى فقال : « قوله : ومن النون لازم . ضابطه كل نون ساكنة قبل الباء ، في كلمة كعنبر ، أو كلمتين نحو : سميعٌ بصير . وذلك أنه يتعسر التصريح بالنون الساكنة قبل الباء ^(٣) » .

(١) المقتضب ٢٢٥/١

(٢) شرح كتاب سيبويه ٤٤٤/٦

(٣) شرح الشافية ٢١٦/٣

٣ - الأصل لم يتكلم به عرى البتة ، وذلك كإبدال تاء الافتعال طاء ، إذا كانت الفاء صاداً أو ضاداً أو طاءً أو ظاءً ؛ إذ يرى اللغويون العرب أن الأصل الذى فيه التاء ، لم يستعمل فى هذه الحالة مطلقاً ؛ يقول المازنى : « هذا باب ما تقلب فيه تاء افتعل عن أصلها ، ولا يتكلم بها على الأصل البتة ... وذلك أنك إذا قلت : افتعل ، وما تصرف منه ، وكانت الفاء صاداً أو ضاداً أو طاءً أو ظاءً ، فالتاء فيه مبدلة ، وذلك قولك : اضطبر ^(١) » .

ويشرح ذلك ابن جنى ، فيقول : « قال أبو الفتح : يقول : لا يقال فى اضطبر : استبر ، ولا فى اضطرب : اضرب ، ونحو ذلك ، وإن كان هذا هو الأصل ... وفى كلامهم من الأصول المرفوضة الاستعمال ما لا يحصى كثرة ^(٢) » .

كما يقول ابن جنى أيضاً : « ومما لا يراجع من الأصول : باب افتعل ، إذا كانت فائمه صاداً أو ضاداً أو طاءً أو ظاءً ، فإن تاءه تبدل طاءً ؛ نحو : اضطبر ، واضطرب ، واظرد ، واظظلم ^(٣) » .

(١) النصف ٣٢٤/٢

(٢) النصف ٣٢٤/٢

(٣) الجصاص ٢٤٩/٢

(ب) قانونُ المُخَالَفَةِ (Dissimilation)

هناك قانون صوتي آخر ، يسير في عكس اتجاه قانون المماثلة ، وهو ما يعرف عند علماء الأصوات باسم : « قانون المخالفة » ؛ فقد عرفنا أن قانون المماثلة ، يحاول التقريب بين أصوات بينها بعض المخالفات ، أما قانون المخالفة ، فإنه يعتمد إلى صوتين متماثلين تماماً في كلمة من الكلمات ، فيغير أحدهما إلى صوت آخر ، يغلب أن يكون من أصوات العلة الطويلة ، أو من الأصوات المتوسطة أو المائعة ، المعروفة في اللاتينية باسم : Liquida وهي : اللام والميم والنون والراء .

ويقول قنديرس : « ينحصر التخالف ، وهو المسلك المضاد للتشابه ، في أن يعمل المتكلم حركة نطقية مرة واحدة ، وكان من حقها أن تعمل مرتين ، فمن الكلمة اللاتينية arborem (أرْبُورِم) بمعنى : شجرة ، نشأت الكلمتان : الأسبانية arbol (أرْبُل) والبروفنسية albre (ألْبُر) ، فالذي حدث في كلتا الحالتين ، مع اختلاف الترتيب - هو أن المتكلم اقتصر على القيام بحركة واحدة فقط من الحركات ، التي يتطلبها إنتاج الراء (r) بدلا من أن يقوم بحركتين ، واستعاض عن الأخرى ، بحركة من الحركات التي تنتج اللام المائعة » (١) .

ومثال المخالفة بين السامية والعربية ، كلمة : « شمس » فهي في السامية الأولى : « شمش » كما في الأكادية والعبرية والآرامية ، والمعروف لدى علماء الساميات أن الشين في السامية الأم ، قلبت في العربية « سيناً » ، وهذا من التغيرات التاريخية التي سبق أن تحدثنا عنها من قبل ، ومقتضى

ذلك أن تصير الكلمة في العربية : « سمس » ، غير أن المخالفة بين السينين ، أدت إلى قلب الأولى شيئاً .

وكذلك كلمتا : « سنبله » و « قنفذ » حدثتا في العربية ، بطريق المخالفة الصوتية من كلمتين كانت الباء فيهما مشددة ، « فسنبلة يوافقها في العبرية : šibbōlet (שִׁבְּוֹלֶת) وقنفذ يوافق في العبرية : kippōd (כִּיפּוֹד) ^(١) .

وكذلك كلمة : « أنبا » في كلام المسيحيين ؛ بمعنى : الأب الروحي أو المرشد ، نتجت بالمخالفة الصوتية من الكلمة السريانية : (ܐܢܒܐ) abbā ^(٢) . وكذلك كلمة : (ܣܢܒܬܐ) sanbat في الحبشية ، بمعنى : يوم « السبت » جاء بالمخالفة الصوتية من الكلمة السامية القديمة (ܣܢܒܬܐ) šabbāi .

ومثال ذلك في العربية : « قيراط » و « دينار » بدلا من « قرط » و « دثار » بدليل الجمع : « قراريط » و « دنانير » ، و « أملل » و « أملى ^(٣) » (وفي القرآن الكريم : ولأملل الذي عليه الحق - البقرة ٢/٢٨٢) . ومثاله كذلك كلمة : « العنقود » ، التي يبدو أن أصلها : « العُقود » ، بتشديد القاف ؛ ففي « العنقود » نوع من التعقد ، كما ترى !

وكان الناس في القرن الثاني الهجري في العراق يقولون في : « إجاص » للكثيرى : « إنجاص » ، وفي : « أترج » : « أترنج » ، وفي : « إجانة » : « إنجانة » ؛ فقد ذكر الكسائي (المتوفى سنة ١٨٩ هـ) أن الناس كانوا في

(١) دروس في علم أصوات العربية لكاتينو ٤٦ وانظر في الآرامية كذلك (ܣܢܒܬܐ) .

الكنز = ضلع .

(٢) انظر : غرائب اللغة العربية ١٧٣ هـ

(٣) ومثله : « ديماس » و « أبا » بدلا من : أما . انظر : المختص ١/٢٨٣ - ٢٨٤

عصره يزيدون النون في هذه الكلمات فقال : « ويقال : أترج وإجانة وإجاص . هذه الأحرف بإسقاط النون » ^(١) .

كما كان أهل الأندلس في القرن الرابع الهجري يقولون : « كرناسة » في : « كراسة » ، كما كانوا يطلقون على الأسد كلمة : « عَدْبَس » بدلا من الكلمة القديمة : « عَدْبَس » وكانوا يقولون : « تقعور » بدلا من الفعل : « تقعر » ^(٢) .

كما روى أبو منصور الجواليقي (المتوفى سنة ٥٣٩ هـ) عن عوام عصره أنهم كانوا يقولون : « مِنَطَر » في : « مِمَطَر » ، كما كانوا يقولون : « خَرْمَش » في : « حَمَش » ^(٣) .

والكلمة الأخيرة يستعملها بعض العامة اليوم مع القلب المكاني ، فيقولون : « خرشم » . ومثل ذلك في كلامهم كلمة : « خلبط » ، التي حدث فيها قلب مكاني من : « خلبط » التي نتجت بطريق المخالفة الصوتية من الفعل القديم : « خلط » .

كما تقول العامة في عصرنا الحاضر : « قرنييط » في « قنييط » ، و « مهردم » في : « مهدم » ^(٤) و « فرتك » ^(٥) في « فرك » و « شرمط » في : « شَرَط » و « نعكش » في : « نكّش » و « دعبل » في : « دبل » و « طريق » في : « طبق » مع ملاحظة إبدال القاف همزة في هذا المثال .

(١) انظر : ما تلحن فيه العامة للكسائي ١١٦ وانظر كذلك : إصلاح المنطق ١٧٦

(٢) انظر : لحن العوام للزبيدي ٣٥ ؛ ١٦١ ؛ ٢٦٤

(٣) انظر : تكملة ما تلحن فيه العامة للجواليقي ١٣٤ ؛ ١٣٩

(٤) انظر : أصول الكلمات العامية لحسن توفيق العدل ٣٩

(٥) رواها صاحب القاموس (فرك) ٣/٣١٥ على أنها من الفصح ، فقال : « فرتكه :

قطعه مثل الدرّ » . وانظر : تهذيب الألفاظ العامية ١٠٩/١

وكذلك « ضرفة » الباب ، بدلا من : « دفة » وقد فحمت الدال بتأثير الراء كما سبق أن ذكرنا ذلك . كما يقولون : « كعبل » بدلا من : « كبل ^(١) » . ويقولون كذلك : « سنكر » الباب ، بدلا من : « سكر » المستعارة من الآرامية : (صَضَكْ) ^(٢) . وفي العراق يقول العوام : « دَبُوس » في « دَبُوس » .

وقد حكى ابن هشام اللخمي (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ) بعض الأمثلة ، التي يمكن أن تفسر بقانون المخالفة ، عن طريق إبدال أحد المتماثلين حرف مد ، مثل : « عايرت الموازين » في : « عيّرت » و « عوش الطائر » في « عش » و « مصافهم » في : « مصفهم » و « ضارة المرأة » في : « ضرة » و « مؤخ » في : « مخ » ^(٣) . ومثل ذلك ما حكاه ابن السكيت عن العرب أنهم يقولون : « الذم » و « الذام » للعيب ^(٤) .

ولعلنا بقانون المخالفة ، نستطيع أن نفسر ذلك الإبدال الظاهري في كلمتي : « زُحْلُوفَة » و « زُحْلُوقَة » ، في قول الأصمعي : « الزحاليق والزحاليق : آثار تزلج الصبيان من فوق طين أو رمل أو صفاً ، فأهل العالية يقولون : زحلوفة وزحاليق ، وبنو تميم ومن يليهم من هوازن ، يقولون : زحلوفة وزحاليق » ^(٥) . فالظاهر أن الكلمة الأولى : « زحلوفة » مأخوذة من الفعل : « زحلف » ، الناتج بطريق المخالفة الصوتية ، من « زَحَف » ، كما أن الكلمة الثانية : « زُحْلُوقَة » مأخوذة من الفعل : « زحلق » ، الناتج بطريق المخالفة

(١) انظر : المحكم في أصول الكلمات العامة للدكتور أحمد عيسى ٨٣ : ١٨٨

(٢) انظر : فصول في فقه العربية ٣٣١

(٣) انظر : المدخل إلى تقويم اللسان ٤٢ : ٥٤ : ٦٠ : ٦٢ : ٦٣

(٤) القلب والإبدال لابن السكيت ٢٦

(٥) الإبدال لأبي الطيب ٣٣٧/٢ وانظر : المزهر للسيوطي ٥٥٤/١ ولسان العرب

(زحلف) ٣١/١١ والقلب والإبدال لابن السكيت ٦٤

الصوتية كذلك من الفعل : « زَلَقَ » ، فانظر إلى اختلاف الأصول وتشابه الفروع الجديدة !

هذا ، وربما خطر على الذهن ، أن إحدى هاتين الكلمتين ليست إلا تصحيفا للأخرى ، وهو تصور كان من الممكن التوقف أمامه ، لولا ورود الكلمتين في أشعار قديمة ، وهما في القافية مع أبيات أخرى تقطع الطريق على أى تصور للتصحيح والتحريف ^(١) .

فقد أورد ابن منظور الكلمتين ، كل واحدة منهما في مادتها ، واستدل عليهما بالشواهد التى نجدتها فى دواوين الشعراء المنسوبة إليهم ؛ فقال فى مادة (زَحَلَف) ٣١/١١ : « وقال ابن الأعرابى : الزَّحْلُوفَةُ : مكان منحدر مملس ، لأنهم يتزحلفون عليه . وأنشد لأوس بن حجر :

يَقْلَبُ قَيْدُوداً كَانَ سَرَائِهَا صَفَا مُدْهَنٌ قَدْ زَحَلَفَتْهُ الزَّحَالِفُ ^(٢)

وقال مزاحم العقيلي :

بَشَامًا وَنَبْعًا ثُمَّ مَلَقَى سِبَالِهِ ثِمَادٌ وَأَوْشَالٌ حَمَتْهَا الزَّحَالِفُ ^(٣)

ويقال للشمس إذا مالت للمغيب : قد تزحلفت . قال العجاج :

والشمسُ قد كادت تكون دَنَفَا

أَدْفَعُهَا بِالرَّاحِ كَى تَزَحْلَفَا

كما قال فى مادة (زَحَلَق) ٣/١٢ : « وتزحلقوا على المكان : تزَلَّقُوا عليه بأستاهم . والمزحلق : الأملس . الجوهري : الزحاليق لغة فى الزحاليق ،

(١) انظر كذلك : من أسرار اللغة ٦٧ - ٦٨

(٢) انظر ديوانه ق ٢٨/٣٠ ص ٦٧

(٣) انظر ديوانه ق ١٧/١٥ ص ٣٩

الواحدة زحلوقة . قال عامر بن مالك ملاعب الأسنة :

لما رأيت ضيراً في مُلَمَلَمَةٍ كأنما حافاتها حافتنا نيق
يَمَمُّهُ الرَمَحُ شَزْراً ثم قلتُ له هذى المروءة لا لِعُبِّ الزحاليق

والزحلقة كالدحرجة . وقد ترحلق . قال رؤبة :

لما رأيت الشرَّ قد تألَّقَا

من خَرَّ في طَحْطَاخِهِ تَرْحَلَقَا ^(١)

✱

وليس من اللازم في المخالفة الصوتية أن يكون الصوتان متجاورين ،
فكلمة : « عنوان » تنطق في بعض اللهجات عندنا : « علوان » ، وكلمة :
« لعل » فيها عشر لغات مشهورة ^(٢) ، ومن هذه اللغات : « لعن » وهي أثر
من آثار قانون المخالفة .

وقد فطن قدماء اللغويين العرب لهذه الظاهرة ، وكانوا يعبرون عنها
أحيانا « بكراهية التضعيف » أو « كراهية اجتماع حرفين من جنس واحد »
أو « اجتماع الأمثال مكروه » ^(٣) أو « استثقلوا اجتماع المثليين » وغير ذلك ،
فقد عقد سيبويه لذلك بابا في كتابه بعنوان : « هذا باب ما شذ فأبدل
مكان اللام الياء ، لكراهية التضعيف ، وليس بمطرِد » ^(٤) .

ويسمى الخليل بن أحمد : الاختلاف ، فيما روى عنه الأزهري في

(١) انظر ديوانه ق ٢٦٨/٤١ ؛ ٢٧١ ص ١١٥

(٢) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ٢٧١/١

(٣) شرح الملوكي لابن يعيش ٤٥١

(٤) كتاب سيبويه ٤٠١/٢ وانظر كذلك : الزاهر ١٩٧/١ ومعاني القرآن للفراء

٢٦٧/٣ والخصائص ٩٠/٢ ؛ ٢٣١/٢

قوله ^(١) : « وأما مهمما ، فإن النحويين زعموا أن أصل مهمما : ماما ، ولكن أبدلوا من الألف الأولى هاء ، ليختلف اللفظ » . وقد اختلفت الرواية عن الخليل في هذه النقطة عند السيوطي ، الذي يقول : « وقال الخليل : أصل مهمما الشرطية : ماما ، قلبوا الأولى هاء ؛ لاستقباح التكرير ^(٢) » .

وقال أبو عكرمة الضبيي : « أنشدني أبو العالية لبعض بني أسد :

إذا برحت فننقُ مستكف وإن تُقنَى فسَلْعُدْ عذوم

تقنَى : صارت في قنان من الأرض ، وهي إكام ذات حجارة ، الواحد : قُنَّة ، وكان الأصل : تُقْنَن ، فأبدل النون الأخيرة ياء ، كراهة لاجتماع حرفين من جنس واحد ، كما قالوا : تظنَّيت ، والأصل : تظنَّنت ، وكقول العجاج :

تَقْضَى البازي إذا البازي كسر

أراد : تقضض ، ولهذا أمثال كثيرة ^(٣) .

ومن دعاء محارب بن دثار السدوسي : « أنا الصغير الذي ربَّيته ، فلك الحمد ، والغائب الذي ربَّيته ، فلك الحمد » ^(٤) ، بدلا من : رددته ! وجاء في لسان العرب : « وخبخبوا : أبردوا . وأصله : خَبَّبُوا ، بثلاث باءات ، أبدلوا من الباء الوسطى خاء ، للفرق بين فَعَّلَ وفعلل ، وإنما زادوا الخاء من سائر الحروف ، لأن في الكلمة خاء . وهذه علة جميع ما يشبهه

(١) تهذيب اللغة ٣٨٤/٥ والنص ليس في أصل « العين » المطبوع (٣٥٨/٣) فزاده

المحققان عن تهذيب اللغة

(٢) الأشباه والنظائر ١٨/١

(٣) الأمثال لأبي عكرمة ٨٤ - ٨٥

(٤) خلاصة تذهيب الكمال ٣٣٩

من الكلمات » (١) . وجاء فيه كذلك : « ومن العرب من يقلب أحد الحرفين المدغمين ياء ، فيقول في مَرّ : مِير ، وفي زَرّ : زِير ، وفي رَرّ : ريز » (٢) . وفيه أيضا : « ومن العرب من يقول : حَنَظ ، وليس ذلك بمقصود ، إنما هو غنة تلحقهم في المشدد ، بدليل أن هؤلاء إذا جمعوا قالوا : حظوظ . قال الأزهرى : وناس من أهل حمص يقولون : حَنَظ ، فإذا جمعوا رجعوا إلى الحظوظ وتلك النون عندهم غنة ، ولكنهم يجعلونها أصلية ، وإنما يحىء هذا اللفظ على ألسنتهم في المشدد ، نحو الرُرّ ، يقولون : رُرّ » (٣) .

ومن قواعد الصرفيين في العربية ، أن الواو تقلب همزة ، إذا تصدرت قبل واو متحركة مطلقا ، أو ساكنة متأصلة الواوية ، نحو : « أواصل » و « أواق » ، فإن الأصل فيها : « وواصل » وكذلك : « وواق » لأنهما جمعان لكلمتي : « واصلة » و « واقية » ، ففاء كل منهما واو ، ويجرى مثل ذلك في أنثى : « الأول » وجمعها ، فإن الأصل فيهما أن يكونا : « وولى » و « وول » ولكنهما في العربية : « أولى » و « أول » ، وليس ذلك كله إلا أثرا من آثار قانون المخالفة .

والسبب في المخالفة من الناحية الصوتية ، هو أن الصوتين المتماثلين يحتاجان إلى جهد عضلي ، في النطق بهما في كلمة واحدة ، ولتيسير هذا المجهود العضلي ، يقلب أحد الصوتين صوتاً آخر ، من تلك الأصوات التي لا تتطلب مجهوداً عضليا . كاللام والميم والنون .

ويرى « برجشتراسر » أن العلة في التخالف « نفسية محضة » ، نظيره

(١) لسان العرب (خب) ٣٣٣/١

(٢) لسان العرب (زور) ٤٢٥/٥

(٣) لسان العرب (حفظ) ٣١٩/٩

الخطأ في النطق ، فإننا نرى الناس كثيرا ما يخطئون في النطق ، ويلفظون ، بشيء غير الذي أرادوه ، وأكثر ما يكون هذا إذا تتابعت حروف شبيهة بعضها ببعض ؛ لأن النفس يوجد فيها - قبل النطق بكلمة - تصورات الحركات اللازمة على ترتيبها ، ويصعب عليها إعادة تصور بعينه ، بعد حصوله بمدة قصيرة ، ومن هنا ينشأ الخطأ ، إذا أسرع الإنسان في نطق جملة محتوية على كلمات ، تتكرر وتتتابع فيها حروف متشابهة ^(١) . وذلك مثل الخاءات في عبارة مثل : « خميس خبز خمس خبزات ، هات من خبز خميس خبزتين » !! والحاءات والحاءات في عبارة مثل : « خيط حرير على خيط خليل » . ومثل ذلك أيضا الكافات والشينات في عبارة : « كريم الكركشندى دبح كبش وعمل على كرش الكبش كشك . ياما احلى كشك كرش كبش كريم الكركشندى » !!

ومن المخالفة الصوتية المؤثرة في العربية كذلك : المخالفة بين حركتي الفتح المتتاليتين إذا كانت الأولى منهما طويلة ؛ إذ تتحول الثانية منهما في هذه الحالة إلى كسرة فالأصل في نون المثني هو الفتح ، وفتحها لغة كما يقول ابن مالك في تسهيل الفوائد (ص ١٢) . وقال في شرحه (٦٥/١) : « ومثال فتح نون المثني قول حميد بن ثور :

على أخوذَيْنِ استقلت عشيَّةً فما هي إلا لحَّةٌ وتغيَّبُ

أنشده الفراء بالفتح ، وليس موضع ضرورة » .

غير أن نون المثني ، قد كسرت في الفصحى ، تبعا لهذا القانون ، بدليل أنها لا تزال مفتوحة في نظيرتها في جمع المذكر ، وبدليل بعض الأمثلة

(١) التطور النحوي ٣٤

التي بقيت على الأصل القديم ، وهي ما نسميه نحن بالركام اللغوى ، مثل : « شتّان » فى مثل قولهم : « شتّان أخوك وأبوك » ، أى هما متفرقان ، فهو تشبيه « شتّ » ، والشت : المتفرّق (١) .

وهناك أمثلة كثيرة من الركام اللغوى بفتح نون المثنى ، فى أشعار العرب ، منها قول حميد بن ثور السابق ، وقول رجل من ضبة :

أعرف منها الأنف والعينا
ومنخران أشبها ظيانا (٢)

ومن لم يقنعه هذا المثال ، فلينظر فى نون التوكيد المشددة ، وهي مفتوحة - كما نعرف - فى : « يضربن » و « تضربن » وما إلى ذلك ، غير أنها مكسورة فى مثل : « يضربان » بسبب المخالفة المذكورة .

وهذه النون التي تسمى بنون الرفع ، فى الأفعال الخمسة ، هي مفتوحة فى : يفعلون وتفعلون وتفعلين ، ولكنها مكسورة فى : يفعلان وتفعلان ، بسبب هذا القانون نفسه .

بل إن نصب جمع المؤنث بالكسرة ، ليفسر كذلك بهذا القانون ، أى أن الأصل هو نصب هذا الجمع بالفتحة (٣) ، بدليل ما رواه الكوفيون عن العرب من قولهم : سمعت لغائهم ، وقول الرياشي : سمعت بعض العرب يقول : أخذت إرائهم (٤) . وفى أمثال العرب : استأصل الله عِرْقائهم (٥) .

(١) لسان العرب (شت) ٣٥٥/٢

(٢) النوادر فى اللغة لأبى زيد ١٥

(٣) انظر كذلك : العربية الفصحى لهنرى فليش ٤٨

(٤) منهج السالك لأبى حيان ١١ وانظر كذلك : الخصائص ٣٨٤/١ ؛ ٣٠٤/٣

وشرح الملوكى ١٩٠

(٥) مجمع الأمثال للميدانى ٤١/١ والعين للخليل ١٧٤/١ والمحيط للصاحب بن عباد

١٦١/١ ، وانظر : تهذيب اللغة ٢٢٧/١

وروى الخليل بن أحمد قولهم : رأيت بنائك ، بالفتح لحنه على اللسان ^(١) .
كل ذلك مروى عن العرب ، غير أن أثر هذا القانون ، هو الذى أدى إلى
تخالف الفتحة إلى كسرة ، فيما نعتقد .

ومن المخالفة الصوتية كذلك ، ما يسمى بالمخالفة الكمية بين المقاطع
الصوتية ومن أمثلة ذلك ما يحدث لحركة ضمير المفرد الغائب ، فى العربية
الفصحى ، فالأصل فى هذه الحركة ، هو الضمة الطويلة ، وتحدث له
المماثلة الصوتية مع الكسرات قبله ، كما عرفنا من قبل ، وتحتفظ العربية
الفصحى بالطول فى حركته ، بعد المقاطع القصيرة ^(٢) ، مثل : له = لهُ ؛
ويه = بهى .. وغير ذلك . كما تقصر -حركته فى العربية ، بعد المقاطع الطويلة ،
عن طريق المخالفة الكمية بين المقاطع ، فيقال مثلاً : « فيه » بدلاً من :
« فيهِ » ؛ و « منه » بدلاً من : « منهو » وغير ذلك ^(٣) .

ويمكن عن طريق « قانون المخالفة » تفسير ورود كلمتين فى العربية
الفصحى بمعنى واحد ، وأصواتهما متفقة فيما عدا الصوت الأول منهما ؛
مثل « أمغرت الشاة وأنغرت » ^(٤) « إذا احمر لبنها ، ومثل : « مَأر »
و « نَار » ^(٥) بمعنى : (أفسد) ، و « مذع » و « ندع » ^(٦) بمعنى (سال) .

وقد شرح الدكتور أحمد هريدى طريق المخالفة هنا بقوله : « التخالف
بالإبدال لا يكون فى الصوت الأول من الكلمة مطلقاً . وإذا ما وجدنا بعض

(١) العين للخليل بن أحمد ١٧٤/١

(٢) انظر : التطور النحوى للغة العربية ٦٧

(٣) شد على هذا قراءة ابن كثير وحفص فى قوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ الفرقان

٦٩/٢٥ إذ قرأ الاثنان : « فيهِ مُهَانًا » بصلة الهاء بياء هنا خاصة . انظر : التيسير للدانى ١٦٤

(٤) انظر : الصحاح (مغر) ٨١٩/٢ (نغر) ٨٣٣/٢

(٥) انظر : الصحاح (مَأر) ٨١١/٢ والقاموس (نَار) ١٣٧/٢

(٦) انظر : القاموس (مذع) ٨٤/٣ (ندع) ٨٧/٣

الكلمات التى اتفقت فى أصواتها ، عدا الصوت الأول ، واحتفظت بمعنى مشترك ، فإننا لابد أن نفترض أن التغير حدث فى إحدى الصيغ المشتقة ، أعنى أن صوتا كان موجودا ، فى حالة من الحالات سابقا ، فى صورة مورفيم صرفى ، وأنه بسبب هذا المورفيم الصرفى ، حدث التخالف ، حيث اجتمع صوتان مثلان ، ثم بعد ذلك تم الاشتقاق من الكلمة الجديدة ، على توهم الأصالة فى أصواتها ، ثم اطرده القياس ^(١) .

وهذه فكرة جيدة جدا ، تفسر لنا ما سبق أن قلناه ، من اتفاق كلمتين فى أصواتهما ، ما عدا الصوت الأول منهما ؛ إذ نجد فى واحدة منهما مثلا : (ميم) ، وفى الأخرى : (نونا) ، على فرض أن الكلمة التى فى أول أصولها ميم ، جاءت على وزن اسم المفعول من الثلاثى أو الرباعى ، أو اسم الفاعل من الرباعى ، فتوالى ميمان ، وحيث تحدث المخالفة ، بإبدال الميم الثانية نونا . ففى المثال الذى ذكرناه من قبل ، يقال مثلا : « أمغرت الشاة : إذا أحمر لبنها ، فهى ممغر » ، ثم تخالف الميم الثانية إلى نون ، فنتنتج فى اللغة كلمة : « منغر » ثم يشتق منها ماض جديد ، وهو : « أنغرت الشاة » . ويقال فى اللغة : شاة منغار ، مثل : ميمغار .

وليست المخالفة هى الطريق الوحيد فى اللغات ، للفرار من ثقل اجتماع الأصوات المتماثلة أو المتقاربة فى الكلمة ؛ فقد تنشئ اللغة فاصلا بين الصوتين ، يخفف من ثقل اجتماعهما ، كما هو الحال فى زيادة الألف بعد همزة الاستفهام والهمزة التالية لها ، فيما روى لنا عن بعض العرب ، فى مثل : « أأنت » التى ينطقها هؤلاء العرب : « آأنت » . وقد عزا سيبويه

(١) ظاهرة المخالفة الصوتية ودورها فى نمو المعجم العربى ص ٤٣

هذه الظاهرة إلى تميم ، قال : « ومن العرب ناس يدخلون بين ألف الاستفهام وبين الهمزة ألفا إذا التقتا ؛ وذلك أنهم كرهوا التقاء همرين ففصلوا ، كما قالوا : اخشينان ، ففصلوا بالألف ؛ كراهية التقاء هذه الحروف المضاعفة . قال ذو الرمة :

فياظبية الوُعساءِ بين جُلالِجٍ وبين التَّقا آنت أم أمُّ سالمٍ

هؤلاء أهل التحقيق . وأما أهل الحجاز فمنهم من يقول : آئك ، وآنت ، وهى التى يختار أبو عمرو ؛ وذلك أنهم يخفون الهمزة ، كما يحقق بنو تميم فى اجتماع الهمزتين ، فكرهوا التقاء الهمزة والذى هو بين بين ، فأدخلوا الألف ، كما أدخلته بنو تميم فى التحقيق . ومنهم من يقول إن بنى تميم الذين يدخلون بين الهمزة وألف الاستفهام ألفا . وأما الذين لا يخفون الهمزة ، فيحققونها جميعا ، ولا يدخلون بينهما ألفا ^(١) .

وقد شرح ابن يعيش هذا الكلام ولخصه فقال : « ثم بعد دخول ألف الفصل : منهم من يحقق الهمزتين ، وهم بنو تميم ، ومنهم من يخفف الثانية ، وهم أهل الحجاز . وهو اختيار أبى عمرو ؛ فمن حقق فإنما المراد الفرار من التقاء الهمزتين ، وقد حصل ذلك بالألف . ومن خفف فلأن الثانية بين بين ، وهى فى نية الهمزة ؛ فكرهوا ألا يدخلوا الألف بينهما ، لأن همزة بين بين همزة فى النية ^(٢) . »

وعلى هذا النحو من الفصل بين الهمزتين ، قرأ « هشام بن عمار ^(٣) »

(١) الكتاب ١٦٨/٢

(٢) شرح المفصل لابن يعيش ١٢٠/٩

(٣) هو هشام بن عمار بن نصير بن ميسرة أبو الوليد السلمى الدمشقى . توفى

سنة ٢٤٥ هـ . انظر ترجمته فى غاية النهاية ٣٥٤/٢ - ٣٥٦

وبعض القراء ، في معظم المواضع التي يلتقى فيها همزتان متحركتان ، على هذا النحو في القرآن الكريم ؛ مثل : أُنذِرْتُمْ ، أَنْتُمْ ، أَسْلَمْتُمْ ، أَقَرَرْتُمْ ، أَنْتِ ، أَرِيَابُ ، أَسْجُدْ ، أَشْكُرْ ، أَتَّخِذْ ، أَشْفَقْتُمْ ، أَلِدْ ، أَمَنْتُمْ ، أُنْكِمْ ، أَيْنَ لَنَا ، إِلَهٌ ، أَيْنَا ، أَيْنَكَ ، أَيْفَكَ ، إِذَا ، أُنْبِئْكُمْ ، أُنْزِلْ ، أُلْقِ (١) .

وهذا النوع من الفاصل بين المتماثلين مجتلب ، وهو في الحقيقة عبارة عن تطويل حركة الهمزة الأولى ، لتحصل المخالفة الكمية في حركات المقاطع المتجاورة .

وهناك نوع آخر من الفاصل غير مجتلب ، وإنما هو قديم في بناء الكلمة ، ولكن التطور اللغوي لأبنية العربية ، تسبب في اختفائه من هذه الأبنية ، ثم نراه يعود للظهور مرة أخرى ليفصل بين المتماثلين .

ومن ذلك المثال : « اخشيناَن » الذي ذكره سيبويه في النص السابق ؛ إذ يذكر النحاة العرب أنه عند تأكيد الفعل المسند إلى نون النسوة ، تزيد اللغة العربية فيه ألف مدٍّ بين نون النسوة ونون التوكيد ، وهذه الألف يسميها الصرفيون : « الألف الفارقة » . ولم أعثر لهذه الظاهرة على شاهد إلا قول أئى المهدي الأعرابي ، يخاطب الجنيات ، وكان به عارض : « اخسأناَن عني » (٢) .

(١) انظر : إعراب القرآن للنحاس ١٨٥/١ والبحر المحيط ٤٧/١ والنشر ٤٨٢/١ والبيان في غريب إعراب القرآن ٥١/١ والسبعة لابن مجاهد ٣٥٧ والإيضاح لأئى على الفارسي ٣٢٣ والمقتصد للجرجاني ١١٣٣/٢ والمقتضب للمبرد ١٦٣/١ ؛ ٢٣/٣ وشرح شواهد الشافعية ٣٤٧/٤ وشرح ابن يعيش للمفصل ١٢٠/٩

(٢) انظر : طبقات النحويين واللغويين ٣٨ ومجالس العلماء للزجاجي ٤ وإنباه الرواة

والحقيقة أن هذه الألف ، أو لنقل الفتحة الطويلة بعد نون النسوة ،
قديمة في أصل اللغات السامية ، وقد بقيت في العبرية في مثل : (נִקְטִין) tikṭōnā
« تقتلن » ، كما تعود للظهور في السريانية ، قبل الاتصال بضمائر
النصب ، مثل : (ܬܟܬܝܢܐ) tektlīnān « تقتلننى » ، وفي العربية عند
الاتصال بنون التوكيد ؛ « فتفصل بين نون التوكيد ونون الضمير بالألف ،
ليزول اجتماع الأمثال ، ويخف بعض ما فيه من الثقل وفطر الكلفة على
اللسان ^(١) » .

ومن أمثلة عودة الفاصل بين المتماثلين : ظهور (أن) وجوبا بعد لام
التعليل ، إذا دخلت على (لا) ؛ مثل : « لئلا تحدث كارثة » ، ولا يقال :
« لئلا تحدث كارثة » ، حتى لا تتوالى الأمثال . ومثله عودة الواو أو الياء
للظهور ، في صيغتي : فَعُولَةٌ وفَعِيلَةٌ ، عند النسب إليهما ، إذا تماثلت العين
واللام فيهما ؛ فيقال مثلا : « ضرورى » و « جليل » ، ولا يقال : ضَرَرِيّ
ولا جَلَلِيّ ، حتى لا تتوالى الأمثال .

وقد عبر السيوطى عن هذه الحالة من حالات الفصل بين المتماثلين
بقوله : « وجوب إظهار (أن) بعد لام كى ، إذا دخلت على (لا) نحو :
لئلا يعلم ؛ حذرا من توالى مثلين ، لو قيل : لئلا يعلم ، ووجوب إبقاء الياء
والواو فى النسب إلى نحو : شديدة ضرورة ؛ فيقال : شديدى وضرورى ؛
إذ لو حذف ، كما هو قاعدة : فعيلة وفعولة ، وقيل : شَدِيدِيّ وضرَرِيّ ،
لاجتمع مثالان ^(٢) » .

وهكذا رأينا طريقتين من طرق التخلص من توالى الأمثال فى أبنية

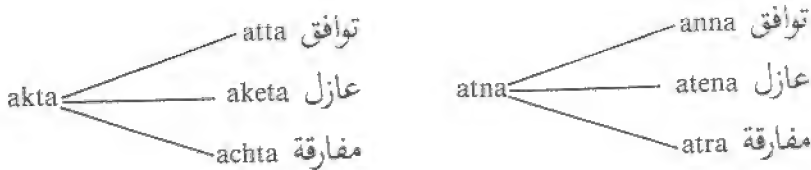
(١) المقتضب لعبد القاهر الجرجاني ١١٣٣/٢

(٢) الأشباه والنظائر ٢٠/١

اللغة ^(١) ، وهما طريق المخالفة بإبدال أحد الصوتين المتماثلين صوتاً آخر ، وطريق إقامة فاصل بين الصوتين ليخفف من ثقل اجتماعهما .

ويقول قنديرس : « هناك مسلك ثالث ، وذلك بأن لا يتجه الصوتان المتماسان إلى التوافق بين عناصرهما ، بزيادة المشابهة التي بينهما ، تلك المشابهة التي تصل أحيانا إلى التماثل التام ، ولا أن يتحصن كل منهما ضد الآخر ، بوضع نوع من العازل ، يكون عقبة في سبيل التأثير المتبادل بينهما ، بل على العكس من ذلك ، بأن يستغلا ما بينهما من فروق ، فيعمقاها إلى حد ألا يبقى بينهما شيء مشترك ، ثم يزيلا كل نقطة للتشابه ، وتلك هي عملية المفارقة » ^(٢) .

ويقصد قنديرس بالتوافق ، ما سبق أن سميناه : « المماثلة » ، كما يقصد بالمفارقة ما سميناه : « المخالفة » . أما « العازل » الذي يتحدث عنه ، فهو الذي سبق أن مثلنا له ببعض الأمثلة ، وقد مثل (قنديرس) لهذه الاتجاهات التطورية الثلاثة ، بمعاملة بعض اللغات للمجموعتين الصوتيتين : akta و atna على النحو التالي :



ونميل العربية إلى التخلص من توالى الأمثال في أبنيتها ، عن طريق آخر ، إلى جانب طريق المخالفة الصوتية ، ووضع العازل بين الأصوات ، وذلك هو طريق الحذف ومن أمثلة ذلك فيها : صيغ « تفعل » و « تفاعل »

(١) انظر في طرق التخلص من توالى الأمثال : الأشباه والنظائر للسيوطي ١٨/١

(٢) اللغة لقنديرس ٩١

و « تفعلّل » مع تاء المضارعة ، مثل « تتقدّم » و « تتقاتل » و « تتبختر » ،
فالكثير في العربية الاكتفاء بتاء واحدة ، وفي القرآن أمثلة كثيرة لذلك ،
ففيه مثلاً : ﴿ تذكّرون ﴾ ١٧ مرة بالحذف ، في مقابل : ﴿ تتذكّرون ﴾
٣ مرات بلا حذف ، كما يقابلنا فيه مثلاً : ﴿ تكاد تميّز من الغيظ ﴾ بدلاً
من : « تتميز » ، و ﴿ فأنت عنه تلهي ﴾ بدلاً من : « تنلهي » ، و ﴿ ناراً
تلظى ﴾ بدلاً من : « تلظى » ، وغير ذلك .

ومن أمثلة ذلك أيضاً : نون الأفعال الخمسة مع نون الوقاية ، قبل ياء
المتكلم ، أو مع ضمير المتكلمين المنصوب ، وكذلك الفعل المسند إلى نون
النسوة ، قبل هاتين الحالتين كقول الأعشى :

أبالموت الذي لا بدّ أني ملاق لا أباك تخوّفيني ^(١)

أى « تخوّفينى » . وكقول عمرو بن معديكرب :

تراه كالتغام يُعلّ مسكاً يسوء الفاليات إذا فلّيني ^(٢)

أى « فلّيني » . وكقول جميل :

أيا ريح الشمال أما تريني أهيم وأننى بادی النحول ^(٣)

أى « ترينى » .

وليست ضرورة الشعر هي المتسببة في هذا الحذف ، كما قد يتوهم ،
إذ ورد في النثر كذلك ، فقد ورد في سيرة ابن هشام : « أفلا تعطونى »

(١) أمالي ابن الشجرى ٣٦٢/١ والكمال للمبرد ١٤٢/٢ والمنصف لابن جنى

٣٣٧/٢

(٢) كتاب سيبويه ١٥٤/٢ والمنصف لابن جنى ٣٣٧/٢ ومعاني القرآن للزجاج

١٩٧/١

(٣) الأغاني ١٠٩/٨

وفيها كذلك : « ما الذى تهتونا به » ^(١) . وفى الأغاني : « فأخبراه أنها لا يعرفانى » ^(٢) . وفى عيون الأخبار : « لِمَ تزعجونى من جواركم » ^(٣) . وفى تفسير الطبرى : « كنا نعطيهم فى الجاهلية ستين وسقاً ، ونقتل منهم ولا يقتلوننا » ^(٤) .

ومن أمثلة الحذف لكراهة توالى الأمثال كذلك : إنَّ وأنَّ ولكنَّ وكأنَّ ، مع نون الوقاية قبل ياء المتكلم ، أو ضمير المتكلمين المنصوب . والحذف مع هذه الأحرف هو الشائع فى القرآن الكريم ؛ ففيه مثلاً : « إني » ١٢٤ مرة ، فى مقابل : « إني » ٦ مرات ، كما ورد فيه : « وإنا » ٣٣ مرة ، فى مقابل : « وإنا » مرة واحدة ، وغير ذلك .

ومن الحذف لكراهة توالى الأمثال كذلك قولهم : ظنَّت ، وظلَّت ، فى لغة بنى سليم ^(٥) . ومنه فى المثل : « أساء سمعا فأساء جابة » ^(٦) بدلا من أساء إجابة : 'a' « 'a' .

ولعل المسئول عن منع كلمة : « أشياء » من الصرف ، وقوعها فى القرآن الكريم فى سياق تتوالى فيه الأمثال ، لو صرفت ، فى قوله تعالى : ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤم ﴾ [سورة المائدة ١٠١/٥] ؛ إذ لو صرفت

(١) سيرة ابن هشام ٥١ : ٤٥٨

(٢) الأغاني للإصفهاني ١٢٦/٥

(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٩٣/١

(٤) تفسير الطبرى ٥١٠/٨

(٥) انظر : لسان العرب (ظنن) ١٤٢/١٧

(٦) إصلاح المنطق ٢٨٢ وانظر : شرح ما يقع فيه التصحيح ١٧٤ /تصحيح

التصحيح ٢٠٥ وفصيح ثعلب ٨٢ ومجمع الأمثال للميداني ١٠/٢ ودرة الغواص ٤٢

لقليل : « عن أشياء إن » ، ولا يخفى ما فيه من تكرار المقطع : (إن)^(١) .
وليست العربية بدعا في سلوك طريق الحذف ، للتخلص من توالى
الأمثال ؛ ففي الآرامية مثلا : (أَوْ كُ) بمعنى : « ليث » أصلها الاشتقاقى :
'aryāyā . وفي الألمانية مثلا كلمة : der Beamte بمعنى : « الموظف » ، هذه
الكلمة أصلها الاشتقاقى : der Beamtete وغير ذلك من الكلمات^(٢) .

٢ - قانون السهولة والتيسير

تميل اللغة في تطورها ، نحو السهولة والتيسير ، فتحاول التخلص من
الأصوات العسيرة ، وتستبدل بها أصواتا أخرى ، لا تتطلب مجهودا عضليا
كبيرا ، كما أنها تحاول أن تتفادى تلك التفريعات المعقدة ، والأنظمة المختلفة
للظاهرة الواحدة .

وإلى هذا يذهب كثير من علماء اللغة ، من أمثال « هويتنى »
Whitney الذى يرى أن كل ما نكتشفه من تطور فى اللغة ، ليس إلا أمثلة ،
لنزعة اللغات إلى توفير المجهود ، الذى يبذل فى النطق ، وأن هناك استعدادا
للاستغناء عن أجزاء الكلمات ، التى لا يضر الاستغناء عنها بدلالاتها^(٣) .

(١) انظر لأثر منع كلمة أشياء من الصرف على كلمات من نفس الوزن ؛ مثل : أنباء
وأكفاء وأصداء وأرزاء وأنداء وأعداء ، وكذلك مثل : أقوال وأهوال وأصحاب
وأخبار وأشرار ، فى إذاعة طنجة والرباط : مجلة المنهل المغربية (العدد ٢٨ ديسمبر ١٩٨٣)
ص ٤٢ - ٤٣

(٢) انظر فى تفصيل ذلك : مقالتنا كراهة توالى الأمثال ، فى مجلة المجمع العلمى
العراقى ١٩٦٩/١٨ . وبحوث ومقالات فى اللغة ٢٧ - ٥٦

(٣) انظر : Whitney, Life and Growth of Language, P. 48 وانظر كذلك اللغة

« وليس معنى هذا أن قانون السهولة والتيسير ، ينطبق على كل الحالات ، وإنما يمكن تطبيقه على كثير من التطورات الصوتية في اللغة ، فإذا وجد الباحث أن التطور الصوتي كان عكسياً ، أى من السهل إلى الصعب - كما وجد فعلاً في بعض الحالات - فعليه أن يبحث عن أسباب أخرى خاصة تبرر هذا التطور ، وهو لاشك سيجدها في ظروف خاصة باللغة ، التي قد يحدث فيها هذا النوع من التطور ، فليس ينقض هذا القانون أن نجد أحياناً أصواتاً سهلة ، تطورت إلى أصعب منها ، في بعض الحالات » (١) .

ومما ينطبق عليه هذا القانون : ظاهرة « الهمز » في اللغة العربية ، ومحاولة بعض القبائل العربية القديمة التخلص منها ، وعلى الأخص قبائل الحجاز ، كما تخلصت منها معظم اللهجات العربية الحديثة . وصوت الهمز عسير النطق ؛ لأنه يتم بانحباس الهواء خلف الأوتار الصوتية ، ثم انفراج هذه الأوتار فجأة ، وهذه عملية تحتاج إلى جهد عضلي كبير .

وسقوط الهمز في غير أول الكلمة ، هو الشائع في اللهجات العربية الحديثة ، وكان هو المميز لهجة قريش في الجاهلية ، غير أن هذا التسهيل ، امتد إلى الهمزة في أول الكلمة كذلك ، في كثير من الكلمات في العاميات الحديثة ؛ مثل : « باط » في : « آباط » ، و « دان » في : « آذان » ، و « سنان » في : « أسنان » ، و « سبوع » في : « أسبوع » ، و « براهيم » و « سماعين » في : إبراهيم وإسماعيل . كما يقال مثلاً : « إيه اللي صابك ؟ » ، و « فلان راح في غيبوبة وفاق منها » بدلاً من : « أصابك » و « أفاق » .

وقد روى لنا اللغويون العرب أمثلة لبعض ذلك في القديم ، يقول

(١) الأصوات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس ١٦٩ وانظر الشبه التي أثارها الدكتور

تمام حسان على نظرية السهولة والتيسير ، في كتابه : اللغة بين المعيارية والوصفية ٤٥ - ٤٧

أبو بكر بن الأنباري (المتوفى سنة ٣٢٨ هـ) : « العوام تخطيء ، فتقول في جمع السن : سنان » ^(١) ، كما يقول كذلك : « والعامة تخطيء في الإبهام ، فتقول : البهام » ^(٢) .

وقد روى لنا الجواليقي (المتوفى سنة ٥٣٩ هـ) أن الناس في عصره ، كانوا يسقطون همزة : « أبو » ؛ فقال : « وهو أبو رياح ، لهذا الذي يلعب به الصبيان ، وتدبره الريح ، ولا تقل : بُرياح ، وكذلك يقولون للقرد : بُوزنة ، وإنما هو : أبو زنة ، وهي كنيته » ^(٣) . ولا تزال هذه الظاهرة شائعة في تونس والجزائر مثلاً ، في قولهم : « بومدين » و « بوتفليقة » و « جميلة بو حريد » ، وكان لنا زميل تونسي بجامعة ميونخ اسمه « عثمان بوغانمي » ، كما تشيع هذه الظاهرة في بعض الأسماء في الجزيرة العربية ، مثل : « باحسين » و « باكلّا » و « بابطين » .

وقد يؤدي سقوط الهمز من آخر الأفعال ، إلى التباسها بالأفعال المعتلة الآخر فتعامل معاملتها عند إسنادها إلى الضمائر ، فبعد أن ضاع الهمز من الأفعال : ملأ الإناء ، وسأ السمن ، وأخطأ في قراءته ، وأبطأ في فعله ، وخبأ نقوده ، مثلاً ، أصبح يقال عند إسنادها إلى الضمائر : ملئت ، وسلئت ، وأخطيت ، وأبطيت ، وخبيت ، تماماً كما يقال : رميت وسعيت ، وبنيت ، وغير ذلك .

وقد روى ابن الأنباري شيئاً من هذا في العربية القديمة ، فقال : « ويقال : أردأت الرجل وأرداته وأرديته ، فمن قال : أرداته ، لين الهمزة ،

(١) المذكر والمؤنث لابن الأنباري ٢٨٨

(٢) المذكر والمؤنث لابن الأنباري ٣٠٣

(٣) التكملة فيما يلحن فيه العامة للجواليقي ١٣١

ومن قال : أرديته ، انتقل عن الهمزة ، شبه أرديت بأرضيت ، ومثل هذا قول العرب : قرأت بتحقيق الهمز ، وقرات بتلين الهمزة ، وقرت بترك الهمز والانتقال عنه إلى التشبيه بقضيت ورميت ، وكذلك يقال : اقرأ رقتي بالتحقيق ، واقرا رقتي بالتلين ، واقر رقتي بالترك ، وهو أقل الثلاثة ^(١) .

كما يؤدي سقوط الهمز أحياناً ، إلى نوع من الاشتقاق الجديد ، فإن سقوط الهمز من الفعل : « يؤاسي » مضارع : « آسى » و « يؤدى » مضارع : « أدى » ، وتحولهما إلى : « يواسى » و « يودى » مثلاً ، هو المسئول عن اشتقاق الماضي الجديد ^(٢) : « واسى » و « ودى » ، وغير ذلك مما هو شائع في اللهجات الحديثة ، وكان في لهجة طيء القديمة ^(٣) .

وانكماش « الأصوات المركبة » المسماة باللاتينية : Diphthong ظاهرة من ظواهر السهولة والتيسير في اللغة ، فتحول الصوت المركب : (aw) إلى ضمة طويلة ممالاة (ō) في مثل لكلمة : « يوم » و « نوم » و « صوم » بدلاً من : « يوم » و « نوم » و « صوم » . وكذلك تحول الصوت المركب : (ay) إلى كسرة طويلة ممالاة (ē) في مثل نطقنا لكلمة : « بيت » و « ليل »

(١) الأضداد لابن الأنباري ٢٠٨ وانظر كذلك : الخصائص ١٥٣/٣ ويجعل ابن مكى الصقل ذلك من لحن العامة ، في مثل : أبطيت على ، واستبطيتك ، بدلا من : أبطأت واستبطأتك . انظر : تثقيف اللسان ٨٨ وانظر كذلك : تصحيح التصحيف ٧٥ وإصلاح المنطق ١٤٨ ومثل ذلك جعل الزبيدي : استبريت الأمة ، بدلا من : استبرأت ، من لحن العامة . انظر : لحن العوام ٢٥٦ وتصحيح التصحيف ١٠٤ ؛ ١٨٩

(٢) في لسان العرب (أخا) ٢٣/١٨ : « ووجه ذلك من جهة القياس ، هو حمل الماضي على المستقبل ؛ إذ كانوا يقولون : يواخي ، بقلب الهمزة واوا على التخفيف » . وانظر : اللسان (أق) ١٨/١٨

(٣) انظر : تهذيب اللغة ٦٢٣/٧

و « عَيْن » بدلا من : « بَيْت » و « لَيْل » و « عَيْن » - كل ذلك سببه إثثار اللغة الانتقال من العسير إلى اليسير من الأصوات .

وقد حدث هذا التطور في الأصوات المركبة في عصور العربية الأولى ، على ألسنة العامة ، وهذا هو ما يُفهم من كلام ابن السكيت (المتوفى سنة ٢٤٤ هـ) في كتابه : إصلاح المنطق : « وتقول : الكَوْسَج ، ولا تقل : الكُوسَج ، وهو الجَوْرَب ولا تقل : الجَوْرَب (١) » . وقد تابع المؤلفون في لحن العامة من بعده التنبيه على هذا التطور ، مثل ما في كلمتي : « الغَيْرَة » و « قَيْح » (٢) عند الزبيدي (المتوفى سنة ٣٧٩ هـ) وكلمة « سَوَسَن » (٣) عند الحريري (المتوفى سنة ٥١٦ هـ) و « لَوْح » و « جَيْب » (٤) عند ابن هشام اللخمي (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ) و « فَوْق » و « جَوْف » (٥) عند ابن الإمام (المتوفى بعد سنة ٨٢٧ هـ) و « العَيْش » (٦) عند ابن كمال باشا (المتوفى سنة ٩٤٠ هـ) .

بل لقد حدث ذلك في عصور الفصحاة أيضا ، ففي إصلاح المنطق عن الأصمعي : « يقال : هو الضَّوء والضَّوء (٧) » ، وفيه كذلك : « وَحَوْبَة الرجل أمّه ، وقال بعضهم : حَوْبَة » (٨) .

(١) إصلاح المنطق ١٦٢ وانظر تقويم اللسان ٩٠ والتكملة للجواليقي ٥٠ وتصحيح

التصحيف ٢١٧

(٢) لحن العوام للزبيدي ١٤٤ ؛ ١٨٥

(٣) درة القواص للحريري ٧٨ وانظر : تصحيح التصحيف ٣٢٣

(٤) المدخل إلى تقويم اللسان ٦٢ ؛ ٦٦

(٥) الجمانة في إزالة الرطانة ٥

(٦) التنبيه على غلط الجاهل والنبه ٢٠

(٧) إصلاح المنطق ٩١

(٨) إصلاح المنطق ١٣

(٩) إصلاح المنطق ١١٤

وقد تتطور هذه الحركة الممالاة الناتجة من الصوت المركب ، فتصير فتحة طويلة . فمثلا كلمة : « فَايْن » ^(١) تطورت بعد سقوط الهمز منها إلى : « فَيْن » بدلا من : « فَيْن » وفي بعض اللهجات : « وَيْن » المتطورة عن « وَيْن » بعد سقوط الهمز من « وَأَيْنَ » ^(٢) ، غير أننا نسمع بعض أهالي صعيد مصر ، ينطقون الكلمة الأولى بالفتح الخالص ، فيقولون : « فَاِن » بدلا من : « فَيْن » الشائعة فيما عدا ذلك في مصر ، أى أن التطور في هذا الصوت المركب ، كان على النحو التالى : ā < ē < ay .

ومثله في كتاب منامات الوهراني (ص ٣٨) : « وَأَلْكَ يَا أَحْمَق » ، بدلا من « وَئَلْكَ » ! وفيه أيضا (ص ١٠١) : « أَخَافُ وَأَلْكَ أَنْ أُقْتَلَ بِاللَّوَالِكِ » !

ونلاحظ مثل هذا التطور في العربية القديمة ، في قول بعض العرب : « إِنَّ الرِّجْزَ لَعَابٌ ، أَيْ لَعِيبٌ ، وَالرِّجْزُ ارْتِعَادٌ مُؤَخَّرُ الْبَعِيرِ » ^(٣) . وقولهم : « مَا كُنْتُ أَزْعِمُ فِي خَصْمِي مِنَ الْعَابِ ، يَرِيدُ : الْعَيْبِ ... وَيُقَالُ : بَوَّعَ وَبَاعَ ، وَصَوَّعَ وَصَاعَ » ^(٤) ، كما جاء في قولهم : « تَبَّتْ إِلَيْكَ فَتَقْبَلُ تَابَتِي ، وَصَمْتُ إِلَيْكَ فَتَقْبَلُ صَامَتِي ، أَيْ تَوَبَّتِي وَصَوْمَتِي ، ذَكَرَهُ الْوَاحِدِيُّ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنْ هَذَا لَسَاحِرَانِ ﴾ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : هِيَ لُغَةٌ بِلَحْرَثَ ، وَهِيَ قَبِيلَةٌ مِنَ الْيَمَنِ » ^(٥) ، وَهِيَ تِلْكَ

(١) في مثل قوله تعالى ﴿ فَايْنِ تَذْهَبُونَ ﴾ التكوثر ٨١/١٦

(٢) مثل ذلك أيضا قولنا : « مَيْنِ » menén المتطورة عن : « مَيْنِ » menayn بعد سقوط الهمز من : « مِنْ أَيْنَ » ؟

(٣) النوادر لأبي زيد ٣

(٤) النوادر لأبي زيد ٥

(٥) شرح معاني الآثار ١٢٠

القبيلة التي روى لنا عنها ، أنها كانت تلزم المثني الألف في جميع أحواله ،
فقد قال أبو زيد الأنصاري في تفسير قول الراجز :

طارَت علاهِن فُشِلَ علاها :

« وعلاها ، أراد : عليها . ولغة بلحَرث بن كعب قلب الياء الساكنة ،
إذا انفتح ما قبلها ألفاً ، يقولون : أخذت الدرهمان ، واشتريت ثوبان ،
والسلام علام ، وهذه الأبيات على لغتهم » ^(١) .

وفي تسهيل الفوائد لابن مالك (ص ١٢) : « ولزوم الألف لغة
حارثية » ، وقال في شرحه (٦٦/١) : « ولغة بنى الحارث بن كعب إلزام
المثني وما جرى مجراه ، الألف في كل حال . وبهذه اللغة ، قرأ نافع وابن
عامر والكوفيون إلا حفصاً ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ ، ووافق
في ذلك الحارثيين بنو المهجيم ، وبنو العنبر ، ومنه قال الشاعر :

تزوَّد منا بين أذناه ضربة دعثه إلى هاى الترابِ عقيم

وقال آخر :

وأطرقَ إطرَاقَ الشجاع ولو رأى مساعا لناباه الشجاعُ لصمما

وأنشد أبو زيد :

طاروا علاهِن فُشِلَ علاها

واشدُّ بمثنى حقب حقواها

ناجية وناجيا أباهَا »

كما يروى عن أهل الحجاز أنهم كانوا يقولون في : « يَوَجَل » :

(١) النوادر لأبي زيد ٥٨ وانظر الصحاح لابن فارس ٤٩ وشواهد التوضيح ٩٧ -

« ياجُلْ » ^(١) ، كما روى لنا في اللغة : « ياءَسُ » و « يابَسُ » في : « ييأس »
و « ييبس » ^(٢) ، ومثل ذلك : « القال » بدلا من : « القول » في عبارة :
« القيل والقال » ^(٣) . وكل هذه الأمثلة نتيجة لانكماش الصوت المركب ،
وتحول الحركة الممالة الناتجة عن هذا الانكماش ، إلى فتحة خالصة فيما
نعتقد .

وقد لخص « هانز كفلر » H. Kofler حالات انكماش الصوت
المركب عند قبيلة « بلحارث بن كعب » كما في المصادر العربية ؛ فذكر أن
بلحارث بن كعب (من تميم) يقبلون الواو والياء الساكتين بعد فتحة ، ألفا ،
مثل : « علاها » في « عليها » ، و « ياءَس » في « ييأس » ، و « ياترن »
في « يوترن » و « ياتعد » في « يوتعد » ، و « ياتسع » في « يوتسع » ،
و « يالغ » في « يولغ » ، و « إلأك » في « إليك » .

ثم يقول إن هذه الظاهرة تفسر ورود صيغة (فُعال) للتصغير ،
بجانب (فُعِيل) ، كما تفسر إلزام المثني الألف ، وهذا يعزى كذلك لقبيلة
بلحارث بن كعب .

كما يروى عن ابن جنى أن من يقول : « ياترن » ، و « ياءَس » ،
يقول كذلك : « ضربت أخواك » . ويذكر أن هذا التطور موجود في
اللهجات الحديثة ، مثل : « بات » في « بيت » ، و « شاخ » في « شيخ » ،
و « يام » في « يوم » ، في لهجة جبل النصيرات ، وبعض نواحي بيروت ^(٤) .

(١) المقتضب ٩٠/١ والمنصف ٢٠٢/١

(٢) المقتضب ٩٢/١ والمنصف ٢٠٣/١

(٣) انظر لسان العرب (قول) ٩١/١٤

(٤) انظر : H.Kofler, Reste altarabischer Dialekte, S. 127 .

ويروى ابن جنى عن أبى زيد أنه قال : « سألت خليلاً عن الذين قالوا : مررت بأخواك ، وضربت أخواك ، فقال : هؤلاء قولهم على قياس الذين قالوا فى يئأس : يأس ، أبدلوا الياء لانفتاح ما قبلها . قال (يعنى الخليل) : ومثله قول العرب من أهل الحجاز : يائزن ، وهم ياتعدون ، فروا من : يوتزن ، ويوتعدون ^(١) » .

ونلاحظ فى هذه الظاهرة أنها عزيت فى نص ابن جنى إلى أهل الحجاز ، كما عزاها أبو عمرو الشيبانى إلى قيس ، فى قوله : « أهل الحجاز يقولون : وجع يوجع . وينو تيم : ييجع . وقيس : ياجع ، غير مهموز ^(٢) » . ولعل هذه الظاهرة لم تقتصر على قبيلة : بلحارث بن كعب ، أو لعل السبب فى تعدد النسبة إنما يرجع إلى اضطراب الرواية عند علماء اللغة .

وكذلك اندثار الأصوات الأسنانية فى بعض اللهجات العربية الحديثة ، يعد مظهراً آخر من مظاهر السهولة والتيسير فى اللغة . والأصوات الأسنانية فى العربية هى الذال والثاء والظاء ، وهى التى تتطلب إخراج طرف اللسان ، ووضعها بين الأسنان عند النطق بها ، ولاشك أن ذلك جهد عضلى ، تخلصت منه لغة الكلام ، بنقل المخرج إلى ما وراء الأسنان ، أما الذال فقد حل محلها الدال فى مثل : « ذهب » بدلاً من : « ذهب » ، أو الزاى فى مثل : « زكر » بدلاً من : « ذكر » ، و « زل » بدلاً من « ذل » . وأما الثاء فقد حل محلها التاء فى مثل كلمة : « ثوب » بدلاً من : « ثوب » ، أو السين فى مثل : « سابت » بدلاً من : « ثابت » . وأما الظاء فقد حل محلها

(١) الخصائص ١٤/٢

(٢) الجيم لأبى عمرو ٣٠٥/٣

الضاد في مثل : « ضِلَّ » بدلا من : « ظَلَّ » ، أو الزاي المفخمة في مثل : « زَهَرَ » بدلا من : « ظَهَرَ » ، وغير ذلك مما هو شائع في العامية المصرية .

وهكذا نرى أن مخرج هذه الأصوات قد رجع إلى الخلف ، مع احتفاظها بصفة الرخاوة تارة ، أو تحولها إلى صفة الشدة تارة أخرى . ويرى الدكتور إبراهيم أنيس ، أن الدال والتاء والظاء ، أصبحت في لغة الكلام أصواتا شديدة ، هي الدال والتاء والضاد ، وهذا ما جعله يذهب في تعليقه لضياع هذه الأصوات الثلاثة من الكلام ، إلى أن الأصوات الشديدة ، أسهل من الأصوات الرخوة في النطق ! « لأنه قد يكون أسهل على المرء ، وهو يجري بأقصى سرعته أن يصطدم بحائط أمامه ، من أن يحاول الوقوف قبل الحائط بمسافة قصيرة ، وكذلك اللسان قد يسهل عليه الاصطدام بالحنك ، والالتقاء به التقاء محكما ، ينحبس معه النفس ، وهو ما يكون مع الأصوات الشديدة ، من أن تقف حركته عند مسافة قصيرة من الحنك ، ليكون بينهما مجرى يتسرب منه الهواء ، كما يحدث في الأصوات الرخوة » (١) .

وقد روى لنا عن العرب القدماء : بدايات لهذا النوع من التطور ؛ فقد ذكر أبو الطيب اللغوي أنهم قالوا : « الحسالة » في : « الحثالة » و « القنفذ » في : « القنفذ » و « البزور » في : « البذور » (٢) وغير ذلك .

وقد استمر هذا التطور في اللهجات العامية العربية ، في أصقاعها المختلفة ؛ فقد روى لنا ابن مكي الصقلي (المتوفى سنة ٥٠١ هـ) قولهم : « التار » في « الثار » و « جذر الشجرة » في « جذر الشجرة » و « جبد » الحبل ، في : « جبد » ، و « جدام » في : « جدام » (٣) ، كما روى

(١) الأصوات اللغوية ١٧١

(٢) الإبدال لأبي الطيب ١٧٤/١ ؛ ٣٥٧/١ ؛ ٦/٢

(٣) تثقيف اللسان ٥ ؛ ١٠ ؛ ٦٦ ؛ ٦٩

ابن هشام اللخمي (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ) قولهم : « جدام » في « جذام »
و « دخيرة » في « ذخيرة » ^(١) . وكذلك روى لنا الشيخ يوسف المغربي
(المتوفى سنة ١٠١٩ هـ) قولهم : « فلان نذل » بدلا من « نذل » و « ثوم »
بدلا من « ثوم » و « حنضل » بدلا من « حنظل » ^(٢) ، ومثل ذلك ما رواه
ابن أبي السرور البكري (المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ) من قولهم : « بدر الحب »
بدلا من : « بدر » و « بردعة » بدلا من « بردعة » ^(٣) وغير ذلك .

ومما يدل على خضوع التطور في الأصوات الأسنانية ، لقانون
السهولة واليسير ما نراه من ميل كثير من اللغات ، إلى التخلص من هذه
الأصوات ، وتحويلها إلى أصوات خلف الأسنان .

وأما اللغات السامية المختلفة ، لم يحتفظ منها بهذه الأصوات ،
سوى العربية الشمالية والجنوبية (الحميرية) ، وتطورت في سائر اللغات
السامية ، إلى أصوات خلف الأسنان ، فقد تحولت الثاء إلى سين في
الحبشية ، وشين في العبرية والآرامية ، وتاء في الآرامية ، كما تحولت الذال
إلى زاي في الحبشية والعبرية والآرامية ، ودال في الآرامية . وكذلك تحولت
الظاء إلى صاد في الحبشية والعبرية والآرامية ، وطاء في الآرامية ^(٤) .

ونظرية السهولة واليسير ، واختصار الجهد العضلي ، هي التي
تفترض أصالة هذه الأصوات الثلاثة ، في السامية الأم ؛ لأن تعليل تطورها
إلى غيرها ، أسهل من تعليل تطورها من غيرها .

(١) المدخل إلى تقويم اللسان ٣٦

(٢) دفع الإصر عن كلام أهل مصر ٧١ ؛ ٩٢ ؛ ٩٦

(٣) القول المقتضب ٤٩ ؛ ٩٢

(٤) انظر أمثلة ذلك في كتابنا : اللغة العبرية ١٢٢ وما بعدها .

وهذا القانون ، كغيره من قوانين التطور اللغوى ، صالح للعمل فى أية لغة من اللغات ، وليس معنى هذا أن كل لغة ، لابد أن تتعرض لجميع آثاره ؛ فالحتمية بمعنى أنه لابد من وقوع كل لغة تحت سيطرة هذا القانون ، والشمول بمعنى عدم إفلات أية لغة من تأثيره والسير على مقتضاه - أمران لم يقل بهما واحد من أنصار التطور اللغوى فى العصر الحديث .

وفى ضوء ذلك كله لا يصح أن يقال فى نقد نظرية السهولة والتيسير هنا : « من ذا الذى يستطيع أن يدعى أن الدال أو الزاى ، أكثر سهولة فى نطقها من الذال ، ثم يتخذ ذلك مبررا لظهور الذال الفصيحة ، زايا أو دالا فى اللهجة المصرية الحديثة ؟ ... وليس وضع طرف اللسان بين الأسنان بالأمر المجهد ، ولا وضعه خلفها بالأمر المريح . ولو كان هذا حقيقيا ، لا نقرض صوت الذال من جميع لغات البشر ، استجابة لدعوى من يقول ، بجنوح الإنسان إلى التخلص من الأصوات ، التى يتطلب النطق بها جهدا أو عسرا » (١) .

إن هذا القول المتعجل ، ليفترض فى هذه القوانين الحتمية والشمول ، وهذا ما لم يقل به أحد ، فإن كل قانون صالح للعمل أساسا ، غير أن هناك ظروفًا معقدة متشابكة ، فى الحياة اللغوية اليومية تعوق سير هذه القوانين ، مما يجعلها فى كثير من الأحيان محدودة بأزمة خاصة ، أو أماكن معينة .

ومن مظاهر قانون السهولة والتيسير كذلك ، القضاء على التفرعات الكثيرة ، والأنواع المختلفة للظاهرة الواحدة فى داخل اللغة . وقد حدث ذلك فى اللهجات العربية الحديثة بالنسبة لعلامات التانيث فى العربية (٢) ، فنحن

(١) اللغة والتطور ، للدكتور أيوب ٣٢

(٢) انظر : التذكير والتانيث فى اللغة ٥

نعرف أن العربية الفصحى ، تملك ثلاث علامات هي : التاء ، والألف المقصورة ، والألف المدودة ، كما نلاحظ أن العلامتين الثانية والثالثة ، قد ضاعتا في اللهجات العربية الحديثة ، وحلت محلهما العلامة الأولى ، وهي التاء ، فنحن نقول في : حمراء ، وبيضاء ، وصحراء ، وعمياء ، وميناء ، وعرجاء : حمره ، وبيضه ، وصحره ، وعميه ، ومينه ، وعرجه ، كما نقول في : حبلى ، وسلمى ، وخبّازى ، وعدوى ، وفتوى : حبله ، وسلمه ، وخبّيزه ، وعدوه ، وفتوه .

ويبدو أن هذا الميل قديم في العربية الفصحى ، فهذا هو الطرماح بن حكيم يقول :

كأنى إذا باشرت سَلَمَةَ خالياً على رَمَلَةٍ مَيْثَاءَ لِلْمُتَبَطِّحِ (١)

ويقول شارح ديوانه : « قوله : سلمة ، أراد : سلمى ، فالهاء والياء عنده بمنزلة واحدة » .

والسر في زوال هاتين العلامتين ، وحلول العلامة الأولى ، وهي التاء ، محلها ، هو ميل اللغة إلى أن تسير في طريق السهولة والتيسير ، فبدلاً من أن يكون في اللغة الواحدة ثلاث علامات للتأنيث ، تصبح فيها علامة واحدة ، لكل أنواع المؤنث .

ونحن نلاحظ هذا الميل إلى السهولة والتيسير في هذه الظاهرة ، في لغة الطفل الذى نجده يميل إلى تأنيث المؤنث بالتاء وحدها ؛ لأنها هي العلامة الكثيرة الشيوع في لغة الكبار من حوله ، فنراه يقول مثلاً : « قلم أحمر وكراصة أحمر » ، وهو بهذا يعمل عن غير قصد على اطراد القاعدة ، وكل لغة من اللغات ، تحاول في تطورها أن تسلك هذا الطريق ، وأن تجعل

(١) ديوانه (تحقيق كرنكو) في ٥/١ ص ٦٩

قواعدها بسيطة مطردة ، وذلك بالقضاء على التفرعات الكثيرة . والظواهر الشاذة فيها ، وبذلك يصبح صحيحا في الاستعمال ، ما كان يعدّ خطأ ، من قبل أن يشيع استعماله .

وهذا السلوك قديم في العامية العربية ؛ فقد روى الحريري (المتوفى سنة ٥١٦ هـ) أن الناس في عصره كانوا يلحنون فيقولون : « الأوّلة » بدلا من « الأولى » ^(١) ، وقد عثرت على نصوص ، يظهر فيهما هذا اللون من التطور في كلمة : « الأولى » ؛ ففي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي : « وقد رجعنا عن الرواية الأوّلة » ^(٢) ، وفي الواضح المبين في ذكر من استشهد من المحبين للحافظ مغلطاي : « ثم جعلت الصورة الأوّلة في صدر المجلس » ^(٣) ، وفي الجامع لأخلاق الراوي : « وقد اختلف في المستحق منهما لأن يضرب عليه : الأوّلة أم الثانية ؟ » ^(٤) . وقد رواها ابن فارس لغة للعرب ؛ فقال : « الأول والمؤنثة الأولى . وقد قالت العرب للمؤنثة : أوّلة ، وجمعوها : أوّلات . أبو زيد : ناقة أوّلة وجمل أول ، إذا تقدما الإبل » ^(٥) . كما وضعها الزمخشري في أساس البلاغة ، على أنها من الفصيح ، فقال : « وتقول : جمل أوّل ، وناقة أوّلة ، إذا تقدما الإبل » ^(٦) .

والقلب المكاني - وهو عبارة عن تقديم بعض أصوات الكلمة على

(١) درة الغواص للحريري ٧٧

(٢) تاريخ بغداد ١٨/٥

(٣) الواضح المبين ١٩٧

(٤) الجامع لأخلاق الراوي ٢٧٦/١

(٥) مقاييس اللغة ١٥٨/١

(٦) أساس البلاغة ٢٥/١

بعض ، لصعوبة تتابعها الأصلي على الذوق اللغوى - هو ظاهرة يمكن تحليلها بنظرية السهولة والتيسير كذلك . ويرى قنندريس أن « الانتقال المكاني ، يصدر عن نفس الأصل الذى صدر عنه التشابه ، إذ إن مرد الأمر فى كليهما إلى الخطأ ، ونقص الالتفات ، ولكن النتيجة مختلفة كل الاختلاف ، فبدلاً من تكرار الحركة النطقية مرتين ، يقتصر على تغيير مكان حركتين ، وأخيراً يبدو الانتقال المكاني ، كما لو أن جزأين فى كلمة واحدة ، قد تبادلا أحد العناصر ، فبدلاً من *festa* ، يقال فى البرتغالية *fresta* فرستا » ^(١) .

ولهذه الظاهرة أمثلة لا تحصى كثرة فى العربية الفصحى ، فقد خصص السيوطى فى كتابه : المزهى فى اللغة (٤٧٦/١ - ٤٨١) النوع الثالث والثلاثين ، لمعرفة القلب ، وذكر فيه حوالى مائة كلمة من هذا النوع ، مثل : جَذَبَ وجَبَذَ ، وسحاب مكفهر ومكرهف ، واضمحل وامضحل ، ولزج ولجز وفطس وطفس ، والأوباش والأوشاب وغير ذلك ، كما ذكر شيئاً مما يخص بعض القبائل العربية من هذه المقلوبات ، كقول تميم مثلاً : « رعملى » بدلاً من : « لعمرى » ^(٢) . كما تقول تميم كذلك : « صاqqة وصواqqع » فى : « صاqqة وصواqqع » ^(٣) ، و « معيق » فى « عميق » ^(٤) ، و « عله » فى : « هلع » ^(٥) وغير ذلك .

بل إننا إذا قارنا العربية ، باللغات السامية الأخرى ، عثرنا على أمثلة حصل فيها هذا القلب المكاني فى العربية ، على حين احتفظت اللغات

(١) اللغة لقنندريس ٩٤

(٢) المزهى للسيوطى ٢٧٧/٢

(٣) الكامل للمبرد ٢٧٩/٢ ؛ ٣٢٧/٣ ولسان العرب (صقع) ٦٨/١٠

(٤) تهذيب اللغة ٢٩٠/١

(٥) الأفعال للسرقسطى ١٧٢/١

السامية الأخرى بالأصل ، فمثلا كلمة : « ركة » هي في العبرية : bēreh
(בֵּרֶחַ) وفي الآرامية : burkā (بَرَكَا) وفي الحبشية berk (ቡርካ)
وفي الأكادية : burku ؛ فأصل الكلمة على هذا : « بُرْكة » ثم قلبت إلى :
« ركة » ^(١) بدليل بقاء الأصل في الفعل : « بَرَك » كذلك . ويقول في
ذلك أنستاس الكرملی : « وقالوا : الركة وكان الحق أن يقال : البركة ، لأنهم
اشتقوا منها : بَرَك ، ولم يقولون : رَكَب » ^(٢) .

وكذلك كلمة : « مع » في العربية ، فهي مقلوبة ، وأصلها
بتقديم العين على الميم ؛ لأنها في العبرية ^(٣) : im (יִמ) وفي الآرامية :
am (אִמ) .

أما كلمة : « ثغر » في العربية ، بمعنى : « فتحة » أو « ثقب » ،
فإنها تقابل في اللغة العبرية : ā'ār (אֵאָר) ، وكان المفروض أن يكون
مقابلها في الآرامية ta'rā ؛ لأن الملاحظ في أصوات اللغات السامية ، أن
الثاء العربية ، تقابل شيناً في العبرية وتاء في الآرامية ، كما أن الغين في العربية ،
تقابل العين في اللغتين العبرية والآرامية . ولكن الآرامية حدث فيها قلب
مكانى في هذه الكلمة ، فصارت : tar'ā (תַּרְעָא) واستعيرت تلك
الكلمة المقلوبة ، من الآرامية إلى العربية ، وهي كلمة : « ثُرعة » ، فهي شق
أو فتحة في الأرض - كما نعرف .

وقد روى لنا المؤلفون في لحن العامة ، بعض كلمات القلب المكاني ؛
مثل : « حطب زجل » في : « جزل » ^(٤) و « لَطَسَ الكتاب » أى محاه ،

(١) انظر : التطور النحوى لبرجشتراسر ٣٦

(٢) نشوء اللغة ونموها واكتسابها ١٠٦

(٣) انظر : التطور النحوى لبرجشتراسر ٣٦

(٤) التكملة فما تلحن فيه العامة للجواليقي ١٣٣ وذيل الفصحى ١٤

بدلاً من : « طلس » ^(١) ، و « أعرنى سمعك » فى : « أرعنى » ^(٢) ،
و « رنجس » فى « نرجس » ، و « نورك » فى : « رونق » ^(٣) ، و « ذأب » فى :
« أدب » ، و « دناية » فى : « ديانة » ، و « توفىض » فى : « تفويض » ^(٤) ،
و « إحجاف » فى : « إجحاف » ، و « مأىوس » فى : « ميعوس » ^(٥) .
ومن أمثلة القلب المكافى فى اللهجات العامية المعاصرة ، قولنا :
« معلأة » فى « ملعقة » مع تطورات أخرى فيها ، و « اتلوى » فى : « التوى » ،
و « أنارب » فى : « أرانب » ، و « جنزيل » فى : « زنجيل » ، و « فحر »
فى « حفر » ، و « جواز » فى : « زواج » ، و « جوز » فى : « زوج » ،
و « مرسح » فى « مسرح » ، و « أهبل » فى : « أهله » ، و « فعص » فى :
« فصع » ، و « فلان بعل » فى : « عبّل » بمعنى : ضخم الجنة ،
و « ساف » فى : « صفق » مع تطورات أخرى ، و « لخبط » فى :
« خلبط » الناتجة بحسب قانون المخالفة من : « خلط » ، و « بخلق »
المتطورة عن : « مخلق » فى : « حخلق » ، و « خفس به الأرض » فى :
« خسف » ، و « ورى » فى : « روى » المتطورة عند العراقيين من « رأى » ،
و « عماويد » فى : « عواميد » . وسمعت شخصية كبيرة تتحدث عن :
« القماويس » ، وهو يقصد : « القواميس » . ومثل ذلك أيضاً : « الرعل »
فى : « العلز » و « جراز » فى نطق بعض جهات مصر ، بدلاً من :

(١) التكملة فيما تلحن فيه العامة للجواليقي ١٤١

(٢) تقويم اللسان لابن الجوزى ٧٣ وتصحيح التصحيح ١١٥ وشرح الفصح

للهروى ١٠٠

(٣) الجمانة فى إزالة الرطانة لابن الإمام ٢٧

(٤) التنبيه على غلط الجاهل والنبه لابن كمال باشا ٣٣ : ١٣ : ٢١

(٥) نفائس عرائس الكلام لحسرو زاده ١٧

« زجاج » ^(١) . وكذلك في : « بَطْرمان » : « بَرَطْمان » : من الفارسية « مرتبان » ^(٢) ، وَجَنْزِير « من الفارسية : « زَنْجِير » وهو السلسلة من المعدن ^(٣) ، وكذلك : « تصَنَّت » من : « تنصَّت » ^(٤) ، وعلاقتها بالإنصاف ظاهرة .

وكل الأطفال الصغار يقولون : « جمزة » في : « جمزة » . وقد سمعت طفلا يقول : « فشارة » في : « فراشة » ، وطفلة تطلق على « المسمار » كلمة : « ممسار » ، وبائع فوانيس كان يتحدث في برنامج : « مجلة التلفزيون » بتاريخ ١٩٨٣/٥/٣١ م ، فيقول : « فناويس » ، وتلميذى رجب عثمان ، من أهل (دراو) من أعمال أسوان ، يقول : « كِشْتِينة » في : « كوتشينة » وهو ورق اللعب ، وعبد التواب زيدان ، أحد عمال كلية الآداب : « سُوُسَة » في : « سوستة » .

ومن أمثلة ذلك في البلاد العربية أيضا : « كبزرة » في : « كزبرة » و « رعبون » في : « عربون » في نطق السوريين ، و « عنجة » في : « نعجة » ، و « داير » في : « رايد » بمعنى : « مريد » في نطق السودانيين . و « نول » في : « لون » و « سَدَّاج » في : « سجادة » و « لَعُوف » في : « الغفوة » في نطق أهل المغرب . و « زميج » في : « مزيج » في نطق بعض عوام العراق .

(١) في لهجة القاهرة : « إراز » ، على توهم أن الجيم في : « جزاز » منقلبة عن قاف ، كما حدث مثل ذلك تماما في « أمر العيش » بمعنى : سخن الخبز على النار ، بدلا من : « جَمَر » . وانظر الفصل الخاص بتعاقب التطور ، فيما يلي .

(٢) الوسيط ٥٠/١

(٣) الوسيط ١٤٠/١

(٤) القلب المكانى في هذا المثال قديم ، فقد عثرت عليه في طبقات الشافعية للسبكي

(المتوفى سنة ٧٧١ هـ) في قوله (٣٣١/١) : « فسمعه يغنى فوقف يتصنت » .

ومن الملاحظ أن بعض الكلمات المقلوبة ، بعد أن تشيع على الألسنة ، تأخذ مجراها الطبيعي في اللغة ، باستعمال باقى المشتقات منها . ولأن اللغويين العرب لم يدركوا ذلك ، حكموا بأصالة بعض المقلوبات ، فها هو أبو جعفر النحاس يقول : « القلب الصحيح عند البصريين ، مثل شاكى السلاح وشائك ، وجرف هار وهائر ، وأما ما يسميه الكوفيون القلب ، نحو : جذب وجذب ، فليس هذا بقلب عند البصريين ، وإنما هما لغتان » ، كما يقول السخاوى : « إذا قلبوا لم يجعلوا للفرع مصدراً ، لئلا يلتبس بالأصل ، بل يقتصر على مصدر الأصل ، ليكون شاهداً للأصالة ، نحو : يعس وأيس مقلوب منه ، ولا مصدر ، فإذا وجد المصدران ، حكم النحاة بأن كل واحد من الفعلين أصل ، وليس بمقلوب عن الآخر ، نحو جذب وجذب ، وأهل اللغة يقولون : إن ذلك كله مقلوب ^(١) » .

ويقول الحريرى : « قال شيخنا أبو القاسم الفضل بن محمد النحوى رحمه الله : فأما قولهم : جذب وجذب ، فليست هاتان اللفظتان عند المحققين من النحويين ، من قبيل المقلوب ، كما ذكر أهل اللغة ، بل هما لغتان ، وكل واحدة منهما أصل فى نفسها ولهذا اشتق لكل منهما مصدر من لفظه ، فقليل فى مصدر جبَدَ : جَبَدَ ، كما قيل فى مصدر جَذَبَ : جَذَبَ » ^(٢) .

(١) انظر : المزهر للسيوطى ٤٨١/١ وانظر كذلك : الخصائص ٦٩/٢ - ٧٠

(٢) درة القواص فى أوهام الخواص ١١٦

٣ - أثر النظام المقطعي

المقطع الصوتي هو : كمية من الأصوات ، تحتوى على حركة واحدة ، ويمكن الابتداء بها والوقوف عليها ، من وجهة نظر اللغة موضوع الدراسة ، ففي اللغة العربية مثلاً ، لا يجوز الابتداء بحركة ؛ ولذلك يبدأ كل مقطع فيها بصوت من الأصوات الصامتة .

ويعرفه كانتينو ؛ فيقول : « إن الفترة الفاصلة بين عمليتين ، من عمليات غلق جهاز التصويت ، سواء أكان الغلق كاملاً أم جزئياً - هي التى تمثل المقطع » ^(١) .

غير أن فندريس يرى أن « تعريف المقطع أمر عسير » ، فلنأخذ أبسط الحالات ، وهى الحالة التى تحتوى على سلسلة من الصوامت والحركات ، مرتبة ترتيباً تبادلياً ، مثل المجموعة الفرنسية : L'Académie des Beaux-arts منطوقة هكذا : Lekadémidébozar « لا كاديمى دييوزار » . يمكننا من التحديد الذى حددناه فيما سبق ، للصوامت والحركات ، أن نستخلص قاعدة ، تنظم هذا التقسيم إلى مقاطع ، فالحركات تقتضى فتح الفم ، وهذا الفتح مهما اختلفت سعته ، فهو دائماً أكبر من ذلك الذى يصحب الصوامت ، بل إن بعض الصوامت ، وهى الانفجارية ، لا يصحبها فتح قط ، والأخرى التى يصحبها فتح فى التجويف الحلقى ، تتميز بضوضاء احتكاكية ، مما يفترض ضيق فتح الفم نسبياً . تُقدم إذاً مجموعة الأصوات التى افترضناها سلسلة متتابعة من الفتح والتضييق ، الذى يذهب أحياناً إلى حد الإغلاق . فحالات الفتح تقابل الحركات ، وحالات الإغلاق تقابل الصوامت . وهذه

(١) دروس فى علم أصوات العربية ١٩١

الحقيقة تتجلى بشكل مقنع في الصورة التي ترسمها الأسطوانة المسجلة ، فإذا تتبعنا حركة الريشة ، أمكننا قراءة التقسيم إلى مقاطع ؛ فالحركات ترسم منحنيات ، تختلف فيما بينها في درجة الانحناء ، ويدل مكان النزول منها ، على أوقات الإغلاق التي تكون الصوامت .

« أما موضع الدقة ، فينحصر في تحديد النقطة ، التي تبدأ وتنتهي عندها المقاطع . يرى الأستاذ : روديه M. Roudet أن التقطيع يظهر في ثلاثة وجوه ، تبعاً لوجهة النظر التي يُرى منها ؛ فيقول : (يوجد عند الانتقال من مقطع إلى مقطع ، تغير مفاجئ ، يصيب كلا من الجهاز التنفسي ، والحركة النطقية ، والإدراك السمعي معاً) . هذا التغير الثلاثي ، يسمح في بعض الأحوال ، بتعيين حدود المقاطع ، ويكون التقسيم تحكيمياً في أحوال كثيرة أخرى ؛ لذلك يكون من العبث أن نسعى إلى تحديده ، كما لو أردنا أن نحدد النقطة التي يوجد عندها قاع واد ، يقع بين جبلين » (١) .

أنواع المقاطع العربية خمسة : الأول مقطع قصير مفتوح ، وهو ما تكون من صوت صامت وحركة قصيرة ، مثل : (ك) . والثاني مقطع طويل مفتوح ، وهو ما تكون من صوت صامت وحركة طويلة ، مثل : (في) . والثالث مقطع طويل مغلق حركته قصيرة ، وهو ما تكون من صوتين صامتين بينهما حركة قصيرة ، مثل : « (من) » . والرابع مقطع طويل مغلق حركته طويلة ، مثل : (باب) في الوقف . والخامس مقطع زائد في الطول ، وهو ما بدأ بصوت صامت وتلاه حركة قصيرة ، ثم صوتان صامتان متواليان ، مثل : (بنت) في الوقف .

ومن النظام المقطعي في العربية : الابتعاد عن توالي أربعة مقاطع من

النوع الأول ، وهذا هو السر في تغيير نظام المقاطع ، في الفعل الماضي الثلاثي المتصل بضمير الرفع المتحرك ، إلى مقطعين من النوع الأول ، بينهما مقطع من النوع الثالث ، مثل : « ضَرَبْتُ » ، بدلاً من توالى أربعة مقاطع من النوع الأول في : « ضَرَبْتُ » .

والمقطع الرابع لا يجوز في اللغة العربية الفصحى ، إلا في آخر الكلمة في حالة الوقف عليها ، أو في وسطها ، بشرط أن يكون المقطع التالى له ، مبتدئاً بصامت يماثل الصامت الذى ختم به المقطع السابق . وهذه الحالة الأخيرة ، هى ما عبر عنها اللغويون العرب القدامى « بالتقاء الساكنين على حدّهما » ، وهو أن يكون الأول حرف لين ، والثانى مدغماً في مثله (١) نحو « الضالّين » و « شابّة » و « مدهامتان » .

فإذا نشأ هذا المقطع اشتقاقياً ، في غير هاتين الحالتين ، حولته اللغة إلى مقطع من النوع الثالث ، مثل : « يقوم » ، التى تصير عند الجزم : « لم يَقم » ، وكان الأصل فيها : « لم يقوم » ، غير أن المقطع : « قُوم » هو من هذا النوع الرابع ، الذى تفر منه العربية ، وقد عمم ذلك في حالتى الوصل والوقف هنا ، طرداً للباب على وتيرة واحدة ، فيقال : « لم يَقم محمد » كما يقال : « محمد لم يَقم » ، حين الوقف كذلك .

وهذا المقطع الرابع لا يجوز في الشعر أصلاً ، إلا في الوقف ، أى أنه لا يجوز فيه مثال : « الضالّين » و « شابّة » و « مدهامتان » . وإذا كان الشعر العربى لا يقبل مثل هذا النوع من المقاطع ، فإن الشاعر إذا أراد استخدام كلمة تحتوى على هذا المقطع أقحم همزة في الكلمة ، أو بعبارة أخرى : قسم المقطع إلى مقطعين ، مثل قول كثير :

(١) انظر : شرح ابن يعيش للمفصل ١٢٠/٩

وأنت ابن ليلي خير قومك مشهداً إذا ما احمازت بالعبيط العوامل^(١)
وقوله كذلك :

وللأرض أما سودها فتجللت بياضاً وأما يبضها فادهامت^(٢)
وقول شاعر من بني أسد :

حشّ الولائد بالوقود جنوبها حتى اسوأت من الصلّى صفحاتها^(٣)

ومن هنا يبدو أن كل صيغة على وزن : « افعأل » قد جاءت في العربية ، عن هذا الطريق ، حتى ولو لم يوجد إلى جانبها صيغة « افعأل » في الاستعمال ، وذلك مثل : « اشماز » و « احزأل » و « اطمأن » وغير ذلك^(٤) .

وهناك طريقة أخرى ، للتخلص من هذا النوع من المقاطع في الشعر ، وذلك بترك التضعيف ؛ مثل قول عمران بن حطان :

قد كنت جارك حولا ما تروّعني فيه روائع من إنس ومن جان^(٥)

(١) انظر : ديوانه ق ١٠/٤٦ ص ٢٩٤ ولسان العرب (جنن) ٢٤٩/١٦ وعبث الوليد ٦٩ وديوان أبي محجن النقفى ١٠٦ ويروى البيت كذلك : « إذا ما العوالى بالعبيط احمازت » في الخصائص ١٢٦/٣ ؛ ١٤٨/٣ وألف باء للبلوى ١٢٣/٢

(٢) انظر : ديوانه ٤/٥٤ ص ٣٢٣ وشرح شواهد الشافعية ١٧٠/٤ والفائق للزمخشري ٤٦٢/١ والممتع لابن عصفور ٣٢٢/١ وسر صناعة الإعراب ٨٤/١ ويروى : « فاسوأت » في الخصائص ١٢٧/٣ ؛ ١٤٨/٣

(٣) البيت في عبث الوليد للمعري ٦٩

(٤) انظر تفصيل القول في هذه الظاهرة في كتاب : فصول في فقه العربية ١٩٣ -

(٥) انظر : الكامل للمبرد ٧٠/٣ ولسان العرب (جنن) ٢٤٩/١٦

وقد تكره بعض اللهجات نوعاً معيناً من المقاطع ، فتبدل به مقطعاً من نوع آخر ؛ فمثلاً يفهم من الأمثلة الكثيرة ، التي ذكرها ابن كمال باشا ، أن الحركة القصيرة في المقطع المفتوح ، قبل مقطع مغلق ، كانت غير مستحبة عند العوام في عصره ؛ ولذلك نجد أن هذا المقطع المفتوح ، يغلق بتشديد الحرف التالى له ، مثل : « البُصَّاق » في : « البُصَّاق » ، و « أدويّة » في : « أدوية » ، « قضاة » في « قضاة » ، و « الكراهية » في : « الكراهية » ^(١) .

وقد حدثت هذه الظاهرة من قبل في الآرامية ، في المقطع المفتوح ذى الحركة القصيرة ، إن أريد لهذه الحركة أن تبقى ، في مثل leššānā (لَشَّشَان) « لسان » ، ومثل : yammīnā (يَمَّيْنَان) « يمين » ^(٢) .

بل لقد شاع عند العوام في عصرنا الحاضر ، الميل إلى إغلاق المقاطع المفتوحة قصيرة كانت أم طويلة ، مثل قولهم : « حافة النهر » في : « حافة » ، و « نُحْرَاج » للدمل الكبير ، في : « نُحْرَاج » ، و « دُحَّان » في : « دُحَّان » ، و « لَيْثَة » في : « لَيْثَة » ^(٣) وغير ذلك .

ومن أمثلة ذلك أيضاً قولنا : « بَلُوعة » في : « بالُوعة » ، و « تُمُوز » في : « تاموز » ، وهى كلمة آرامية : (لُطْمُوز) تعنى : شهر « يولية » من شهور السنة .

(١) انظر : التنبيه على غلط الجاهل والتنبيه ٧ ؛ ١٣ ؛ ١٤ ؛ ١٥ ؛ ٢١ ؛ ٢٢

(٢) انظر : مقالتنا « أبنية الفعل في اللغات السامية » ٦٢

(٣) انظر كذلك : عثرات اللسان لعبد القادر المغربي ٨٧ ؛ ٩٠ ؛ ٩١ ؛ ١٠٨

٤ القياس (Analogie)

تبدأ مراحل النمو اللغوى عند الطفل ، بأن يسمع من الكبار حوله ، كتلا لغوية أو عبارات كاملة ، فيلتقطها عبارة عبارة ، وكتلة كتلة ، دون تحليل لعناصرها المختلفة ، بل يربط بينها وبين ما يترتب عليها من الأحداث حوله ، وتبدأ عملية التحليل اللغوى عند الطفل ، عندما يتكرر سماعه للكلمات المختلفة فى جمل متعددة ، وعبارات شتى ، فيقوم عندئذ بعملية اختزان للكلمات ، فى مجاميع خاصة بها فى ذاكرته ، ليستخدمها عند الحاجة إليها ، غير أنه يحدث أحياناً أن يفتقد فى ذخيرته اللغوية ، ما يحتاج إليه من الكلمات ، فلا يجده فيها ، بمعنى أنه قد يصادف شيئاً ، لم يسمع كلمة تدل عليه ، فسرعان ما يخترع كلمة من عنده ، بالقياس على ما لديه من كلمات تشبهها ، فيضع مثلاً كلمة : مسّاحة (للأستيكّة !) أو : وقّافة (للفرملة !) أو : نضّافة (للفرشاة !) وغير ذلك .

وهكذا « يخلق الأطفال فى مرحلة تعلّمهم للغة ، عدداً كبيراً من الصيغ الجديدة ، وذلك باستجابتهم لداعى القياس ، ولكن الجزء الأكبر من هذه المبتكرات يُصلح فيما بعد ؛ لأنها فى غالب الأحيان ، ليست إلا عوارض فردية ، ناتجة عن حسّ غير صائب ، أو عن معرفة ناقصة باللغة ، ولكن بعضها ينطبق مع الحسّ اللغوى العام انطباقاً يجعلها تنتهى بالاستقرار ، وقد يحصل أن يتجه فجأة جميع الأفراد من جيل واحد ، إلى الوقوع فى غلطة بعينها ، تفرض نفسها عليه ، كأنها قانون ، وتصير قاعدة ، وعندئذ يصبح كل مجهود ، يقوم به المدرس فى المدرسة عبثاً ، وهناك تراكيب بادية الخطأ ، شائعة الاستعمال ، حتى بين المثقفين ، وفى الأقطار التى يطغى فيها أثر النحاة ، لا تستسلم اللغة لفعل القياس

إلا بصعوبة ؛ إذ تحقق المبتكرات القياسية في مهدها ، ولا تستطيع الحياة » (١) .

وليس كل ما نطق به قد سمعناه من قبل ، بل للقياس أثره الكبير في كلامنا . ونحن إذا سمعنا متحدثاً ينطق بصيغة من الصيغ ، فمن الصعب الحكم على ما إذا كانت هذه الصيغة ، قد سمعها ذلك المتحدث من قبل ، أو أنها بنت الساعة ، قد كونها هو على قياس ما سمع من قبل ، ومن الصعب أن نحكم بهذا أو بذلك على الأخص ، عندما يكون القياس صحيحاً ، موافقاً لما تتطلبه اللغة وشاع فيها ، أما إذا خالف هذا القياس ما شاع في اللغة ، فإننا حينئذ نعلم أنه من عمل الفرد ، وليس مما سمعناه من قبل . وهذا هو ما يسميه اللغويون المحدثون باسم : « القياس الخاطيء » Falsche Analogie .

وهذا المصطلح « يراد به : الميل العارض - الذى لا يمكن التنبؤ بحدوثه - من كلمة أو صيغة ، إلى الخروج عن مدارها الطبيعي ، في التطور والدخول في طبيعة كلمة أو صيغة أخرى ، لوجود مشابهة حقيقية أو متوهمة بينهما » (٢) .

« والقياس يتوقف إلى حد ما ، على قانون الاقتصاد في المجهود (أى قانون السهولة والتيسير) ، الذى يتجنب إثقال الذاكرة بمناخ غير مفيد ، والصيغ التى يقصدها القياس ، صيغ علية ، بمعنى أنها غير مضمونة من الذاكرة ، لندرة استعمالها ، والقياس لا يستطيع التغلب ، إلا عند ضعف الذاكرة ، فالصيغة الشاذة النادرة الاستعمال ، تنسى وتصابغ من جديد ، تبعاً للقاعدة المطردة » (٣) .

(٢) اللغة للتدريس ٢٠٧

(٢) أسس علم اللغة ، لماريوي ١٤١

(٣) اللغة للتدريس ٢٠٦

وقد ثبت من تتبع حياة اللغات « أن الاختلاف في حياة اللسان ، أقدم من الاتفاق في أكثر الحالات » ^(١) ، وهنا يأتي القياس اللغوي ، ليلغى هذه الاختلافات ، ويقيس بعض الأمثلة على بعض ، فتتوحد الظاهرة عن هذا الطريق .

مثال ذلك : ثبت من مقارنة اللغات السامية ، أن الأصل في ضمير المتكلم هو الكاف ، والأصل في ضمير الخطاب هو التاء ؛ لأن التكلم جنس يختلف عن جنس الخطاب ، ومن الطبيعي أن يوضع لكل جنس ، ضمير يخالف ضمير الجنس الآخر ، أى أن الأصل أن يقال مثلاً : « ضَرَبْتُكَ - ضَرَبْتُ - ضَرَبْتُ » ، غير أن القياس أدى إلى تسوية هذا الاختلاف ، فسادت الكاف وحدها في الحبشية ؛ ففيها مثلاً يقال : « قَتَلَكُوا - قَتَلْتُكَ - قَتَلَكِي » ، وفي العربية والآرامية والعبرية ، سار القياس في اتجاه آخر ، فسادت التاء ؛ إذ يقال في العربية مثلاً : « قَتَلْتُ - قَتَلْتَ - قَتَلْتِ » ^(٢) .

وهذا مثال آخر لأثر القياس في التطور اللغوي : فالأصل في لام الجر هو الفتح ، والأصل في باء الجر هو الكسر ، بدليل وجود هذا الأصل في اللغات السامية الأخرى ، وبدليل الاحتفاظ به في العربية ، عند الاتصال بالضمائر ، في مثل : « لَهُ » و « بِهِ » ، أما كسر اللام في مثل : « لِلرَّجُلِ » و « لِلنَّاسِ » في العربية ، فإن سببه هو القياس على باء الجر .

وما النصب « بما » عند الحجازيين ، في مثل قوله تعالى : ﴿ مَا هَذَا بِشَرًّا ﴾ ، إلا أثر من آثار قياس « ما » على « ليس » ؛ إذ المعنى فيهما سواء .

(١) التطور النحوي لبرجشتراسر ٧٧

(٢) انظر : Brockelmann, Semitische Sprachwissenschaft صفحة ٢٨

وقد ذكرنا هنا من قبل أن كلمة : « أشياء » هي الوحيدة الممنوعة من الصرف في العربية الفصحى القديمة ، من بين الكلمات الكثيرة التي تأتي على هذا الوزن ، وذكرنا رأينا في تفسير هذه الظاهرة في القديم .

أما في العصر الحديث : فإننا نرى تأثيرا كبيرا لهذه الكلمة على الكلمات التي من وزنها ، في الفصحى المعاصرة . وقد بدأ هذا القياس يعمل عمله أولا في الكلمات المنتهية بالهمزة ؛ فقد استمعت إلى مذيع بإذاعة الرياض في التاسعة في صباح ١٩٧٤/١/١٩ م يقول : « واستمعت في النشرة إلى أنباء أخرى متفرقة » . وفي تلفزيون الرياض في التاسعة والنصف من مساء السبت ١٩٧٤/١/٢٦ م قال المذيع : « تتكون السحب على أنحاء متفرقة في البلاد » . وفي إذاعة الرياض يوم ١٩٧٥/٣/٤ م قال المذيع : « وقد اعترضت تركيا على أجزاء مختلفة من مشروع القرار » . وتحدث الأستاذ محمد عبد الرحمن الشعلان ، في نشرة أخبار تلفزيون الرياض يوم الأربعاء ١٩٧٧/٣/٢٣ م عن « خرجته الكلية من ضباط أكفاء يخدمون وطنهم » . وفي إذاعة ركن السودان بالقاهرة ، في صباح يوم ١٩٧٧/١٠/٦ م قال المذيع : « وإنما يعنى هذا رفع أعباء وضغوط عن كاهل المواطن » . وفي إذاعة القاهرة صباح أول نوفمبر ١٩٧٨ م قال المذيع : « في أنحاء متفرقة من بلاد العالم » .

ثم زحف هذا القياس رويدا رويدا ، وغطى شيئا من وزن (أفعال) غير المهموز الآخر ؛ ففي مسرحية : « الفتح الأكبر » بتلفزيون القاهرة في العاشر من رمضان ١٣٩٧ هـ الموافق ١٩٧٧/٨/٢٥ م ، قال أحد الممثلين : « لا تذكرني بأقْدَارَ كتبت علينا » . وفي إذاعة القاهرة في صباح أول نوفمبر ١٩٧٨ م ، تحدث المذيع عن « غزو أسواق جديدة » . وجاء على

لسان السيد أحمد العماوى فى عيد العمال يوم الأحد ١٩٨٨/٥/١ م ، فى الاحتفال المذاع تليفزيونيا ، عبارة : « وفتح أسواق جديدة » . وفى مهرجان المريد الشعري ببغداد فى نوفمبر ١٩٨٨ م ، جاء على لسان أحد أساتذة الجامعة منع صرف كلمتى : « أحداث » و « أشخاص »

وقد امتدت جنابة « أشياء » على غيرها ، إلى إذاعتى طنجة والرباط ، فقيس عليها فى المنع من الصرف ، كلمات مهموزة الآخرة ؛ مثل : أنباء وأكفاء وأصدا وأرزاء وأنداء وأعداء ، كما قيس عليها كلمات أخرى غير مهموزة مثل : أقوال وأهوال وأصحاب وأخيار وأشرار (انظر : المنهل المغربية / العدد ٢٨ / ديسمبر ١٩٨٣ م . ص ٤٢ - ٤٣) .

غير أن للقياس أثراً آخر ، فى منع القانون الصوتى أحياناً ، عن أن يؤدى وظيفته ؛ فإن صبغ تصريح وزن معين ، توجد فى الذهن فى مجموعات مترابطة ، فلو جاء القانون الصوتى وأراد أن يعمل ، وكان من جراء عمله الإخلال بذلك الترابط ، فإن القياس يلغى القانون الصوتى ؛ بسبب ما يسمى « بطرد الباب على وتيرة واحدة » .

ويقول فى ذلك فندريس : « حالات الاستثناء من التغيرات الصوتية ، أمر لا يستطيع تجنبه .. وكثير منها يرجع إلى تلك التأثيرات الداخلية ، التى تلتخص فيما يسمونه القياس . وينحصر القياس فى أن التغيير الذى يفرضه القانون الصوتى ، على كلمة من الكلمات ، قد يتوقف أو يُعَدَّل ، تحت تأثير كلمات أخرى من اللغة .. فالقياس لا يكف عن أن يصحح أثر القوانين الصوتية ، أو أن يعوقها ، فكثيراً ما يعرقل تطور الأصوات فى سيره المطرد ، مما جعل عالماً اشتقاقياً لامعاً ، محباً للنظام والوضوح ، تعتبره نوبات من الغضب ، من إجراء تخريبات القياس ، والواقع أنه لا تكاد تمر عملية

صوتية ، دون أن يصيبها منه بعض الاضطراب ، إن قليلا وإن كثيراً ^(١) .
ومن أمثلة نقض القياس ، لما يطلبه القانون الصوتي ، أن هذا الأخير ،
يطلب أن ينطق الفعل : « عبد » مثلاً ، عند إسناده إلى تاء الفاعل ، هكذا :
« عَبَّئْتُ » بإدغام الدال في التاء ، تبعاً لقانون المماثلة ، أو التأثير المدبر الكلي
في حالة الاتصال ، الذي تحدثنا عنه من قبل ، غير أن القياس على باقي
صيغ تصريف هذا الفعل ، مثل : « عبدوا » و « عبدا » ، يحتم الإبقاء على
الدال ، لكي يطرد الباب على وتيرة واحدة ، وعندئذ نرى العرب ، يفصلون
بين صوتي الدال والتاء هنا بحركة مخطوفة ، هي ما سماها اللغويون العرب فيما
بعد « بقلقلة » ^(٢) الدال ، حتى لا تتأثر صوتياً بالتاء ، فيقولون : « عَبَدْتُ » .

وقد يكمل القياس الطريق الذي بدأه القانون الصوتي ، أي أن
القانون الصوتي يؤثر في بعض أمثلة الظاهرة اللغوية ، ثم يطرد القياس الباب
على وتيرة واحدة ، في الأمثلة الباقية .

فمثلاً : مضارع وزن « أَفْعَل » المسند إلى ضمير المتكلم ، مثل :
« أَكْرِمُ » ، الأصل فيه : « أُؤْكِرْم » فتوالى فيه مقطعان متماثلان ، وقد عرفنا
من قبل أن العربية تفرّ من توالى الأمثال ، فتحذف أحد المقطعين المتماثلين ،
وبذلك يصبح الفعل : « أَكْرِم » ثم تقاس باقي صيغ المضارعة على هذه
الصيغة ، طردا للباب على وتيرة واحدة .

(١) اللغة لفندريس ٧٩ - ٨٠

(٢) يقول حنفي ناصف (حياة اللغة العربية ٢٠) عن القلقلة : « وحروفها : قطب
جد ، فإذا وقفت على حرف منها ، يجب قلقلته قليلا من موضعه ، كأنك تحركه تحريكاً
خفيفاً » .

وقد فطن إلى هذا ابن جنى ، فقال : « قولهم : أنا أكرم ، حذفوا
الهمزة التى كانت فى : (أَكْرَمَ) ، لئلا يلتقى همزتان ، لأنه كان يلزم ، أنا
أوكرم ، فحذفوا الثانية ، كراهة اجتماع همزتين ، ثم قالوا : نكرم ، وتكرم ،
ويكرم ، فحذفوا الهمزة ، وإن كان لو جاءوا بها ، لما اجتمع همزتان ، ولكنهم
أرادوا المماثلة ، وكرهوا أن يختلف المضارع ، فيكون مرة بهمزة ، وأخرى بغير
همزة ، محافظة على التجنيس فى كلامهم » ^(١) .

والدليل كذلك على أن « يُكرم » أصلها : « يؤكرم » ، فعل الأمر
منها ، وهو : « أَكْرِمَ » بهمزة القطع .. وكنا فى انتظار همزة الوصل ، بناء
على قاعدة أخذ الأمر من المضارع .. ويبدو أن اشتقاق الأمر من المضارع
هنا ، قد تم قبل سقوط المقطع المتماثل منه ^(٢) .

وإذا كان الفعل الناقص المسند إلى الغائبة ، قد تحول من : (رَمَتْ)
مثلاً ، إلى (رَمَتْ) بسبب تجنب المقطع الرابع ، الذى تحدثنا عنه من قبل ،
فإن هذا الفعل الناقص نفسه ، إذا أسند إلى الغائبتين ، لا ينشأ فيه هذا
المقطع الرابع ، وليس هناك قانون صوتى ، يؤدي إلى تحول : (رماتا) مثلاً ،
إلى (رَمَتَا) ، وإنما هو أثر القياس على الفعل المسند للغائبة ، وطرده للباب
على وتيرة واحدة .

كما أن كراهة توالى أربعة مقاطع من النوع الأول ، هو المسئول عن
تطور : « ضَرَبْتُ » مثلاً عن : « ضَرَبْتُ » - كما عرفنا من قبل ، أما مثل :
« استخرجت » مثلاً فليس فيه توالى هذه المقاطع الأربعة ، وإنما المسئول عن

(١) المنصف لابن جنى ١٩٢/١ وانظر مقالتنا : كراهة توالى الأمثال فى أبنية العربية

١٩ - ٢١ وبحوث ومقالات فى اللغة ٢٧ - ٥٦

(٢) انظر كذلك : أبحاث فى اللغة العربية ، للدكتور داود عبده ١٩ - ٢٠

تسكين لام الفعل فيه ، هو القياس على باقى صيغ الأفعال ، وطرده الباب فيه على وتيرة واحدة .

وقد أشار ابن السراج إلى ذلك فى قوله : « وأما لام يَفْعَلْنَ ، فإنما أسكنت تشبيهاً بلام فَعَلْنَ ، وإن لم يجتمع فيه أربع متحركات ، ولكن من شأنهم إذا أعلوا أحد الفعلين لعله ، أعلوا الفعل الآخر ، وإن لم تكن فيه تلك العلة » (١) .

ومن أمثلة طرده الباب على وتيرة واحدة كذلك ، ما تفعله قبيلة « كلب » فى هاء الضمير المتصل : « هم » ، إذ يكسرونه فى كلامهم مطلقاً ، فيقولون : « منهم » و « عنهم » و « بينهم » ، والعربية الفصحى تبقى الحركة الأصلية لهذا الضمير ، وهى الضم ، إلا إذا وقع بعد كسرة قصيرة أو طويلة أو ياء ، بسبب قانون المماثلة ، وهو هنا من التأثر المقبل الكلى فى حالة الانفصال - كما ذكرنا من قبل ، أما بنو كلب ، فإنهم يطردون الباب على وتيرة واحدة ، فى هذا الضمير ، فيكسرون هاءه مطلقاً ، سواء سبق بكسرة أو ياء ، أم لم يسبق بواحدة منهما ، فهم يجرون قانون المماثلة ، فيما سبق بكسرة أو ياء كما فى الفصحى ، ويجرون القياس على ذلك ، فيما لم يستوف هذا الشرط . وهذه الظاهرة هى التى تسمى عند اللغويين العرب بظاهرة : « الوهم » (٢) .

ومن أمثلة ذلك أيضاً : فتح عين مضارع (فَعَلَ) قبل حروف الحلق فى العربية واللغات السامية ، فالفعل الماضى : « فَتَحَ » مثلاً ، كان المفروض أن يكون مضارعه « يَفْتَحُ » أو « يَفْتَحِ » بضم العين أو كسرها ،

(١) انظر : الأصول لابن سراج ٥٠/١

(٢) انظر كتابنا : فصول فى فقه العربية ١٥٢ - ١٥٣

تبعاً لقانون المغايرة (Polarity) في اشتقاق المضارع من الماضي ^(١) ، غير أنها تحولت إلى فتحة ، لوقوعها مع صوت الحلق في مقطع واحد ، وسبب هذا التحول « أن اللسان في نطق الحروف الحلقية ، يُجذب إلى وراء مع بسط وتسطيح له ، وهذا عين وضعه في نطق الفتحة ^(٢) » .

وقد حدث هذا التطور الصوتي هنا ، أول ما حدث ، في صيغة المضارع المجزوم بالسكون ، إذ فيه وحده تقع الحركة مع صوت الحلق في مقطع واحد ، ثم طرد القياس الباب على وتيرة واحدة ، في المضارع المرفوع والمنصوب ، والذي تحرك فيه حرف الحلق ، بسبب اتصاله بالنهايات ، مثل : يفتح ، ويفتح ، ويفتحون ... إلخ .

وقد يودى القياس إلى نشوء كلمات جديدة في اللغة ، فإن بناء : « اتبع » من : « تبع » مثلاً ، أدى إلى توهم أن « اتخذ » مأخوذة من : « اتخذ » مع أنها من : « أخذ » ، وبذلك نشأت كلمة جديدة هي : « تَحَذَّ » واستخدمها الشعراء ، كقول الممرك العبدى :

وقد تَحَذَّتْ رجلى إلى جنب غُرْزها نسيفاً كأفحوص القطاة المطرّق ^(٣)

وقد فطن إلى هذا الجوهري فقال : « والاتخاذ افتعال من الأخذ ، إلا أنه أدغم بعد تليين الهمزة ، وإبدال الياء تاء ، ثم لما كثر استعماله على لفظ الافتعال ، توهموا أن التاء أصلية ، فبنوا منه : فَعَلَ يَفْعَلُ ، قالوا : تَحَذَّ يَتَحَذَّ ^(٤) » .

(١) انظر : من أسرار اللغة (ط ٣) صفحة ٣٣

(٢) التطور النحوى ، لبرجستراسر ٦٣

(٣) الأصمعيات ق ٨/٥٨ ص ١٨٩

(٤) الصحاح للجوهري (أخذ) ٥٥٩/٢ وانظر على العكس من ذلك رأى

ابن جنى في الخصائص ٢٨٧/٢ وكذلك مجالس العلماء للزجاجي ٣٣٣

أما الأصمعي ، فإنه تردد في هذه الكلمة ، بين أن تكون بناء مستقلا ، بمعنى : « قَبِلَ » ، وأن تكون مأخوذة من : « اتخذ » ، قال تلميذه أبو حاتم : « وسألته عن : تَخَذْتُ ، ما معناه ؟ قال : قبلت ، ولم أسمع من العرب . قال : وقول الميزق العبدى :

وقد تَخَذْتُ رجلى إلى جَنْبِ عَرْزِها نسيفاً كأفحوص القطاة المطرِّق

معناها هاهنا : اتَّخَذْتُ ، وأما الذى قال فى معنى : قَبِلْتُ ، فمثل الذى فى القرآن : ﴿ وَلَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ ، ولم يكن يجب فى القرآن ، إلا ساهيا أو ناسياً ^(١) .

وهذا القياس الخاطيء ، هو المسئول كذلك عن استخدام : « يَتَّقَى » بمعنى : « اتَّقَى » ، فى قول عمرو بن قميئة :

فلو أننى أرمى بسهم تَقِيَّتُهُ ولكننى أرمى بغير سهام ^(٢)

ومضارعه على هذا النحو الذى شرحناه ، هو : « يَتَّقَى » . وذلك على العكس مما ذهب إليه أبو زيد الأنصارى ، من قوله : « وقد يحذف قوم الناء الأولى فى : (يَتَّقَى) ، فقالوا : (يَتَّقَى) ، وأنشد وهو ساعدة بن جؤية الهذلى :

يَتَّقَى به نَفْيَانِ كُلِّ عَشِيَّةٍ فالماء فوق سَرَاتِهِ يتصبَّبُ ^(٣) »

(١) فعلت وأفعلت ، لأنى حاتم السجستاني ١٤٠ - ١٤١

(٢) تصحيح الفصح لابن درستويه ٢٩٩/١ وقد روى فى ديوانه فى ١٢/٣ ص ٣٩ برواية أخرى هى :

فلو أنها نبل إذن لانقيتها ولكننى أرمى بغير سهام

(٣) النوادر فى اللغة ٤

ويبدو أن أبا زيد لم يقف على سر هذه الظاهرة ، فهم في روايته لهذا البيت . والصواب : « يَتَّقِي » ، مضارع : « تَقَى » على مثال : « تبع يتبع » ، عن طريق القياس . ووزن البيت لا يمنع من هذا الضبط ، الذي نظنه صوابا .

وقد تابع السكري ^(١) أبا زيد ، في ضبط الكلمة ، وقال : إنها لغة لهذيل ، واستشهد ببيت آخر لخفاف بن ندية ، وهو :

جلاها الصَّيْقِلون فأخلصوها خِفافاً كلُّها يَتَّقِي بأثر ^(٢)

وهي رواية مغيرة كذلك ، والصواب أنها بسكون التاء من : « يَتَّقِي » ، كما في سمط اللآلي ٧٥٢/٢ والصحاح (وق) ٢٥٢٧/٦ والمعاني الكبير ١٠٧٨/٢ .

وهذا يعني أننا أمام مثال واضح من أمثلة القياس الخاطيء . وقد ذكر أبو زيد مثالا صحيحا للظاهرة ، في قوله : « يقال : تَجِهَ يَتَجَّهُ تَجْهًا ، على وزن : فَرَعَ يَفْرَعُ فَرْعًا ، إذا واجهه ^(٣) » .

وفيه يتضح القياس الخاطيء للفعل : « اتَّجِهَ » على : « اتَّبَعَ » وبناء « تَجِهَ يَتَجَّهُ » منه ، على نمط : « تَبَعَ يَتَّبَعُ » ، كما ترى !

ولاشك أن هذا هو الطريق ، الذي وصلت إلينا عنه كلمات أخرى ، مثل : « التكلان » من « وكل » ، و « التُّخْمة » من الطعام الوخيم ، و « التقوى » من « وقى » و « التراث » من « ورث » ، و « تُجَاه » من « وجه » ، و « التكاة » من « توكأ » ، و « التالد » و « التلبد » من

(١) شرح أشعار الهذليين ١١٠٠/٣

(٢) رواية العجز مختلفة في ديوان خفاف بن ندية ق ١٨/٥ ص ٥٣

(٣) النوادر في اللغة ٧

« ولد » ؛ لأن معناه : المال المولود عند أصحابه ، وغير ذلك ^(١) .

ويسمى « برجشتراسر » ذلك النوع من القياس ببناء الأبنية ، حيث يقول : « ذكر الزمخشري مثلاً أن التاء في كلمة : « تهمة » أبدلت من الواو ، وهذا هو عين الصواب ، إلا أن التغير ليس من التغيرات الصوتية المحضة ، كما رأى هو ، وإنما أبدلت الواو بالتاء ، بواسطة بناء الأبنية ، وذلك أن الافتعال من : وهم ، هو : اتهم ، بقلب الواو تاء بالتشابه ، ثم إدغامها في تاء الافتعال ، واتهم كاتبع في مظهرها ، فظنوا أنها من : تهم ، كتبع ، فاشتقوا منها كلمات عديدة ، فأوها التاء ، منها التهمة » ^(٢) .

وللقياس أثر كبير في تطور الصيغ والدلالة في بعض الأحيان ، فتشابه كلمة : « سراويل » وهى للمفرد فى اللغة الفارسية ، بصيغة من صيغ الجمع المكسر فى العربية وهى صيغة : « فعاليل » ، جعل العرب يقيسونها على تلك الصيغة من صيغ الجمع ، ويشتقون لها مفرداً ، قياساً على مفردات ذلك الجمع ، فيقولون : « سروال » ^(٣) .

ومثل ذلك تماماً ، ما حدث فى الكلمة الإغريقية : Paradeisos فإنها مفرد ، غير أن مشابهتها للجمع : « فعاليل » جعل العرب يشتقون منها مفرداً ، هو : « فردوس » . وكذلك كلمة : Khronos فى الإغريقية ،

(١) انظر : القلب لابن السكيت ٦٢ - ٦٣ والإبدال لأبى الطيب ١٤٩/١ واللسان

(٢) (١٨ / ١١٠) (وقى) ٢٨٣ / ٢٠ وانظر كذلك : معانى القرآن للفراء ٥١ / ٢

(٢) التطور النحوى للغة العربية ٥١ - ٥٢

(٣) يقول الأزهري : « جاء السراويل على لفظ الجماعة ، وهى واحدة ، وقد سمعت

غير واحد من الأعراب يقول : سروال ، انظر : تهذيب اللغة ٣٩٠ / ١٢

والكلمة الألمانية : Groschen التى دخلت العربية بطريق التركية - هاتان الكلمتان مفردتان فى لغتيهما ، غير أنهما تشابهتا فى العربية ، مع صيغة الجمع : « فُعُول » ، فاشتق منهما مفردان جديدان هما : قَرْن (من الزمان) ، وقرش (من القروش) .

ومما تطورت دلالاته بسبب القياس : كلمة « عَتِيد » ، فقد شاعت هذه الكلمة بين المثقفين العرب ، بمعنى : « عَتِيق قَدِيم » أو « جَبَّار قَوِيَّ » . وهذا المعنى لم يكن للكلمة فى الأصل ، إذ إن معناها فى العربية الفصحى : « حَاضِر » ، فيقال : « هذا شَيْءٌ عَتِيدٌ » ، يعنى : مُعَدٌّ حَاضِرٌ ، وفى القرآن الكريم : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [سورة ق ١٨/٥٠] أى حافظ حاضر ، يسجل عليه كل شَيْءٍ ، وفيه كذلك : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَتِيدٍ ﴾ [سورة ق ٢٣/٥٠] ، يعنى : قال الملك الموكل به هذا ما عندى من كتابة عمله معدّ محفوظ حاضر .

ويقول الجوهري : « العتيد : الشئ الحاضر المهيأ ، وقد عتَّده تعتيذا ، وأعتَّده إعتادا ، أى أعدّه ليوم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مَتَكاً ﴾ أى : أعددت ، وهيات ، وحضَّرت » (١) .

وقد وردت فى كلام لابن جنى بهذا المعنى ؛ فى قوله : « فَإِنَّ الْجَوَابَ عَنْ هَذَا حَاضِرٌ عَتِيدٌ ، والخطب فيه أيسر » (٢) . كما وردت بهذا المعنى كذلك فى أشعار القدماء بكثرة ، كما فى قول نفيل بن عبد العزى :

وكيف أخافُ أو أخشى وعيداً ونصرُهم إذا أدعو عَتِيدُ (٣)

(١) الصحاح (عتد) ٥٠٢/١

(٢) الخصائص ٢٩٨/١

(٣) حماسة ابن الشجرى ٦/١ والحماسة البصرية ٨١/١

وقول أبي محمد اليزيدى :

سُفْنِيكَ مَا أَفْنَى الْقُرُونُ الَّتِي نَحَلْتُ فكن مستعداً فالقناء عتيْدُ (١)

وقول مطيع بن إياس :

إِذَا عَسُرَ الْخَيْرُ فِي الْمُجْتَدِينَ كَانَ لَدَيْهِ عَتِيداً يَسِيرَا (٢)

والسر في شيوع هذا الخطأ بين الناس ، أن كلمة : « عتيْد » تشترك في معظم أصواتها ، مع كلمتين آخرين ، هما : « عتيق » و « عنيْد » ، فقيست قياساً خاطئاً في معناها عليهما .

وقد كتب لى بعض الطلبة بحثاً ، قرأت فيه : « في القرآن تقريظ للكفار » وهو يقصد : « تقريع للكفار » ، فقد اشتبه على هذا الطالب : التقريع بالتقريظ ؛ لاشتراكهما في أكثر الأصوات ، ففاس الواحدة على الأخرى في المعنى ، قياساً خاطئاً .

كما سمعت خطيباً يقول : « تَبْعاً لَكَذَا » بدلا من : « تَبْعاً لَكَذَا » ؛ يقيسها على : « طَبَقاً لَكَذَا » . وما شيوع : « عَرِفْتُ » بكسر الراء ، إلا لقياسها على : « عَلِمْتُ » كما يشيع في السعودية جمع « مدير » على « مُدراء » قياساً على مثل : « كريم » و « كرماء » ، وهى ليست على « فعيل » كما توهما . وفي تليفزيون الرياض ، وصفت إحدى المذيعات « البخل » بأنه « بخل مُدقع » ، وهذا قياس على : « فقر مدقع » ، أى شديد ملصق بالدقعاء ، وهى التراب .

وما جمع « أبله » على : « بُلهاء » فى الفصحى المعاصرة إلا أثر من

(١) نزهة الألباء ٨٤

(٢) شعراء عباسيون ق ١١/٣٩ ص ٥٣ والأغاني ٣٠٣/١٣

آثار القياس الخاطيء على : « بليد » و « بلداء » ، لأن معنى الكلمتين واحد ، على وجه التقريب .

وقد ذكر لي أخى الدكتور على هنداوى ، أن ابنته « رُم » جمعت كلمة : « كلب » ذات يوم ، على : « كَلْبَيْن » ، قياسا على : « حِلْو » و « حِلْوَيْن » !

كما قاست إحدى مذيوعات التليفزيون المصرى (عصر يوم ١١/٢٤/١٩٨٥ م) الفعل المضارع المسند إلى ألف الاثنين على المثنى ، فقلبت ألفه ياء ، للدلالة على المفعولية ، فى قولها : « ولكن ما الذى جعل الأبوين يتعرفَيْن على الصغار » ؟

وفى كتب لحن العامة أمثلة أخرى كثيرة ، لأثر القياس فى تطور الصيغ والدلالات ؛ فمن كتاب الجمانة فى إزالة الرطانة ، نعرف أن الناس فى القرن التاسع الهجرى ، كانوا يشددون ياء التصغير فى مثل : « جُمَيْل » و « كَلَيْب » ، وسبب ذلك هو القياس على ما ثالثه حرف مد ، مثل : « غُلَيْم » فى « غلام » . كما أثر القياس كذلك فى جمع : « وَصِيف » على « وَصَفَان » ، فقد قيس الوصف على الاسم ، مثل : « رَغِيف » و « رَغْفَان » ؛ لأن الأصل أن يجمع « فَعِيل » على « فُعْلَان » إن كان اسماً ، وعلى « فُعْلَاء » إن كان صفة ؛ مثل : كَرِيم وكرماء - ومن أمثلة القياس فى هذا الكتاب أيضاً : تصغيرهم : « يد » على « يُدَيِّدَة » ، وذلك لأنهم يشددون الدال ، فتقاس على كلمة : « سَن » و « سُنَيَّة » ، وقد تنبه لذلك المؤلف فقال : « وإنما بنوا هذا التصغير على قولهم فى المكبّر : يَدّ ، بالتشديد ، فيجعلون لامها دالا » (١) .

(١) انظر : لحن العامة والتطور اللغوى ٢٨١

كما ذكر اليازجي (المتوفى سنة ١٣٢٤ هـ) أن الناس يقولون : « باع طُولي » والباع مذكر ، وهذا من أثر القياس على عبارة : « له اليد الطُولى » . كما حكى عنهم قولهم : « مرت عليه كرور الزمان » على توهم أن « الكرور » جمع ، فأنت له الفعل ؛ لأن « الفُعل » صيغة تأتي للمصدر ، كالسرور والجلوس ، وللجمع كالفوم والنجوم . ومثل ذلك ما رواه عنهم في قولهم : « ليس زيد ليفعل » فهو قياس منهم على : « لم يكن زيد ليفعل » ^(١) ، وغير ذلك .

وقد عرف قدماء اللغويين العرب هذه الظاهرة ، ظاهرة القياس الخاطيء ، وسموها : « التوهم » أو « الحمل » أو « القياس الخاطيء » أيضا ؛ يقول سيبويه مثلاً : « فأما قولهم : مصائب ، فإنه غلط منهم ، وذلك أنهم توهموا أن مُصيبة فعيلة ، وإنما هي مُفَعلة » ^(٢) .

ويقول ابن هشام في تذكرته : « رَضِيَ عَدُوها بَعْلَى ، حملاً على سخط ، قاله الكسائي » ^(٣) . كما يقول ابن خالويه في شرح الفصيح : « كان الفراء يجيز كسر النون في : شَتَان ، تشبيهاً بَسِيَّان ، وهو خطأ بالإجماع ، فإن قيل : الفراء ثقة ، ولعله سمعه ! فالجواب : إن كان الفراء قاله قياساً ، فقد أخطأ القياس ، وإن كان سمعه من عربى ، فإن الغلط على ذلك العربى ، لأنه خالف سائر العرب ، وأتى بلفظ مرغوب عنها » ^(٤) .

(١) انظر : لحن العامة والتطور اللغوى ٣٢٥ .

(٢) كتاب سيبويه ٣٦٧/٢ وانظر كذلك : المنصف ٣٠٧/١ .

(٣) عن الأشباه والنظائر للسيوطى ١٩٦/١ وانظر : الخصائص ٣١١/٢ ؛ ٣٨٩/٢ .

(٤) عن الأشباه والنظائر للسيوطى ٥٠٤/٢ .

٥ - الحَذَلَّةُ أو المبالغة في التَفَصُّحِ

الحذلة ، والمبالغة في التفصح ، والتفعر في الكلام ، كلها اصطلاحات من وضعنا نحن ، لما يقابل في اللاتينية كلمة : Hyperurbanismus وفي الإنجليزية كذلك كلمة : Overcorrectness وهو اصطلاح اتخذ لدى علماء اللغة ، للصيغ التي تنتج بسبب الحرص الشديد ، على محاكاة اللغة الأدبية ممن لا يجيدها ، فهو يحاول أن يرد العامية التي يتحدث بها ، إلى نمط اللغة الأدبية ، وهو في محاولته هذه لا يفرق بين الظواهر الجديدة والقديمة في العامية ، فإذا رد كلمة جديدة إلى أصلها القديم أصاب ، أما إذا فعل مثل ذلك مع الكلمات ، التي احتفظت بالأصل القديم ، وشابهت مع ذلك الجديد ، فإنه يكون حينذاك متفعرًا ومتحذلقًا . وذلك كمن يعرف أن الصوت المركب (aw) مثلا في العربية الفصحى ، يقابله في العامية حركة الضم الممالة (ō) ، وذلك مثل : « صُوم » في « صَوْم » و « عُوم » في « عَوْم » و « نُوم » في « نَوْم » و « يُوم » في « يَوْم » ؛ فهو إذا رد هذه الكلمات إلى أصلها ، كان مصيباً في كلامه ، غير أن هناك كلمات لها مثل هذه الصورة في الأصل ، في اللغة الأدبية نفسها ، مثل : « ثُوم » و « حُوت » و « رُوح » وغير ذلك ، وهنا يحاول هذا المتفصح ، أن يقلب هذه الضمات الأصلية ، إلى الصوت المركب الذي تتميز به اللغة الفصحى ، فيقول : « ثَوْم » و « حَوْت » و « رَوَح » ، قياساً على ما فعله في تلك الكلمات السابقة ، وعندئذ يأتي بشيء لا هو في العامية ، ولا هو في اللغة الأدبية ، وليس ما فعله إلا نوعاً من القياس ، الذي تحدثنا عنه من قبل .

وتتمثل الحذلة عند بعض المتحدثين ، في الخروج على المؤلف في الكلام ؛ ومن هذا النمط ما « يحكى أن رجلاً من المتأدبين أراد شراء ضحية ،

فقال لبعض البائعين للأضاحي : بكم الكِبْش ؟ بكسر الكاف ، فضحك كل من سمعه ، فلامه بعض أصحابه ، وقال له : لِمَ لَمْ تقل : كَبْش بفتح الكاف ، كما يقول الناس ؟ فقال : كذا كنت أقول ، قبل أن أقرأ الأدب ، فما الذي أفادتني القراءة إذن ؟! « (١) » .

ويسمى قندريس هذه الظاهرة : « الإسراف في المدنية » و « المبالغة في المدنية » و « الغلو في مراعاة الصحة » ، فيقول : « يجب أن نلحق بهذا الباب (يقصد باب القياس في التغيرات الصوتية) حالات الإسراف في المدنية ، والإسراف في اللهجية . وما يسمى الإسراف في المدنية ، هو المبالغة التي يؤدي إليها ولع صحة الكلام ، عند من يفخر بجمال العبارة ، كالذي حدث أن فلاحاً إيطالياً ، أراد أن يتكلم لاتينية روما ، وكان يعرف أن حركة (ō) الطويلة في لهجته ، يقابلها غالباً ال (au) diphtongue في لغة العاصمة ، فراح يقول : plaustrum (بلوْستروم) بدلا من : plostrum (عربة) و cauda (كودا) بدلا من : coda (ذيل) و Plaudere (بلودير) بدلا من : plodere (يضرب) ، ذلك هو الإسراف في المدنية ؛ فحركة ال (o) هنا ، أقدم من الناحية الاشتقاقية ، ولكن المدنى أيضا كان ميالاً بطبعه إلى المبالغة في المدنية ، حتى لا يتهم بالكلام على طريقة الفلاحين ، فكان يستعمل عن طيب خاطر ، الكلمات التي ذكرنا ، بالنطق الذي أشرنا إليه ... وإذا تكلم الإنسان لهجة أجنبية تعرض للأخطاء ، بسبب التردد في صيغة الكلمات ، فمن الأخطاء الشائعة الغلو في مراعاة الصحة « (٢) » .

وتقابلنا هذه الظاهرة في القديم ، فيما روى لنا عن قبيلة مازن ،

(١) الاقتضاب للبطلوسى ٥٦

(٢) اللغة لقندريس ٨٠ وانظر كذلك : أسس علم اللغة ، لماريويى ١٥٩

من أنها كانت تقلب الميم باء والباء ميماً ، أى أنها كانت تقول فى : « بكر » : « مكر » وفى : « مكر » : « بكر » مثلاً . وما روى لنا بهذه الصورة عسير التفسير ؛ لأن هذه القبيلة تستطيع - على حسب هذه الرواية - نطق صوتى الباء والميم ، فما الذى يدعوها إذن لقلب كل واحد منهما إلى صاحبه ؟ الظاهر أن الأمر لم يكن كما رواه لنا اللغويون العرب تماماً ، وأن هذه القبيلة إنما كانت تقلب الباء ميماً فحسب ، أى أنها كانت ترخى الطبق أو سقف الحنك الرخو ، عند النطق بالباء ، فيتسرب الهواء إلى الأنف ، فتبدو الباء كالميم ، غير أن الرجل من مازن ، عندما كان يريد محاكاة اللغة الأدبية ، لغة الشعراء والخطباء فى ذلك الوقت ، كان يحاول إرجاع الميم إلى نطقها الأدبى وهو الباء ، ويبالغ فى ذلك إلى درجة يطغى معها على صوت الميم القديم كذلك ، فيحوّله فى نطقه إلى باء ، حذقة منه ومبالغة فى التفصح ، وهنا يظهر لمن يسمعه فى كلامه اليومى وكلامه الأدبى ، كأنه يقلب الباء ميماً والميم باء .

وليس هذا الذى نتخيله ، فى أمر تلك الظاهرة عند مازن ، أمراً مستبعداً ، إذ نعثر على ما يشابهها تماماً ، عند سكان جنوبى العراق ، فهم يبدلون فى كلامهم صوت القاف غيناً ، كما يبدلون الغين قافاً ، فتراهم يقولون : « الغمر » فى : « القمر » مثلاً ، كما يعكسون فيقولون : « القُراب » فى : « العُراب » وغير ذلك . والأصل فى نطق هؤلاء الناس ، هو قلب القاف غيناً ، كما هو الحال عند السودانين ، وقد بينّا ذلك من قبل ، غير أن المبالغة فى التفصح ، هى التى تدعوهم إلى قلب الغين الأصلية قافاً ، على النحو السابق .

وعندنا فى عصور العربية المختلفة ، أمثلة كثيرة لظاهرة الحذقة فى اللغة ؛ فبعد أن صار الهمز شعار العربية الفصحى ، تسابق العرب فى النطق به ، فأدى ذلك إلى همز ما ليس أصله الهمز ، مبالغة فى التفصح ؛ لأنه إذا

كانت : « فقأت عينه » فصيحة و « فقيت » غير فصيحة ، و « وجأت بطنه » فصيحة ، و « وجيت » غير فصيحة - فإنه لا مانع من تحوّل : « حلّيت السوق » و « لبيت بالحج » و « رثيت زوجي » إلى : حلّأت ولبّأت ورثأت ، عن طريق القياس الخاطيء مبالغة في التفصح ؛ ولذلك يعتقد ابن السكيت فصلاً بعنوان : « ما همزته العرب وليس أصله الهمز » في كتابه : « إصلاح المنطق » ، يقول فيه مثلاً : « وقالوا : حلّأت السوق ، وإنما هو من الحلاوة ، وقالوا : لبّأت بالحج ، وأصله : لبيت ... وقالت امرأة : رثأت زوجي ، بإثبات الهمز » (١) .

ومن هذا النوع من الخذلقة : همزة كلمة : « شِئمة » وأصلها : « شيمة » بمعنى الخلق ؛ وذلك في مثل قول الشاعر :

وإِنِّي بَجَدَّ الحَبْلِ مَنْ يَرِينِي إِذَا لَمْ يُوَافِقْ شِئْمَتِي لِحَقِيقُ (٢)

وكذلك همز مثل : « إسادة » في « وسادة » و « إكاف » في « وكاف » .

ويشيع في العربية الفصحى ، همز ما ليس أصله الهمز ؛ بسبب

(١) إصلاح المنطق لابن السكيت ١٥٨ وانظر كذلك : إعراب ثلاثين سورة ٤٠ ؛ ٨٥ والنصف ٣١٠/١ وتهذيب اللغة ٦٨٣/١٥ وقد ذكر اللغويون العرب أمثلة أخرى كثيرة ، للمبالغة في التفصح في القديم ، وإن لم يسموا هذه الظاهرة بهذا الاسم ، كما حاولوا أن يعللوا لها بتعليلات واهية ، انظر مثلاً : الصحاح (لبأ) ٧٠/١ وإعراب القرآن المنسوب للزجاج ٨٨١ والأشباه النظائر للسيوطي ١٥٠/١ ومغني اللبيب ٦٨٤/٢ وسر صناعة الإعراب ٩٠/١ ؛ ١٠٢/١ والخصائص ١٤٥/٣ وغير ذلك . وانظر أمثلة رواها يوهان فك (العربية ٨٨) عن معاصري الجاحظ منها : « قفاء » بدلا من « قفا » .

(٢) النوادر في اللغة لأبي زيد ١٩٢

عقدة الحجازيين في صوت الهمزة ، وتوهمهم في الأمثلة التي يوجد في مكان منها واو أو ياء ، أنهما ناتجتان بسبب الانزلاق بين حركتين (Hiatus) بعد سقوط الهمزة في نطقهم ؛ ولذلك يزيدون في هذه الأمثلة ، همزات غير أصلية فيها ، عن طريق الحذقة والمبالغة في التفصح .

فإذا كانت الكلمة التي تعنى : « القمر » في أصل اللغات السامية ، تبدأ بالواو في الأصل ، كما في الحبشية (ወርህ) Warh والآشورية القديمة : Warhu وتتحول هذه الواو - كما تحولت في غيرها - إلى ياء في العبرية : (יָרַח) yerah والآرامية (ܝܪܚܐ) yarhā فإن الأصل الذي كان في العربية ، في مقابل هذه الكلمات كلها هو : « وَرْخ » .

وإذا كانت هذه الكلمة قد ماتت في العربية ، فإن الفعل منها وهو : « يُورِّخ » موجود في اللغة ، وقد تحذلق فيه الحجازيون ، فأقحموا عليه الهمزة ، وقالوا : « يُورخ » ، واشتقوا منه الماضي : « أَرَّخ » ، والاسم : « تَارِيخ » ؛ والدليل على عدم أصالة هذه الهمزة في العربية ، هو عدم وجودها في الجمع : « تواريخ » إذ لا يقال فيه : « تَارِيخ » ! .

ومثل ذلك تماما ، ما صنعه الحجازيون في : « الوصيد » و « الوكاف » و « التوكيد » و « الوقت » ؛ قال الفراء : « الوصيد والأصيد لغتان ، مثل : الإكاف والوكاف ، وكذلك : أَرَّخت الكتاب وورَّخته ، ووكدت الأمر وأكدته » ^(١) . ويقول الفراء كذلك : ﴿ وإذا الرسل أُقِّت ﴾ ، اجتمع القراء على همزها ، وهي في قراءة عبد الله : وَقَّتْ ، بالواو ^(٢) .

ومثل ذلك تماما : « وجوه » و « أجوه » ، ولاشك أن الهمزة اجتلبت

(١) معاني القرآن ١٣٧/٢

(٢) معاني القرآن ٢٢٢/٣

هنا أولاً في الفعل : « يُوجَّه » و « يُوجَّه » ، لا كما يظن علماء اللغة ، وعلى رأسهم « الفراء » الذي يقول : « وإنما همزت ، لأن الواو إذا كانت أول حرف وضمت ، همزت ... وذلك لأن ضمة الواو ثقيلة ، كما كان كسر الياء ثقيلًا ^(١) » .

وقد ظن الشاعر جرير أن « الموقدين » و « موسى » محذوفتي الهمزة ، على لغة قريش ، فهمزهما تفصحاً في قوله :

أَحَبُّ الْمُؤَقِّدَيْنِ إِلَيَّ مُوسَى وَجَعَدَةُ إِذَا أَضَاءَهُمَا الْوُقُودُ ^(٢)

وليس هناك ضرورة من وزن الشعر ، تحتم إقحام الهمزة في هذين اللفظين . قال ابن جني : « وإنما يجوز مثل هذا الغلط عندهم ؛ لما يستهويهم من الشبه ؛ لأنهم ليست لهم قياسات يستعصمون بها ، وإنما يُخْلِدُونَ إِلَى طِبَائِعِهِمْ ^(٣) » .

وإذا كانت لهجات الخطاب ، يشيع فيها انكماش الصوت المركب - كما سبق أن عرفنا - فإننا لانعدم في هذه اللهجات ، من يتوهم أن واو المد وباءه الأصليتين ، منقلبتان عن الصوت المركب (aw) و (ay) فيعاملهما معاملة هذا الصوت المركب ، فيأتى بشيء لا هو في الفصحى ولا هو في العامية ، حذقة منه ومبالغة في التفصيح .

ومن أمثلة الحذقة في عصر الزبيدي (المتوفى سنة ٣٧٩ هـ) قول

(١) معاني القرآن ٢٢٢/٣

(٢) المختضب ٤٧/١ والخصائص ١٧٥/٢ وشرح شواهد الشافية ٤٢٩/١ وما في ديوان جرير ١٤٧ بلا همز (= شرح ابن حبيب ٢٨٨/١)

(٣) المنصف ٣١١/١ وانظر : شرح شواهد الشافية ٤٣٠/١ والمخصص ١٠٦/١٦

عوام الأندلس « لُوبان » في : « لُوبان » المتطورة عن : « لُبَان » بتأثير النبر ، وكذلك قولهم : « مات مَيَّةٌ سوء » بدلا من اسم الهيئة : « مَيَّة » ، وقولهم للملاح : « نُوقى » بدلا من : « نُوقى » ^(١) . والدليل على تفصحهم في هذا : انكماش الصوت المركب الأصلي في نطقهم ، مثل : « الغيرة » في : « الغيرة » ، و « قَيْح » في « قَيْح » ، و « صُنُوبر » في : « صُنُوبر » ^(٢) ، وغير ذلك .

ومن أمثلة هذه الظاهرة في عصر ابن مكى الصقلى (المتوفى سنة ٥٠١ هـ) قول العامة مثالا : « أنت عندى كَرُوحى . وخرجت رُوح زيد » ، بدلا من : « رُوح » ، وقولهم : « دِيَّاج » بدلا من : « دِيَّاج » ^(٣) ، وغير ذلك .

كما ذكر ابن هشام اللخمي (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ) قول عامة عصره : « ثُوم » في « ثُوم » و « حَوْت » في : « حَوْت » ^(٤) ، وغير ذلك . وكذلك ذكر عبد القادر المغربي (المتوفى سنة ١٣٧٥ هـ) قول العامة في عصرنا « حَزِيرَان » بدلا من : « حَزِيرَان » وهى كلمة معربة عن الآرامية (سَرَّسُ) وكذلك قولهم : « ألقى فى رُوعى » بدلا من : « رُوعى » ^(٥) ، وغير ذلك .

(١) لحن العوام للزبيدى ٩٣ : ١٩٦ : ٥٧

(٢) لحن العوام للزبيدى ١٤٤ : ١٨٥ : ١٣٢

(٣) تثقيب اللسان ٢٩٥ : ٢٩٩ وتقويم اللسان ١٠٥ وأدب الكاتب ٣٠١

والفصيح لثعلب ٥٠ وتصحيح التصحيح ٢٦٧

(٤) المدخل إلى تقويم اللسان ٤٧ : ٤٨

(٥) غرر اللسان ١٢ : ٣٢

وقد سمعت بنفسى أحد مذيعى تليفزيون الرياض ، يقول : « مَيَّاء »
بدلاً من : « مَيَّاء » ، ويقول : « إليكم مَوْجَزُ الأنباء » بدلاً من : « مَوْجَز »
حذقة وتفصحا !

كما سمعت إمام المسجد الأحمدي بطنطا ، فى لقاء تليفزيونى بمجلة
التليفزيون ، فى مساء يوم ١٩٨٣/٩/٢٧ م ، يقول عن السيد البدوى رضى
الله عنه : « وذاع صَيِّته » بدلاً من : « صَيِّته »^(١) . ومثله ما حدث من بعض
علماء الدين ، فى حديث تليفزيونى ، فى صباح الجمعة ١٩٨٤/٢/٣ م ،
حين قال : « كل إنسان يحب أن يذيع صَيِّته بين الناس » !

وليست هذه الظاهرة منحصرة فى معاملة واو المد الأصلية ، وباء المد
الأصلية معاملة الحركة المركبة ، بل إنها تشمل كذلك ، معاملة العوام للدال
والسين أحياناً ، معاملة الصوتين المُعَيَّرين فى العامية ، عن الصوتين
الأسنانيين : الذال والطاء ، فقد روى ابن مكى الصقل أن العوام فى عصره ،
كانوا يقولون : « شِذِق » فى : « شِذِق » و « جُذعت أنفه » فى :
« جُذعت » و « ذميم الوجه » فى : « ذميم »^(٢) . وفى مسالك الأبصار
(ص ٩١) : « فما أقاموا إلا ساعة بالخلع حتى طفثوا وماتوا » بمعنى :
طفثوا .

كما يقول عامة عصرنا : « نَقَذَ الشيء » بمعنى : انتهى ، فى :

(١) فى الصحاح (صيت) ٢٥٧/١ : « والصَّيْتُ : الذكر الجميل الذى ينتشر بين
الناس دون القبيح ؛ يقال : ذهب صَيِّته فى الناس . وأصله من الواو ، وإنما انقلبت بياء
لأنكسار ما قبلها » .

(٢) تنقيف اللسان ٥٦ - ٥٧

« نَقَدَ » ^(١) . وقد كتب لى بعض طلبتى فى بحث له : « ولولا القرآن لما قامت اللغة على قدم وثاق » بدلا من : « وساق » . وكتب أحد رجال القلم يقول : « حتى يتثنى للناس معرفة الخبيث من الطيب » ^(٢) .

وإذا كانت اللهجة المصرية ، تقلب القاف همزة ، فإن حرص المتفصحين من أهلها على رد هذه الهمزة إلى أصلها ، يجرى فى بعض الأحيان ، إلى قلب الهمزات الأصلية إلى قاف ، بسبب الجرى وراء الخذقة والتععر فى الكلام ؛ فالكلمات : « أرم » بمعنى « عض » و « علأة » وأصلها : « حَلَاة » بمعنى الضرب الشديد بالسوط أو العصا ، و « مأروض » بمعنى قصير لاصق بالأرض ، هذه الكلمات كلها ، الهمزة فيها أصلية ، ولكن كتاب القصة والمسرحية فى مصر ، يكتبونها فى أيامنا هذه : « قَرَمَ » و « علقة » و « مقروض » ^(٣) ، مبالغة فى التفصح .

(١) أخطأونا فى الصحف والدواوين للزغبلاوى ٢٧٢
(٢) من مقالة بعنوان : « الحركة الطلاية بين الأصالة وأزمة الضمير » فى صحيفة : « الأيام » السودانية ، بقلم أحمد المصطفى والى ، فى يوم ١٨/٢/١٩٨٠ م .
(٣) انظر : المحكم فى أصول الكلمات العامة للدكتور أحمد عيسى ٩ ؛ ٦٦ ؛

٦ - العادات اللغوية للشعوب (Substrata)

لاحظ علماء اللغة أن « الشعب الذى يتخذ لغة جديدة ، يطبق عليها أحيانا عوائد النطق فى اللغة التى تركها » ^(١) ، ولا يخفى ما يترتب على اختلاف الشعوب فى طريقة النطق من آثار بعيدة المدى فى التطور الصوتى ، فى اللغات الوافدة على المنطقة . وهذا هو ما يسمى بأثر العادات اللغوية للشعب (Substrata) ، ويطلق هذا المصطلح « على الصيغة الكلامية المبكرة ، التى كان يستخدمها السكان الأصليون ، فى منطقة ما ، فحين تتعرض هذه المنطقة للغزو الخارجى ، تختلط لغتها بلغة الغزاة ونتيجة لذلك تأخذ شكلا جديدا » ^(٢) . فانقلاب الفتحة الطويلة المنبورة ، إلى ضمة طويلة مائلة مثلا ، قد حدث فى كل اللغات ، التى دخلت إلى منطقة سوريا وفلسطين ، فكلمة : « كأس » فى العربية ، هى : « كوس » kōs (كوس) فى اللغة العربية ، وكذلك كلمة : « ملكا » (مَلِكًا) بمعنى : « الملك » فى السريانية الشرقية (بالعراق) ، هى « مَلْكو » malko فى السريانية الغربية ^(٣) بسوريا وفلسطين . ومثل ذلك حدث للفتحة الطويلة ، فى العربية المتكلمة الآن بمنطقة اللاذقية ، والأماكن المجاورة لقرية « معلولا » ، التى ما زالت تتحدث السريانية حتى الآن ^(٤) ، ومثال ذلك قولهم : « بُوب » فى : « باب » .

ويسمى الجاحظ هذه الظاهرة باللكنة ، فيقول : « ويقال : فى لسانه لكنة ، إذا أدخل بعض حروف العجم فى حروف العرب ، وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول » ^(٥) .

(١) اللغة لقندريس ٨٢

(٢) أسس علم اللغة ، لما ريوياى ١٣٩

(٣) انظر : بروكلمان Syrische Grammatik ص ٧

(٤) انظر : برعشتاسر Sprachatlas von Syrien und Palastina الفقرة ١٦

(٥) البيان والتبيين ٣٩/١ - ٤٠

كما ضرب لنا الجاحظ أمثلة كثيرة ، يظهر فيها أثر العادات اللغوية ،
للشعوب التي اعتنقت الإسلام ، على نطقهم العربية ؛ فقال مثلاً : « ألا
ترى أن السندى إذا جُلب كبيراً ، فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زائياً ،
ولو أقام في عليا تميم ، وفي سفلى قيس ، وبين عجز هوازن ، خمسين عاماً ،
وكذلك النبطى القحح ، خلاف المغلاق الذى نشأ في بلاد النبط ، لأن
النبطى القحح ، يجعل الزاى سيناً فإذا أراد أن يقول : زُورق ، قال سورق .
ويجعل العين همزة ، فإذا أراد أن يقول : مشمعل ، قال : مشمئل » (١) .
كما يقول : « أبو حاتم الرازى » في هذه القضية : « وسائر اللغات
نقصت وزادت مثل اللغة الفارسية ، فإنها قصرت عن : العين ، والغين ،
والحاء ، والقاف ، والطاء ، والظاء ، والصاد ، والضاد ، والذال ، والثاء ،
حتى لا يوجد في لغتهم الأصلية ، كلام يتكلم به على هذه الحروف .
» فإذا اضطروا إلى أن يتكلموا بكلمة عربية ، أو معربة ، في بنيتها
حرف من هذه الأحرف ، قلبوا ذلك الحرف إلى حرف قريب الحيز والمدرج
منه ، أو إلى حرف يشمونه ذلك المعنى ، كما قلبوا الحاء إلى الهاء ، فقالوا
لمحمد ، مهمد ، وقلبوا العين إلى الألف ممدودة مهموزة ، فأشتموها معنى
العين ، فقالوا لعلى : آلى ، وقلبوا الغين إلى الواو فقالوا للغلام : ولام ، وقلبوا
القاف إلى الكاف ، فقالوا للقمر : كمر ، وقلبوا الطاء إلى التاء ، فقالوا
للتاووس : تاووس ، وقلبوا الظاء والضاد إلى الدال ، فقالوا في معنى : ضربه
وظلمه : دربه ودلمه ، وقلبوا الصاد إلى السين ، فقالوا للصنم : سنم ، وقلبوا
الذال إلى الدال ، فقالوا للدليل : دليل ، والثاء إلى التاء ، فقالوا للكثير :
« كثير » (٢) .

(١) البيان والتبيين ٧٠/١

(٢) الزينة في الكلمات الإسلامية العربية ٦٥/١

٧ - انتِقَالُ النَّبَرِ

حين يتحدث الإنسان بلغته ، يميل في العادة إلى الضغط على مقطع خاص من كل كلمة ، ليجعله بارزاً أوضح في السمع مما عداه من مقاطع الكلمة ، وهذا الضغط هو الذى يسميه المحدثون من اللغويون « بالنبر » Akzent .

ويعرفه الدكتور تمام بأنه « وضوح نسبي لصوت أو مقطع ، إذا قورن ببقية الأصوات والمقاطع في الكلام » ^(١) . ويقول الدكتور بشر : « معنى هذا أن المقاطع تتفاوت فيما بينها في النطق قوة وضعفاً ، فالصوت أو المقطع المنبور ، ينطق ببذل طاقة أكثر نسبياً ، ويتطلب من أعضاء النطق مجهوداً أشد ، لاحظ مثلاً الفرق في قوة النطق وضعفه ، بين المقطع الأول في (ضَرَبَ) والمقطعين الأخيرين (ضَ / رَ / بَ) نجد (ضَ) ينطق بارتكاز أكبر من زميليه في الكلمة نفسها » ^(٢) .

وقد اختلفت آراء العلماء حول وجود النبر في العربية الفصحى ، ومكانه في الكلمة ؛ فبينما يقول بروكلمان : « في اللغة العربية القديمة ، يدخل نوع من النبر ، تغلب عليه الموسيقية ، ويتوقف على كمية المقطع ، فإنه يسير من مؤخرة الكلمة نحو مقدمتها ، حتى يقابل مقطعاً طويلاً ، فيقف عنده ، فإذا لم يكن في الكلمة مقطع طويل ، فإن النبر يقع على المقطع الأول منها » ^(٣) - يرى برجشتراسر « أنه لا نص نستند عليه في إجابة مسألة ، كيف كان حال العربية الفصيحة في هذا الشأن ، ومما

(١) مناهج البحث في اللغة ١٦٠

(٢) علم اللغة العام ٢١٠

(٣) انظر : بروكلمان Semitische Sprachwissenschaft صفحة ٦١

يتضح من اللغة نفسها ، ومن وزن شعرها ، أن الضغط لم يوجد فيها ، أو لم يكد يوجد ؛ وذلك أن اللغة الضاغطة ، كثيرا ما يحدث فيها حذف الحركات غير المضغوطة ، وتقصيرها ، وتضعيفها ، ومد الحركات المضغوطة ، وقد رأينا أن كل ذلك نادر في اللغة العربية . وإذا نظرنا إلى اللهجات العربية الدارجة ، وجدنا فيها كلها - فيما أعرف - الضغط ، وهو في بعضها قوى ، وفي بعضها متوسط ، غير أنها تتخالف في موضعه من الكلمة في كثير من الحالات ، فمن المعلوم أن المصريين يضغطون في مثل : (مطبعة) المقطع الثاني ، وغيرهم يضغطون الأول ، فلو أن الضغط كان قويا في الزمان العتيق ، لكانت اللهجات - على أغلب الاحتمال - حافظت على موضعه من الكلمة ، ولم تنقله إلى مقطع آخر ^(١) .

هذا هو رأى برجشتراسر ، أما أنه ليس لدينا نص ، نستند إليه في معرفة حالة النبر في العربية القديمة ، فهذا صحيح ، وأما أن العربية لم تكن تنبر ، فإننا نشك في ذلك الذى قاله برجشتراسر ، وهو يغفل في كلامه التطور اللغوى ، وتأثير الشعوب المختلفة التى غزتها العربية ، بعاداتها القديمة في النبر ، وأثر ذلك في اختلاف موضعه من الكلمة ، كما يبدو الآن ، في تعدد طرق النبر في مثل كلمة : « مطبعة » .

أما الدكتور إبراهيم أنيس ، فإنه يسلم بأنه « ليس لدينا من دليل يهديننا إلى موضع النبر في اللغة العربية ، كما كان ينطق بها في العصور الإسلامية ، إذ لم يتعرض له أحد من المؤلفين القدماء ، أما كما ينطق بها قراء القرآن الآن في مصر ، فلها قانون تخضع له ، ولا تكاد تشذ عنه » ^(٢) .

(١) التطور النحوى ٧٢ - ٧٣

(٢) الأصوات اللغوية : ١٠٤

وقد لخص الدكتور إبراهيم أنيس ، مواضع النبر في الكلمة العربية ، فقال ^(١) : « ينظر أولاً إلى المقطع الأخير ، فإن كان من النوعين الرابع والخامس ، كان هو موضع النبر ، وإلا نظر إلى المقطع الذي قبل الأخير ، فإن كان من النوع الثاني أو الثالث ، حكمنا بأنه موضع النبر ، أما إذا كان من النوع الأول ، نظر إلى ما قبله ، فإن كان مثله ، أى من النوع الأول أيضاً ، كان النبر على هذا المقطع الثالث ، حين نعد من آخر الكلمة . ولا يكون النبر على المقطع الرابع حين نعد من الآخر ، إلا في حالة واحدة وهي أن تكون المقاطع الثلاثة التي قبل الأخيرة ، من النوع الأول » .

فالنبر يقع على المقطع الأخير في مثل : « نستعين » و « ذاكَّرت » ، وعلى المقطع قبل الأخير في مثل : « تعلَّم » و « يعادى » و « قاتل » و « يكتُب » ، كما يقع على المقطع الثالث من الآخر في مثل : « كَتَبَ » و « اجْتَمَعَ » ، وعلى المقطع الرابع من الآخر في مثل : « بَلَحَةٌ » و « سَمَكَةٌ » .

وتغيير موضع النبر في الكلام ، أو بعبارة أخرى : « انتقال النبر » يؤثر في صيغ الكلمات ، وسقوط بعض أصوات الكلمة ، أو طول الحركات ، وما إلى ذلك .

فمثلاً من طبيعة العربية الفصحى ، أن تقصر الحركة الطويلة في المقطع المفتوح ، إذا كان يسبق مقطوعاً آخر منبوراً ذا حركة طويلة ، فأصل مصدر « فاعل » في العربية القديمة ، هو : « فيعال » بنبر المقطع الثاني ، وقد ترتب على خلو المقطع الأول من النبر ، أن قصرت حركته ، فصار المصدر « فِعال » ، مثل « قاتل قتالا » بدلاً من : « قاتل قيتالا » ؛ يقول المبرد :

(١) الأصوات اللغوية ١٠٦ وارجع إلى تقسيمنا السابق للمقاطع .

« ويجيء في فاعل الفِعَال ، نحو : قَاتَلَتْهُ قَتَالًا ، وراميته رماء . وكان الأصل : فيعالًا ، لأن فاعلت على وزن : أَفْعَلْتُ وَفَعَّلْتُ ، فكان المصدر كالزَّلزال والإكرام ، ولكن الياء محذوفة من فيعال ، استخفافاً ، وإن جاء بها جاء فمصيب » (١) !

وعلى العكس من ذلك ، بقيت تلك الحركة الطويلة ، في مثل : « دينار » و « ميعاد » في المقطع الأول ، لوجود نبر ثانوى على هذا المقطع ، وقد زال هذا النبر في بعض اللهجات الحديثة ، فقصرت الحركة (٢) وأصبحنا نقول : « دِنار » و « مِعاد » . ومن أمثلة ذلك أيضا قول العامة : « فِران » في : « فِيران » ، و « كَنُون » في : « كانون » ؛ وذلك على العكس من لهجة الأندلس العربية ، في القرن الرابع الهجرى مثلاً ، فإنها كانت تنبر المقطع الأول من « فِعال » فتطول حركته بعد أن كانت قصيرة ، مثل : « طيراز » و « تيلاد » و « ثيمار » و « طيحال » و « إيكاف » في : « طراز » و « تلاد » و « ثمار » و « طحال » و « إكاف » (٣) .

ويبدو أن أهل الأندلس ، كانوا ينبرون المقطع الأول من الكلمة ، في كثير الأحيان ، فقد روى ابن حزم الأندلسى (المتوفى سنة ٤٥٦ هـ) أنهم كانوا يقولون : « العينب » في « العنب » (٤) ، كما روى عنهم ابن هشام

(١) المقتضب للمبرد ١٠٠/٢ وانظر كذلك : شرحان على مرايح الأرواح ١٦
(٢) ويندرج هذا عموماً ، تحت قاعدة أن المد الطويل ، يقصر في كثير من اللهجات الحديثة ، إذا سبق مقطعا منبورا ؛ فيقال مثلاً : « عمود » و « سلمات » و « مجنين » و « جران » في : عامود وسلامات ومجانين وجيران . وانظر : أبحاث في اللغة العربية ، للدكتور داود عبده (١٤٣) .

(٣) انظر : لحن العوام للزبيدي ٧٦ ؛ ٧٨

(٤) انظر : الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٣٠/١

للخمي (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ) قولهم : « سر في داعة الله » بدلا من : « دعة الله » ، وكذلك : « باعوضة » في « بعوضة » و « عنب » في « عنب » ، و « عامود » في « عمود » ^(١) . ومثل ذلك ما رواه ابن كمال باشا (المتوفى سنة ٩٤٠ هـ) عن عامة عصره أنهم كانوا يقولون : « الإيباء » في « الإباء » ، و « الآوان » في « الأوان » ^(٢) . ويمثل هذا ما نسمعه الآن من قول العامة : « هل سمعت الآذان ؟ » يريدون : « الأذان » .

ويؤثر وجود النبر أحيانا ، في سقوط الحركات من المقاطع التالية للنبر ، فقد دلت الملاحظة مثلا ، على أنه إذا توالى في اللغات السامية ، مقطعان قصيران ، أولهما منبور ، فإن حركة المقطع الثاني تسقط في الكلام ، ففي العربية مثلا يقال كثيرا : « وَهُوَ » بدلا من : « وَهُوَ » ، و « مَعَهُ » بدلا من : « مَعَهُ » ، و « فَلْيَذْهَب » بدلا من « فَلْيَذْهَب » ، و « يَذْكُر » الناتجة بحسب قانون المماثلة من « يَتَذَكَّر » بدلا من : « يَتَذَكَّر » .

وسقوط حركة لام الأمر الداخلة على المضارع ، عند اتصالها بالفاء أو الواو - أمر لازم في قراءة القرآن الكريم ، فلم ترد الصورة الأصلية للظاهرة ، في أية قراءة قرآنية ، يقول ابن خالويه : « فلو قرأ قارئ ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ ﴾ بكسر اللام لكان سائغا في العربية غير أنه لا يقرأ به ، إذ لم يتقدم له إمام ، والقراءة سنة يأخذها آخر عن أول ، ولا تحمل على قياس العربية » ^(٣) .

وهذا القانون يمكن تفسير سقوط الفتحة ، قبل تاء التأنيث في بعض المؤنثات في اللغات السامية ، مثل : « أُنْخِت » و « بُنِت » وأصلهما :

(١) انظر : المدخل إلى تقويم اللسان ٣٧ ؛ ٥٣ ؛ ٦٦

(٢) انظر : التنبيه على غلط الجاهل والتنبيه ٥ ؛ ٧

(٣) إعراب ثلاثين سورة ٤٢

« أُنَحْتُ » و « بَنْتُ » ، ومثل : rest (𐤒𐤍𐤔) بمعنى : « ميراث » و habt
(𐤅𐤍𐤔) بمعنى : « هبة » في الحبشية ، إذ الأصل فيهما : resat ، habat
وكذلك : šartu بمعنى : « شعر » ، و bēltu بمعنى : « زوجة » أو « سيدة »
(= بعلة) في الأكادية ، فإن الأصل فيهما هو : šaratu ، bētatu وما أشبه
ذلك .

ولا شك أن ما حكاه الكسائي ، من أن « بعض كنانة يقولون :
مَعْنَدُكَ ؟ وَمَصْنَعْتُ ؟ » ^(١) راجع إلى انتقال النبر من (ما) الاستفامية إلى
ما بعدها من الكلمات في لغة هؤلاء القوم من كنانة ، فأثر ذلك في تفصيل
حركتها ، على النحو الذي روى لنا .

(١) شواهد التوضيح لابن مالك ٢١٥

٨ - قانونُ الأصواتِ الحَنَكِيَّةِ

وصل العلماء في مقارنتهم اللغة السنسكريتية ، باللغتين اليونانية واللاتينية ، في أواخر القرن التاسع عشر ، إلى قانون صوتي سموه : « قانون الأصوات الحنكية » ^(١) . ولاحظوا أن أصوات أقصى الحنك ، كالکاف والجيم الحالية من التعطيش ، كالجيم القاهرية مثلاً - تميل بمخرجها إلى نظائرها من الأصوات الأمامية ، حين تليها في النطق حركة أمامية كالکسرة ؛ لأن هذه الحركة الأمامية في مثل هذه الحالة ، تجتذب إلى الأمام قليلاً أصوات أقصى الحنك ، فتتقلب إلى نظائرها من أصوات وسط الحنك ، ويغلب أن تكون هذه الأصوات الجديدة من النوع المزدوج ، أي الجامع بين الشدة والرخاوة وهو المسمى باللاتينية Affricata .

ومن الأصوات التي خضعت لهذا القانون في العربية : صوت الجيم ، فإن مقارنة اللغات السامية كلها ، تشير إلى أن النطق الأصلي لهذا الصوت ، كان بغير تعطيش كالجيم القاهرية تماماً . فكلمة : « جمل » مثلاً ، هي في العبرية : (גָמָל) gamāl وفي الآرامية : (ܓܡܠܐ) gamlā ، وفي الحبشية : (ገመል) gamal (ገመል) . أما العربية الفصحى ، فقد تحول فيها نطق هذا الصوت من الطبق إلى الغار ، أي من أقصى الحنك إلى أوسطه ، كما تحول من صوت بسيط إلى صوت مزدوج ، يبدأ بدال من الغار . ثم ينتهي بشين مجهورة ، غير أن ذلك لم يحدث في البداية في كل جيم ، وإنما كان يقتصر على الجيم المكسورة ، تبعاً لقانون الأصوات الحنكية ، ثم عمم القياس هذا

(١) يسميه « ماريوي پای » : التغوير Palatalization ، وقد مثل له بتحول Centum

بکاف في الأول في اللاتينية ، إلى : Cento بصوت مزدوج في الأول في الإيطالية . انظر :

أسس علم اللغة ١٤٤

النطق الجديد في كل جيم ، طرداً للباب على وتيرة واحدة ، وقد حدث ذلك في العربية القديمة ، في العصور السابقة لظهور الإسلام ، وصار هو النطق المميز للفصحى ؛ ولذلك جاء به القرآن الكريم ، وبقي النطق البائد في بعض اللهجات العربية القديمة ، وامتداداتها في بعض اللهجات الحديثة . وما حدث لصوت الجيم القديم في الفصحى ، حدث مثله لصوت الكاف في بعض اللهجات القديمة ، في الظاهرتين المعروفتين عند القدماء ، بظاهرتي : « الكسكسة » و « الكشكشة » ، اللتين رويتا لنا عن بعض القبائل القديمة كبكر وهوازن وربيعة وأسد .

وقد وقفت هذه الظاهرة في القديم ، عند حدود قانون الأصوات الحنكية ، أى أن الكاف لم تقلب إلى : (تُسْ) في الكسكسة ، ولا إلى : (تُشْ) في الكشكشة ، إلا إذا كانت مكسورة ، ندرك هذا من تقييد اللغويين القدماء لها بكاف المؤنثة ، وهى مكسورة كما نعلم ، وإن كانت أمثلتهم تحتوى على كافات أخرى مكسورة ، سوى كاف المؤنثة . كقول الراجز :

إن دنوت جعلتُ تُنْيش
وإن نأيت جعلتُ تُدْيش
وإن تكلمتُ حثتُ في فيش
حتى تنقى كتنقى الدِّيش^(١)

أى تنشيك ، وتدنريك ، وفيك ، والدِّيك .

أما اللهجات العربية الحديثة ، فقد طردت هذا القلب في كل كاف ،

(١) انظر : مجالس ثعلب ١١٦/١ وخزانة الأدب ٥٩٤/٤ وانظر في تفصيل الظاهرة

كتابنا : فصول في فقه العربية ١٤٠ - ١٥٠

عن طريق القياس ، مكسورة كانت هذه الكاف ، أو غير مكسورة ، ففي بلاد نجد تسمعونهم يقولون : « تُسيف حالك ؟ » ، و « على تُسم ؟ » في : « كيف حالك ؟ » و « على كَم ؟ » . كما نسمع عند أصحاب الكشكشة ، وهم كثيرون في جنوبى العراق ، وبلدان الخليج وشمالي أفريقيا : « تُشير » و « تُشَلَب » في : « كبير » و « كلب » وما إلى ذلك .

ومن الملاحظ في التطور اللغوى ، أن الأصوات المزدوجة ، تميل في تطورها بعد ذلك ، إلى أن تتحلل إلى أحد الصوتين المكونين لها ، وقد سبق أن عرفنا ما أصاب صوت الجيم في اللهجات الحديثة ، وانحلاله أحياناً إلى الدال ، وأحياناً إلى شين مجهزة ، ومثل هذا الانحلال قد أصاب الكاف المكشكشة في القديم والحديث ، فقد روى لنا اللغويون العرب ، أن هذه الكاف قد تحوّلت إلى شين ، في نطق أهل اليمن قديماً ، فكانوا يقولون في : « لبيك اللهم لبيك » : « لبيش اللهم لبيش » ، وسموا هذه الظاهرة : « الشَّشنة » ^(١) . وذلك النطق شائع الآن في بعض مناطق الجزيرة العربية ، كمنطقة « عسير » ، التى يقول أهلها مثلاً : « أبوش » و « أمش » ، في « أبوك » و « أمك » ، وما إلى ذلك .

٩ - بلى الألفاظ

من الحقائق المقررة ، عند المحدثين من علماء اللغات ، أن كثرة الاستعمال ، تبلى الألفاظ ، وتجعلها عرضة لقص أطرافها ، تماماً كما تبلى العملات المعدنية والورقية ، التي تتبادلها أيدي البشر ، « والكلمات القصيرة ، كثيراً ما تقاوم الانحرافات ، التي تصيب الكلمات الطويلة باطراد ، أما الكلمات الطويلة ، فعلى العكس من ذلك ، تقدم لنا في بعض الأحيان انحرافات خاصة ناجمة من طولها ، وهذه بوجه خاص هي الحال بالنسبة لكلمات كثيرة الاستعمال ، ومن ثمّ يمكن فهمها قبل النطق بها ، إلى حد أن المتكلم يستطيع أن يعفى نفسه ، من توضيح النطق بها ، مكتفياً بنطقها في صورة مختصرة ، فالبلل الصوق واضح فيها بدرجة خاصة ، وهذه الألفاظ في عمومها ، إما آلات مساعدة في اللغة ، وإما عبارات محفوظة متداولة ، وهي لذلك ليست في حاجة إلى وضوح النطق الذي تقتضيه الرغبة في الإفهام » ^(١) .

ومن الألفاظ التي تعاني هذا القصر ، وذلك البلى ، هي الأدوات التي تدور كثيراً في الكلام ، وكذلك كلمات التحية التي يرددها الناس صباح مساء ، وما شابهها ؛ مثل عبارة : « عَمَّ صباحاً » المتطورة عن : « أنعم صباحاً » ^(٢) ، و « مُ الله » المأخوذة من « آمين الله » . ونحن نقول في مصر مثلاً : « سلخير » بدلاً من : « مساء الخير » ، كما يقول العراقيون : الله بالخير ! ، أي صبحك الله ، أو مساك الله بالخير ، وفي الألمانية الفصحى يقولون في « صباح الخير » : ! guten Morgen وهي مقتطعة من جملة طويلة

(١) اللغة لفندريس ٨٩

(٢) انظر : الإنصاف لابن الأنباري ٣٠٤/٢

في الأصل ، وهي : Ich wünsche dir einen guten Morgen وقد تطورت على
السنة العامة ، منذ عشرات السنين إلى : Morgen وحدها ، ثم صارت أخيراً
في أيامنا هذه إلى : ! Mo فحسب .

وهذه كلمة : « للساعة » بمعنى : « للآن » ، أصبحت في مصر :
« لسه » ، وفي شمالي إفريقيا : « للسه » ، وفي السودان : « للساقى » .
وكذلك كلمة : « حتى » أصبحت في نطق أهل سوريا اليوم : « تا » ، وقد
سمعت بعضهم يقول : « طول روحك تا احكيلك » ^(١) بمعنى « مهلاً حتى
أحكى لك » . وقد روى لنا هذا التطور في كلمة : « حتى » في القديم ،
فهذا هو الجواليقي (المتوفى سنة ٥٣٩ هـ) ، يقول عن عوام عصره :
« ومن كلامهم المحال الغث : جئت تا ألقاك ، يريدون : حتى ألقاك » ^(٢) ،
بل إننا يمكن أن نعود بهذه الظاهرة إلى عصور الاحتجاج في العربية ، في مثل
قول أبي وجزة السعدي :

العاطفون تحين ما من عاطف والمطعمون زمان أين المطعم ^(٣)

أى : حتى حين لا يوجد من يعطف ، وإن كان نخاة العربية قد اختلط
عليهم أمر هذا البيت ^(٤) .

ومثل ذلك ما أصاب : « إمّالا » التي استخدمها العرب في مثل عبارة :
« افعل هذا إمّالا » ، وهي في كلامهم مختصرة من : « افعل هذا إن كنت
لا تفعل غيره » . وقد أصابها تطور آخر في القرن الثالث الهجري ، إذ ضمت

(١) انظر في ذلك أيضاً : Brockelmann, Grundriss II 541 .

(٢) التكملة فيما يلحن فيه العامة ١٤٥

(٣) انظر : لسان العرب (حين) ٢٩١/١٦

(٤) انظر مثلاً : سر صناعة الإعراب ١٨٠/١ والدرر اللوامع ٩٨/١

الهمزة فيها ، وأميلت الألف الأخيرة نحو الياء . وقد ذكر ذلك أبو حاتم السجستاني (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ) فقال : « والعامة تقول أيضاً : أُمَالِي ، فيضمون الألف وهو خطأ أيضاً ، والصواب : إما لا ، غير ممال ، لأن الأدوات لا تمال » ^(١) ، ثم قصت أطرافها في اللهجات الحديثة ، وصارت : « أُمَال » في قولنا مثلاً : « كُلْ أُمَال ! »

وهذه كلمة : « اُحْسَأ » أصبحت في كلامنا : « إخص » ، و « يوسف أفندي » وهي الفاكهة المعروفة ، أصبحت في مصر : « سفندي » ، وفي السعودية : « أفندي » ، وكلمة : « بودى » صارت في كلام المصريين : « بدى » ، وهذا يذكرنا بكلمة : « أبغى » التي صارت في كلام أهل نجد : « أبى » ، وعبرة : « مرحبا بك » التي ينطقها السودانيون : « حَبَابْك » ، وكذلك عبارة : « سمعا وطاعة » التي ينطقها أهل نجد : « سَم » ، وكذلك عبارة : « أى شيء » التي تقابلنا كثيرا في عبارات القدماء ، في صورة : « أيش » ^(٢) ، وقال عنها ابن عبد القوي الحنبلي : « كما قالوا : أيش تقول ؟ »

(١) انظر : لسان العرب (إمالا) ٣٥٨/٢٠

(٢) انظر مثلاً : شرح الشافية للأستراباذى ٧٤/١ وحلية الأولياء ١٤٥/٧ ؛ ١٤٦/٧ ؛ ١٧٠/٨ وما يجوز للشاعر في الضرورة ٣٥٤ وشفاء الغليل ١٥ والاقتضاب ٣٦٥ والمختضب ٣٧/١ والأذكياء لابن الجوزى ١١١ ؛ ١١٢ ؛ ١١٧ ؛ ١٤٣ ؛ ١٥٦ ؛ ١٥٧ ؛ ١٥٨ والمسائل البصريات ٤٢٥/١ والخصائص ٢٤٢/١ ومجالس ثعلب ٢٧٥/١ والمزهر ٢٠٨/١ والإنصاف لابن الأنبارى ٣٠٤/٢ والتكملة للجواليقي ٤٧ وتهذيب اللغة ٢٤/١ ومعجم الأدباء ٣٩٣/١ ؛ ١٣١/٣ والصعقة الغضبية ١٣٨ وإنباه الرواة ١٤٠/١ ؛ ٣٢٥/٢ ونهاية الأرب ٢٢٥/١٠ - ٢٢٦ وتصحيح التصحيف ١٤١ ومعاني القرآن للفراء ٢/١ ؛ ٢٨١/١ ؛ ٣٥٣/٢ والصاهل والشاحح ٦٦٩ ومنامات الوهراني ٨١ ؛ ٨٢ ؛ ٨٤ ؛ ١٦٨ ؛ ١٧٠ ؛ ١٧١ والبدیع لابن المعتز ٤٠ وبغية الوعاة ٣١٥/١ وفي تخریج الدلالات السمعية ٤٣ - ٤٤ كلام كثير عن (أيش) وأنها فاشية في كلام العرب ، فصيحة ، وفيه كذلك ذكر لبعض الأمثلة والأشعار التي وردت فيها الكلمة .

وأصله : أى شيء ؟ ^(١) .

ومن ذلك أيضا كلمة : « العِرْزال » ، بمعنى : المتاع القليل ، التى أصبحت على لسان الناس : « العزال » بمعنى : أثاث البيت ومتاعه ^(٢) .

ومثله قولنا فى الإجابة : « إيوه » ، فهذه مقتطعة من : إى والله ، كما اقتطعت منها : « إلّا » بمعنى : « نعم » فى السعودية ، قال الخفاجى : « إيوه : إى بمعنى نعم ، فى القسَم خاصة ، قال الزمخشري فى الكشف : سمعتم فى التصديق يقولون : إيوه ، فيصلونه بواو القسم ، ولا ينطقون به وحده انتهى . والناس تزيد عليه هاء السكت » ^(٣) .

ومن أمثلة ذلك أيضا قولنا فى مصر مثلا : « بيض برِشت » بمعنى : بيض غير ناضج نضجا كاملا على النار . وأصل الكلمة من الفارسية : « نيمبرِشت » وهو المشوى نصف شئ ، مكونة من (نيم) = نصف + (برشت) المقتضبة من (برشته) = مشوى ^(٤) .

وقد روى لى بعض الزملاء ، أن أحد المدرسين فى مراحل التعليم العام ، كانت من لوازمه الكلامية ، فى شرح الدروس ، عبارة : « شَحْبَالِك » بدلا من : « مش واخذ بالك ؟ » .

وفى كل اللغات أدوات ، وحروف جر ، وحروف وصل ، أصلها فى غالب الأمر كلمات قائمة بنفسها ، تحولت لى آلات نحوية ، وذلك

(١) الصعقة الغضبية ٣٢٩

(٢) انظر : القاموس المحيط (عززل) ١٤/ ٤ وتهذيب الألفاظ العامية ٢٢/٢

(٣) شفاء الغليل للخفاجى ١٨ وانظر كذلك : قاموس العادات لأحمد أمين ٤٣٠

وتهذيب الألفاظ العامية ٧٢/١

(٤) انظر : غرائب اللغة العربية ٢٤٧

« بتحويل الكلمات المليئة إلى كلمات فارغة ، فالأدوات النحوية التي تستعملها اللغات ، ليست إلا بقايا من كلمات مستقلة قديمة ، أفرغت من معناها الحقيقي ، واستعملت مجرد موضحات ، أى مجرد رموز . ونستطيع أن نتبع في كثير من اللغات ، تطور عناصر مختلفة ، من قبيل حروف الجر ، وحروف الوصل ، وأدوات التعريف ... وهى فى كل اللغات إشارات قديمة ، كما أخذ من اسم العدد أداة تنكير ، تعبر عن الوحدة ، فى اللغات الجرمانية والكلتية والإغريقية الحديثة ، وجميع اللغات الرومانية ، واسم الإنسان ، صار فى الفرنسية والجرمانية والكلتية والأرمينية ، أداة نحوية تعبر عن الشائع ؛ ففي الألمانية مثلاً man sagt « يقال » (حرفياً : يقول إنسان) ... والأفعال التى تسمى بالأفعال المساعدة ، كلمات مفرغة أيضاً ؛ ففي الإنجليزية فعل : to do بمعنى : يفعل ، يستعمل أداة نحوية للاستفهام مثل : do you see = هل ترى ؟ وللنفي مثل : I don't see = لا أرى » ^(١) . وكذلك الفعل « عاد » فى العربية ، فقد فرغ من معناه وصار أداة فى مثل : « لم يعد صالحاً للاستعمال » .

ومن الكلمات التى فرغت من معناها الأصلي ، وصارت أداة فى العربية ، وعانت كثيراً من آفة البلى اللفظى ، كلمة : « سوف » . ويظن كثير من الناس أن السين وسوف ، أداتان مختلفتان للدلالة على الاستقبال ، ووضعتا هكذا وضعاً ، منذ أن خلق الله العربية . وقد خدع بذلك نخاة البصرة ، وحكموا المنطق العقلى ، فى أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، فقالوا : إن سوف تدل على الاستقبال البعيد ، والسين تدل على الاستقبال القريب ^(٢) . وليس فى نصوص اللغة ما يشهد لتكلفهم هذا ، فقوله تعالى

(١) اللغة لتدريس ٢١٦

(٢) انظر : معنى اليب لابن هشام ١٣٩/١ والمرتل لابن الخشاب ١٦ - ١٧

مثلاً : ﴿ فسيكفيهم الله ﴾ ، ليس معناه تحقق هذه الكفاية في الغد ، كما أن قوله تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ ، ليس معناه تأخر الإعطاء عاماً أو عامين .

بل إن الحقيقة أن سوف أقدم من السين ، والسين جزء مقتطع منها ، وسوف من الكلمات القديمة في اللغات السامية الأخرى ، كالآرامية فهي فيها : sawpā (صَهْ قُل) وهي اسم معناه فيها : الغاية والنهاية ، ثم أصبح في العربية القديمة أداة تدل على الاستقبال في الأفعال ، ثم بدأت تعانى قصاً لبعض أطرافها ، في الفترة التي سبقت نزول القرآن الكريم ؛ فقد ورد أن العرب قالوا : سَوَّ يكون ، وسَفَّ يكون ، وسَايكون ، وسيكون ^(١) .

وعندما جاء القرآن الكريم ، سجل لنا إحدى صور التطور في (سوف) ، أو قل : المرحلة الأخيرة منه ، مع الأصل الذي كان لا يزال يعيش معه جنباً إلى جنب ، كما روى لنا اللغويون صور التطور الأخرى ، التي لم يكتب لها ما كتب لغيرها من الخلود .

ومن يقف معنا في هذه القضية ، من قدامى النحاة العرب : العلامة ابن مالك صاحب الألفية المشهورة ؛ فقد منع هذا العلامة كون التراخي في (سوف) أكثر ، بأن الماضي والمستقبل متقابلان ، وإذا كان الماضي لا يقصد به إلا مطلق المضى ، فكذلك المستقبل ، ليجرى المتقابلان على

(١) انظر : مجالس ثعلب ٣١٥/١ ومغنى اللبيب ١٣٩/١ وإعراب ثلاثين سورة لابن خالويه ١١٨ ولسان العرب (سوف) ٦٥/١١ والمسألة ٩٢ من الإنصاف لابن الأنباري ، وفي الصاحبي لابن فارس ١٠٩ : « ويختصرون : سوف أفعل ، فيقولون : سأفعل » .
أما ابن يعيش (شرح الملوكي ٤٣٩) فيقول : « وأما (سوف) فحذف الفاء منه بعيد جداً... وذهب بعضهم إلى أن السين في : سيفعل ، محذوفة من (سوف) وهو بعيد ، أبعد من قولهم : (سَوَّ أفعل) لأنه إجحاف » !

سنن واحد ، كما يرى أن دعوى التفاوت بين السين وسوف في مدة الاستقبال مردودة ، لأن العرب عبّرت عن المعنى الواحد الواقع في الوقت الواحد ، بسيفعل ، وسوف يفعل ... يقول ابن مالك :

« وجاء عن العرب : سَفْ أفعل ، وَسَوْ أفعل ، وَسَى أفعل ، وهي أغربهم ، حكاها صاحب المحكم ، واتفقوا على أن أصل : سَفْ ، وَسَوْ ، وَسَى : سوف .

« وزعموا أن السين أصل برأسها ، غير مفرعة عن سوف ، ولكنها منها كتون التوكيد الخفيفة من نون التوكيد الثقيلة ، وهذا عندى تكلف ودعوى مجردة من الدليل ... فقد أجمعنا على أن : سَفْ وَسَوْ وَسَى - عند من أثبتها - فروع سوف ، فلتكن السين أيضا فرعها ، لأن التخصيص دون تخصيص مردود ، ويكون هذا التصرف في سوف بالحذف ، شيها بما فعل بأيمن الله في القسم ، حين قيل : أَيُّمُ الله ، وَأُمُّ الله ، وَمُنُّ الله ، وَمُ الله ، وقريبا من قولهم في حاشا : حاش ، وحشا... وقال بعضهم : لو كانت السين بعض سوف ، لكانت مدة التسويف بهما سواء ، وليس كذلك ، بل هي بسوف أطول ، فكانت كل واحدة منهما أصلا برأسها .

« قلت : وهذه دعوى مردودة بالقياس والسمع ، فالقياس أن الماضي والمستقبل متقابلان ، والماضي لا يقصد به إلا مطلق المضى ، دون تعرض لقرب الزمان وبعده ، ليجرى المتقابلان على سنن واحد ، والقول بتوافق : سيفعل وسوف يفعل ، مصحح لذلك فكان المصير إليه أولى . وهذا قياس .

« وأما السماع ، فإن العرب عبّرت بسيفعل ، وسوف يفعل عن المعنى الواحد الواقع في وقت واحد ، فصح بذلك توافقهما وعدم تخالفهما ؛ فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ﴾ وقوله

تعالى : ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ و ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ . ومنه قول الشاعر :
وما حالة إلا سيُصرف حالها إلى حالة أخرى وسوف تزول
فهذا كله صريح في توافق : سيفعل ، وسوف يفعل ، في الدلالة على
مطلق الاستقبال ، دون تفاوت في قرب وبعد ^(١) .

وهذه لام الاستغاثة ، التي تدخل على المنادى ، في مثل قول مهلهل
ابن ربيعة :

يا لبكر أنشروا لي كليياً يا لبكر أين أين الفرار ^(٢)

وهذه اللام ، بقية من (آل) ^(٣) التي فرغت من معناها ، وقصت أطرافها
على النحو الذي رأيناه في : سوف .

① ومن أمثلة هذه الظاهرة - ظاهرة التفرغ والتحول إلى الأداة والبلى -
في العربية العامية كلمة : « شيء » ، التي بليت ، وصارت على حرف واحد
هو « الشين » ، وفرغت من معناها ، وأصبحت جزءاً من أداة النفي ، إلى
درجة أننا نقول الآن في مصر « ما شُفْتُش شيء » ؛ فقد نُسي أن « الشين »
مختصرة من « شيء » ، وأصبحت لا تعنى في ذهن المتحدث بها إلا النفي ،
ولذلك قد تستخدم معها كلمة : « شيء » مرة أخرى كما في المثال السابق .

وهذه « الحاء » التي تدخل في لهجات الخطاب العامية ، على الفعل
المضارع للدلالة على الاستقبال ، أصلها كلمة : « رائج » من « الرواح » .
وقد فرغت من معناها الأصلي ، وتعاورها البلى ، إذ يقال مثلاً : « رائج أعمل

(١) شرح التسهيل لابن مالك ٢٥/١ - ٢٨ وانظر كذلك : مغنى اللبيب ١٣٩/١

(٢) انظر : كتاب سيبويه ٣١٨/١ وخزانة الأدب ٣٠٠/١

(٣) الموفى في النحو الكوفي ٦٨ والتطور النحوي لبرجشتراسر ٢٩

كذا»^(١) و «راح أعمل كذا» ، «حأعمل كذا» . وكل هذه الصور لا تزال مستعملة في لهجات الخطاب في البلاد العربية ، بل لقد تطورت في لهجة المصريين إلى أبعد من هذا ، فصارت «هأ» توضع في أول المضارع ، وقد ترددت ذات مرة ، قبل أن أصل إلى وجه الصواب ، في قراءة هذه العبارة ، على حائط في القاهرة : «هندخر علشان نبني السّد» !

ولم يعرف الشيخ محمد على الدسوقي أصل الهأ والحاء في مثل هذه التراكيب ، فخلط في ذلك أيما تخليط ، حين قال : «هتفعل كذا : صحيح ؛ لأن الهأ مبدلة من الهمزة . والأصل : أتفعل كذا ؟ قال في القاموس في الكلام على أوجه الهأ : الرابع : المبدلة من همزة الاستفهام . وفي اللسان : ويقولون : هَئِنَّكَ زيد ، معناه : أإنك زيد ، في الاستفهام . ومن قراءة : هألد وأنا عجوز ، أي أألد . وهذه لغة الوجه القبلي . وبعض العامة يبدلها حاء خطأ ، فيقول : حتكتب ؟ وقد يستعملها العامة بمعنى السين ؛ يقولون : حاقوم ، أو هاقوم ، أي سأقوم ، وذلك خطأ ؛ لأنه لم يرد إبدال السين حاء أو هأ في مثل هذا»^(٢) !!

وكذلك تلك «البأ» التي تدخل في المضارع ، للدلالة على الزمن الحالي ، في مثل : «فلان بياكل ويشرب ويلعب» - هذه البأ هي كل ما بقي من الفعل : «بقي»^(٣) . ولم يدرك الشيخ محمد على الدسوقي سر هذه البأ ، فرآها في صورتها الحالية ، مشبهة لبأ الجر ، وقال عن عامة عصره : «لقد فقد العامة أهم قواعد اللغة ، وقوضوا أعظم أركانها ، وهو أنه لا يجوز دخول أي حرف من حروف الجر على الأفعال فعكسوا القضية ، واستباحوا

(١) هذا التعبير قديم في اللهجة العامية ، ففي منامات الوهراني (المتوفى سنة ٥٧٥ هـ)

ص ٣٥ : «وأنا رايح أردّها عليه» .

(٢) تهذيب الألفاظ العامية ١٢/٢

(٣) انظر : G. Kampffmeyer, Die arabische Verbalpartikel b (m)

حمى اللغة العربية » (١) .

ولقد دلنا الدكتور أحمد عيسى ، على أن ما حدث لهذا الفعل : « بقى » من التفرغ والبل ، أمر قديم فى عصور العربية ، فقال : « وهذه الزيادة على فعل المضارع ، قديمة العهد جداً ، فقد قرأت هذا التحريف ، فى كلام أناس من القرن الثالث الهجرى ، وذلك فى كتاب : « درر التيجان وغرر تواريخ الزمان ، لأبى بكر بن عبيد الله بن أبيك ، صاحب صرخد ، من علماء القرن الثامن ، ولكن الكلام منقول فيه عن أناس من القرن الثالث الهجرى » (٢) .

ولقد فطن القراء رحمه الله تعالى ، إلى أن كثرة الاستعمال تبلى الألفاظ ، فقال : ﴿ ولسوف يعطيك ربك ﴾ ... وهى فى قراءة عبد الله : ولسيعطيك ، والمعنى واحد ، إلا أن (سوف) كثرت فى الكلام ، وعرف موضعها ، فترك منها الفاء والواو ، والحرف إذا كثر فرمى فعل به ذلك ، كما قيل : أيش تقول ؟ وكما قيل : قم لباك ، وقم لابشانتك ، يريدون لا أبالك ، ولا أبالشانتك » (٣) .

كما يقول ابن جنى : « هذا اللفظ كثر فى كلامهم وشاع استعماله ، وهم لما كثر فى استعمالهم أشد تغييراً ، كما جاء عنهم لذلك : لم يَكْ ، ولا أَدِرْ ، ولم أُبَلْ ، وأيش تقول ؟ » (٤) .

ويقول فى موضع آخر : « لما كثر استعمالها لها ، تلعبت بها العرب ، كأشياء يكثر تصرفها فيها ، لكثرة نطقها بها » (٥) .

(١) تهذيب الألفاظ العامة ٥٤

(٢) المحكم فى أصول الكلمات العامة ٢١

(٣) معانى القرآن ٢٧٤/٣ وانظر كذلك : الأشباه والنظائر للسيوطى ١١/١

(٤) المحتسب ٣٧/١

(٥) المحتسب ١٧٠/١

١٠ - الفصل الخاطيء

من المعروف عند علماء اللغات ، أن الطفل يسمع اللغة ممن يحيطون به جملاً مترابطة ، ويمضى وقت قبل أن يعزل العناصر المكونة للجمل ، وهى الكلمات والأدوات ، التى تربط بينها ، ويختزن كل واحدة منها فى ذاكرته ، تحت جنس معين .

وقد يحدث أحياناً أن تلتصق بعض هذه الأدوات ، كحروف العطف والجر التى صارت على حرف واحد ، بالكلمات المجاورة لها ، التصاقاً شديداً ، يؤدى إلى التباس الأمر على السامع ، فيظن أن الأداة مع ما دخلت عليه ، كلمة واحدة ، ويستعملها بشكلها الجديد ، الذى صنعه هو بخياله ، وهو بهذا يفصل بين مكونات الجملة بطريقة غير صحيحة ، ويسمى عمله هذا : الفصل الخاطيء (Falsche Trennung) . وقد حدثت هذه الظاهرة لابنتى وهى صغيرة ، فى بدء مراحل التكوين اللغوى عندها ، حين سمعت أخاها يقول : « أنا معاً أربع تقلمة » فقالت : « وأنا عاوزة تقلمة زيّه ! فالذى حدث هنا ، أنها فصلت تاء التأنيث من : « أربعة » ، ووضعتها مع كلمة : « أقلمة » ، وهو الجمع الشائع لكلمة : « قلم » فى العامية المصرية .

ومن أمثلة الفصل الخاطيء ، قول العامة : « عقبال عندكم » ، بدلاً من : « عقى لكم » فقد اقتطع العامة اللام الجارة ، وضموها إلى كلمة : « عقى » ، فصارت : « عقبال » . وقد حدث مثل ذلك فى قول العامة : « فلان جاب كذا » وأصلها : « فلان جاء بكذا » ، فضاعت الهمزة ، واقتطعت الباء الجارة ، وضمت إلى : « جا » ، فصارت « جاب » .

وأغلب الظن أن ذلك قد حدث فى العربية الفصحى فى كلمة : « مأل » ، وأن أصلها مركب من « ما » الموصولة ، واللام الجارة فى مثل :

« مالى » بمعنى : « الذى لى » ، فاقتطعت اللام ، وضمت إلى « ما » فصارت : « مال » ^(١) .

ومثل ذلك تماماً كلمة : « وئِل » فى العربية الفصحى ، فى نحو قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصْلِينَ ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ فأصل هذه الكلمة : (وئى + ل) فى عبارات مثل : وئى لك ، وئى كهُ ، وئى لها ... إلخ ، ثم حدث فصل خاطيء فضمت اللام إلى : « وئِل » بعد أن كانت « وئى » ، وعُدَّت معها كلمة واحدة ، فاستخدمت معها اللام مرة أخرى ، وقد فطن إلى ذلك المفضل بن سلمة ، إذ يقول : « قولهم : وئِلُّه وعَوِّلُهُ ، فَوَيْلُهُ أصلها : وئى وصلت بِلَهُ - ومعنى وئى : حُزْنٌ » ^(٢) .

ومن الأدلة على صحة هذا أيضاً قول العرب : « وئِلْمُهُ » ، بمعنى : « وئى لأُمِّه » . وإن كان ابن الشجرى يدعى أن الأصل هنا : « وئِلْ لأُمِّه » ، ويلتمس لحذف اللام هنا سبباً متكلفاً ، فيقول : « ومما حذفوا منه إحدى اللامين قولهم : وئِلْمُهُ ، الأصل : وئِلْ لأُمِّه ، فحذفوا تنوينه ، وأدغموا اللام التى هى لام الكلمة ، فى اللام الجارة ، فصار التقدير : وئِلْ أُمِّه ، ثم حذفوا اللام المدغمة ، وهمزة أم ، فصار : وئِلْمُهُ » ^(٣) .

والفصل الخاطيء ظاهرة تخضع لها كل اللغات على سواء ، يقول أولمان : « وقد يؤدي الخطأ فى تحليل الكلمات ، إلى نزع صوت من كلمة ، وإضافته إلى كلمة أخرى تجاوزها مباشرة ، وهذا ظاهر فى أداة التنكير فى اللغة الإنجليزية ، حيث تتعرض هذه الأداة بصفة خاصة ، لهذا النوع من

(١) انظر : الفلسفة اللغوية ، لجرجى زيدان ١٠٥

(٢) الفاجر للمفضل بن سلمة ٢٠ وانظر كذلك : الفلسفة اللغوية ١٠٦ والإنصاف

٣٠٤/٢

(٣) أمالى ابن الشجرى ٥/٢

التحليل ، مثال ذلك : an apron (= مئزر) التي تطورت عن a napron وهي في اللغة الفرنسية القديمة : naperon و an auger (= مثقب) التي ترجع إلى : a nauger وفي كل هذه الأمثلة السابقة ، نلاحظ أن الصوت : n في أول الكلمة التالية لأداة التنكير ، قد عومل على أنه جزء من الأداة . وقد حدث العكس في : a nickname (= لقب) التي ترجع إلى : an ekename حيث نجد صوت n في أداة التنكير ، قد أضيف إلى الكلمة التالية لها ^(١) .

★ ★ ★

١١ - سِيَاحَةُ الْأَلْفَاظِ

قد تخرج كلمة من الكلمات من موطنها الأصلي ، فتستعيرها أمة من الأمم ، وعندئذ تتغير هناك جلدتها ، وتلبس ثوب هذه الأمة ، بمعنى أن أصواتها تتبدل ، وبناءها يتحول ، ليتلاءم مع أبنية لغة الأمة التي استعارتها ، ثم تعود بعد فترة من الفترات ، قد تطول وقد تقصر ، إلى موطنها الأصلي في ثوبها الجديد ، فتبدو كما لو كانت كلمة أجنبية ، مع أنها ليست في الحقيقة إلا اللفظة القديمة ، قامت بسياحة عبر حدودها الأصلية ، ثم آبت بعد غياب ، وقد تحول حالها وتبدل شكلها .

ومن الأمثلة على ذلك كلمة : « تفيدة » ، التي لا تزال مستخدمة في الريف المصري ، يسمى بها الفلاحون بناتهم من حين إلى حين ؛ فالأصل في هذه الكلمة هو اللفظ العربي الأصيل : « توحيدة » ، وقد استعاره الأتراك ، وسموا به النساء كذلك ؛ ولأن الأتراك يلفظون الواو فاء ، وليس في نطقهم صوت الحاء ؛ فقد تحولت الكلمة على لسانهم إلى : « تفيدة » . وهكذا سافرت السيدة « توحيدة » إلى استانبول ، وهناك لبست عباءة الأتراك ، وعادت إلينا في هذا الشكل الجديد : « تفيدة » !

ومثل هذا التطواف للكلمات بين اللغات ، نسميه نحن : « سياحة الألفاظ » ؛ لأنه يشبه في نظرنا ما تؤدي إليه سياحة الأفراد ، من تغيير في العادات والتقاليد في كثير من الأحيان .

وقد أطلق الزميل الفاضل الدكتور عبد الصبور شاهين على هذه الظاهرة ، عبارة : « إعادة الاقتراض » ؛ فقال : « في بحث قدمه الأستاذ أنيس المقدسي ، إلى مجمع اللغة العربية ^(١) ، تعرض لتحقيق ألفاظ تسجل

(١) البحوث والمحاضرات ، للدورة التاسعة والعشرين ، لمجمع اللغة العربية .

ظاهرة تسرب العربية في الإنجليزية في العصر الوسيط ، كما تتجلى فيها ظاهرة أخرى ، يمكن أن نطلق عليها : « إعادة الافتراض » ، حيث نجد أن اللفظ العربى الأصل ، قد اقترضته الإنجليزية مثلا ، وصبغته بصبغتها النطقية ، ثم أعادت تصديره إلى العربية ، على غلاف المنتجات الحضارية الجديدة ، فإذا بنا نطقه بملامحه الأجنبية ^(١) .

كما أطلق « ستيفان أولمان » على مثل هذه الظاهرة : « استيراد الصادرات » ؛ فقال : وقد يؤدي التقارض العارض إلى (استيراد الصادرات) ، فالكلمتان : sport = رياضة ، و ticket = بطاقة ، اللتان ترجعان إلى الكلمتين الفرنسيتين : desport و étiquette قد عادتا إلى اللغة الفرنسية مرة أخرى في صورتها الإنجليزية . وقد يحدث عكس هذا أيضا ؛ فالكلمة : bigot = متعصب ، في الإنجليزية ، مأخوذة من الفرنسية ، ولكن من الجائز أن تكون الكلمة الفرنسية نفسها ، مقترضة من أصل إنجليزى قديم جدا ، لعله العبارة القَسَمِيَّة : by God ^(٢) .

ولعل السر في مثل هذه السياحة أن « كلمات الحضارة بوجه خاص ، معرضة للاستعارة ، حيث تُحمل في نفس الوقت مع الشيء الذى تدل عليه ؛ فالشيء يقوم لها مقام المركبة ، التى تحملها في بعض الأحيان إلى آفاق بعيدة ... فيمكننا أن نفترض أن الكلمة إذا ما تجاوزت حدود لغتها ، انفتح أمامها الطريق لطول الطواف ؛ لأنها لم تطلب في الخارج إلا لأنها تدل على شيء جديد ، خاص بالبلد الذى جاءت منه . ومن ثم كان من الطبيعى أن نتوقع رؤيتها في كل مكان يطلب فيه هذا الشيء ^(٣) » .

(١) دراسات لغوية ٢٨٢

(٢) دور الكلمة في اللغة ١٤٩

(٣) اللغة لتقديرس ٢٩١

وقد ضرب لنا « فندريس » بعض الأمثلة لهذه الظاهرة ؛ فقال : « قد تنتقل كلمة من لغتنا إلى الخارج ، وتصير مفقودة بالنسبة لنا ، ثم تعود إلينا بعد قرون ؛ مثال ذلك كلمة : Flirt (مغازلة) ، وكلمة : budget (ميزانية) ، اللتان تعدّان عندنا اليوم مستعارتين من الإنجليزية ، ولكننا نعلم أن فرنسا موطنهما الأصلي ، وأنهما عبرا البوغاز إلى إنجلترا منذ زمن قديم . ومع ذلك فمن غير الحق أن ننظر بعين الجدل إلى ذلك المجاز ، الذى يشبه الكلمات بالمسافرين ، الذين يعبرون الحدود فى اتجاه ما ، ثم يعودون إلى عبورها من جديد فى اتجاه مضاد ؛ ذلك بأن الكلمة التى وفدت علينا من إنجلترا ، ليست هى الكلمة الفرنسية القديمة : Fleurette (زهيرة) ، وإنما جاءتنا كلمة إنجليزية : Flirt (مغازلة) ، أدخلناها فى لغتنا الحديثة . وليست كلمة : bogète (كيس صغير) القديمة ، هى التى استرجعناها فى صيغة : budget (ميزانية) ، وإنما جاءتنا كلمة مخالفة ، كلمة أجنبية ، كلمة تدل فضلا عن ذلك ، على شيء آخر ، غير ما تدل عليه الأولى ^(١) .

ومن أمثلة هذه الظاهرة فى لغتنا العربية كلمة : « مرقت » من أسماء النساء عندنا ، فهى فى الأصل كلمة عربية أصيلة ، هى : « مَرَوَة » ، استخدمها الأتراك فأبدلوا واوها فاء ، ثم عادت إلينا فى ثوبها الجديد .

وقد أخذت الكلمة القديمة : « مروة » تشيع مرة أخرى فى التسمية عندنا . ومن الطريف أن صديقا أعرفه ، سَمَى إحدى بناته : « مرقت » ، وسمى الأخرى : « مروة » ، وهو لا يدري أن الأولى هى الصورة التركية للثانية .

ومثلها كلمة : « سُوْزَان » ، فالأصل فيها هو : « سُوْسَن » ، التى نتجت بسبب انكماش الصوت المركب ، وقانون السهولة والتيسير ، من

الكلمة العربية القديمة : « سَوَسَن ^(١) » ، ولأحد الزملاء زوجة تسمى :
« سَوَسَن » ، وقد سَمَّت طفلتها : « سُوْرَان » ، جريا وراء الحداثة وتقليد
التسميات الغربية ، وهي لا تدري أن الغرب استعار الكلمة من الشرق !
أما كلمة : « كَابُل » ، التي نستخدمها اليوم في عبارات مثل :
« كابلات التليفونات » (في الإنجليزية cable وفي الفرنسية câble وفي الألمانية
kabel) ، فأصلها كلمة عربية هي : « حبل » . ويقول : « ليتان » إن
« اللغات الرومانية القديمة فيها : cable ، وتحول الحاء العربية إلى كاف يدل
عليه كلمة : Alkana بمعنى (الحِثَاء) في الألمانية ، وكلمة : cammalo
بمعنى (الحمَال) في الإيطالية المعاصرة ^(٢) » .

وكذلك كلمة : « أميرال » بمعنى : قائد الأسطول البحري ، هي
مستعارة في العصر الحاضر من الفرنسية : Amiral . والأصل فيها كلمة
عربية قديمة ، أصابها البلى اللفظي على يد الفرنسيين ، وهي : « أمير البحر » ،
كما أصابها التطور بزيادة الميم في الإنجليزية : admiral والألمانية : Admiral .

أما لفظ : « الشَّيْكَ » الذي يتعامل به مع البنوك ، فهو في العصر
الحاضر مستعار من الإنجليزية : cheque أو الفرنسية : chèque ، غير أنه في
هذه اللغات الأوربية ، مستعار من الكلمة العربية : « صَكٌّ » .

وللدكتور طه حسين كلام في استعارة هذه اللفظة ، يقول فيه :
« من خصائص النجاسات اللغوية أن تكون بطيئة ، وأن تكون متمنعة أشد
التمنع ، قبل أن تتخذ قراراً ، فالأناة خير دائماً ، والعجلة من الشيطان .
وأحب أن أذكركم بهذه المناسبة بأن كلمة : (شيك) chèque يقال إن

(١) انظر : درة الغواص للحريري ٧٨ وتصحيح التصحيح ٢٢٣

(٢) انظر : Littmann, Morgenländische Wörter im Deutschen ص ٨٣ ؛ ٩٢

أصلها عربى (صك) ، وقد استعملت كثيرا عند الإنجليز ، واستعملها الفرنسيون أكثر من خمسين عاما ، قبل أن يقرها المجمع اللغوى الفرنسى ، ويوافق على أن توجد فى معجمه ^(١) .

ويقال كذلك إن كلمة : « الكحول » المستعارة فى العربية من اللغات الأوربية (كالإنجليزية alcohol والفرنسية alcool والألمانية Alkohol) ، قد اقترضتها هذه اللغات من قبل من العربية ، وأصلها كلمة : « العَوَل » فى مثل قوله تعالى : ﴿ لا فيها عَوَلٌ ولا هُمْ عنها يُنْزِفُونَ ﴾ ^(٢) .

أما « الترسانة » بمعنى : مستودع الأدوات والذخائر الحربية ، فهى فى الأصل الكلمة العربية : « دار الصناعة » ، وهى دار صناعة السفن ، وقد أخذها الأتراك ونطقوها : tersané ، وغيروا معناها القديم . ونحن نجد الكلمة مع تغييرات صوتية ، فى الإنجليزية : arsenal والألمانية : Arsenal والفرنسية : arsinal وتنص بعض معاجم هذه اللغات على الأصل العربى للكلمة .

وأما « المسكرة » ، بمعنى : المستحضر التجميلى لصبغ الأهداب والحواجب ، فهى مستعارة فى العصر الحاضر من الإنجليزية : mascara . وأصلها الكلمة العربية : « مسخرة » . و « المسخرة وجمعها مساخر : ما يجلب السبخية ^(٣) » . والكلمة فى الألمانية هى : Maskerade وقد انتقلت الكلمة من العربية إلى الإيطالية ، حوالى سنة ١٦٠٠ م ، ومنها إلى الألمانية ، والفرنسية : mascarade كذلك ^(٤) .

(١) مؤتمر الدورة الثلاثين لجمع اللغة العربية بالقاهرة ص ٥٦

(٢) الصافات ٤٧/٣٧

(٣) انظر : ألفاظ عامية فصيحة ، للدكتور داود التنير ٢٣٢

(٤) انظر : Der Sprach-Brockhaus ص ٤٢٦

وهذه كلمة : « أرابسك » ، بمعنى : « الحلية التي توجد على الأبنية من أغصان النباتات وأوراقها ، والخط العربي » أخذناها من الإنجليزية والفرنسية : arabesque وهي بهذا النطق في الألمانية : Arabeske . وهي في الأصل كلمة : « عربى » ، دخلت إيطاليا أولاً ، ثم فرنسا ، ثم ألمانيا ^(١) .

وربما أمكننا أن نعد من هذه الألفاظ ، كلمة : (كَافَا) (كيفا) kīfā الآرامية ، التي تعنى : « الحَجَر » ، وإن لم تنطبق حالتها على ما نحن فيه تماماً ؛ فقد سُمِّي بهذه اللفظة أحد حَوَارِيّى المسيح عليه السلام ، وورد اسمه في الأناجيل بهذه التسمية ، كما فى نحو : (كُفَسْ كَافَا) « فقال له : كيفا » ^(٢) .

وإذا كانت الأعلام لا تترجم ، وإنما تنقل إلى أية لغة كما هى ، مع شيء من التوافق اللغوى ، مع أصوات اللغة الناقلة وأبنيته ، فإن الإغريق وقعوا فى خطأ ترجمة هذا العلم ، وهم يقومون بنقل الأناجيل من الآرامية إلى لغتهم ، فتحول الاسم فى الإغريقية إلى : Petrus (بطرس) ومعناه : « الحَجَر » ، ثم ترجمت الأناجيل من الإغريقية إلى اللغات المختلفة ، وفيها اسم هذا الحواريّ : « بطرس » ^(٣) .

وهكذا يسافر « كيفا » من الجليل إلى اليونان ، ويتحول بالترجمة لمعناه إلى « بطرس » ، ويسبح فى الأرض ، تحت هذا الاسم الجديد : Petrus أو بعض صوره التى ظهر بها فى بلاد العالم المختلفة ، كما فى الألمانية : Peter والفرنسية : Pierre .

وهناك ألفاظ أخرى كثيرة ، نراها وقد تبدلت أصواتها وتغيّرت أبنيته

(١) Littmann, Morgenländische Wörter im Deutschen ص ١٠٠

(٢) إنجيل مرقس ٢٩/١٤

(٣) انظر مثلاً : الترجمة العربية للموضع السابق : مرقس ٢٩/١٤

في سياحتها بين الأمم ، وتقلبها بين أنواع من النظم اللغوية ، التي تختلف عن النظام التي كانت تخضع له .

فالكلمة العبرية (יַעֲקֹב) ya'ākōb وهي في الأصل فعل مضارع بمعنى : « يتبع » ، وقد سمي به نبي الله « يعقوب » عليه السلام - كتبها الألمان : Jakob لأن حرف (J) ينطق عندهم (ياء) ، ولكن الاسم تحول في نطق الإنجليزية إلى : « چاكوب » ، ويختصر أحيانا إلى : « چاك » . واللفظتان معروفتان تماما عند العرب .

ومثل ذلك أيضا الكلمة العبرية (יִשְׁחָק) yishhāk وهي في الأصل فعل مضارع بمعنى : « يضحك » ، وقد سمي به نبي الله « إسحاق » عليه السلام . وهذا الاسم ينطقه يهود ألمانيا منذ زمن بعيد بالصوت المزدوج : « ثس » ، وهم يكتبونه بحرف (Z) على طريقة كتابة لغتهم ، ولكن غير الألمان ينطقون هذا الحرف زايا ، ومن هنا جاءنا الاسم في صورة : « إيزاك » !

وهذا الطريق نفسه هو الذي سار فيه اسم العلم (סִיּוֹן) Siyyōn « صهيون » ، التي كتبها يهود ألمانيا بحرف (Z) ؛ لأنهم ينطقون الصاد - كما عرفنا - صوتا مزدوجا (تس) ، ولكن غير الألمان نطقوا هذه الكلمة بالزاي . ومن هنا تدرك كيف تحول : « بن صهيون » إلى الاسم المعروف : « بنزايون » صاحب المحلات المشهورة !

ومثل هذا يمكن أن يقال عن كلمة : « يوسف » ، التي تنطق في بعض اللغات : « جوزيف » ، و « شمعون » التي تحولت بالسياحة اللفظية إلى : « سيمون » ، و « شمشون » التي صارت : « سمسون » ، و « راحيل » التي نطقها يهود أوربا : « راشيل » . وغير ذلك كثير كثير !

١٢ - شاهد الحال

هناك مجموعة من الألفاظ والتعبيرات اللغوية في العربية ، يبدو لمن لا يعرف السبب في منشئها ، أو الحادثة التاريخية التي أفرزتها ، أنها بمعناها الذي تستخدم فيه عادة ، منقطعة الصلة بالأصل الاشتقاقي الذي أخذت منه .

غير أننا إذا عرفنا الحادثة الاجتماعية أو التاريخية التي تفسرها ، والحال التي قيلت فيها ، اتضح مذهب اشتقاقها ، وبان وجه إطلاقها على المعنى الذي تدل عليه .

وقد وقعت في الحيرة أول الأمر ، في اختيار المصطلح المناسب ، الذي يمكن أن يطلق على هذه المجموعة من الألفاظ والتعبيرات . وتقلب بين مصطلحات : « الحدث التاريخي » و « الدلالة التاريخية » و « الأصل التاريخي » و « التفسير التاريخي » و « سياق الحال » Context of Situation . وذكرني هذا المصطلح الأخير ، بإطلاق ابن جنى عبارة : « شاهد الحال » على شيء قريب مما نحن فيه ، فرأيت فيه مصطلحا عربيا قديما أولى بالرعاية والإحياء .

يقول ابن جنى : « الاعتقاد يخفى ، فلا يعرف إلا بالقول ، أو بما يقوم مقام القول من شاهد الحال ^(١) » .

وقد شرح ابن جنى هذا الموضوع شرحا قريبا مما نحن فيه ، فقال : « وقد يمكن أن تكون أسباب التسمية تخفى علينا ، لبعدها الزمان عنا ، ألا ترى إلى قول سيويه ^(٢) ، أو لعل الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر .

(١) الخصائص ١٩/١

(٢) كتاب سيويه ٢٦٨/١

يعنى أن يكون الأول الحاضر شاهد الحال ، فعرف السبب الذى له ، ومن أجله ما وقعت عليه التسمية ، والآخر - لبعده عن الحال - لم يعرف السبب للتسمية ، ألا ترى إلى قولهم للإنسان ، إذا رفع صوته : (قد رفع عقيرته) ، فلو ذهبت تشتق هذا ، بأن تجمع بين معنى الصوت ، وبين معنى : (ع ق ر) ، لَبُعْدَ عَنْكَ وَتَعَبَسْتُ . وأصله أن رجلا قطعت إحدى رجليه ، فرفعها ووضعها على الأخرى ، ثم صرخ بأرفع صوته ، فقال الناس : رفع عقيرته ^(١) .

وقد أطلق ابن جنى على شيء من مثل ما نحن فيه ، مصطلح : « الأحوال المشاهدة » ؛ فقال : ومن ذلك ما أقيم من الأحوال المشاهدة مقام الأفعال الناصبة ، نحو قولك إذا رأيت قادما : خَيْرَ مَقْدَمٍ ، فنابت الحال المشاهدة مناب الفعل الناصب ^(٢) .

ويفظن ابن جنى إلى السبب فى غموض بعض الألفاظ والعبارات ، فى الحكايات والأخبار التى لم يقرن بها شرح للأحوال التى تفسرها ؛ فيقول : « ألا ترى إلى قوله :

تَقُولُ وَصَكَّتْ وَجْهَهَا يَمِينَهَا أَبْعَلَى هَذَا بِالرَّحَى الْمُتَقَاعِسُ

فلو قال حاكيا عنها : (أبعلى هذا بالرحى المتقاعس) ، من غير أن يذكر صك الوجه ، لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرا ، لكنه لما حكى الحال فقال : (وصكَّت وجهها) ، عُلِمَ بذلك قُوَّةُ إنكارها ، وتعاضم الصورة لها . هذا مع أنك سامع لحكاية الحال غير شاهد لها ، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف ، ولِعَظِمَ الحال فى نفس تلك المرأة أبين ... وليست كل

(١) الخصائص ٦٦/١ ؛ ٢٤٨/١

(٢) الخصائص ٢٦٤/١

حكاية تروى لنا ، ولا كل خبر ينقل إلينا ، يُشفع به شرح الأحوال التابعة له ، المقترنة كانت به ^(١) .

ويسمى ابن السراج الأحداث الاجتماعية والتاريخية ، التي تفسر بعض الألفاظ والعبارات اللغوية ، بالأخبار ؛ فيقول : « يعرض لأهل اللغة الواحدة أن يسموا ويصفوا أشياء بأسباب ، وتكون لها أخبار ، فيجوز أن تبلغنا ، ويجوز ألا تبلغنا ، فتكون كالأمثال التي لا تعرف أسبابها كلها » ^(٢) .

ويحذر ابن السراج من اللجوء إلى تعسف الاشتقاق ، فيما لم تبلغنا أخباره والظروف التي أحاطت به عندما استعمل أول مرة ، من الألفاظ والعبارات في دلالات خاصة ؛ فيقول : « وقد كان أحد الحدّاق بالنحو ^(٣) ، يذكر أنه ليس في لغة العرب لفظتان تتفقان في الأصول ، إلا معنى يجمعهما ، ويتعسف في ذلك غاية التعسف ، فسألته فقلت له : أخبرني عن قولهم : (رفع عقيرته) إذا رفع صوته بالغناء ، أليس قد جاء الخير بأن أصله أن رجلا عُقِرَ رِجْلُهُ ، فكان ينوح عليها ، فقبل بعد ذلك لمن رفع صوته مترنما : قد رفع عقيرته ؟ فقال : بلى . قلت : فلو لم يبلغنا الخير ، هل كان يجوز أن تشتق للعقيرة معنى من الصوت ؟ قال : لا . فقلت له : فما تنكر أن تحيىء ألفاظ استعملت بقصص لم تبلغنا ، فلا يجوز أن يُعرف اشتقاقها ؟ فقال : ما أدفع ذلك ^(٤) . »

وفي هذه العبارة اللغوية ، يظهر لنا كيف انتقلت دلالة « العقيرة » من الرُّجُل المعقورة ، إلى معنى « الصوت » . وقد جمع صاحب لسان

(١) الخصائص ٢٤٥/١ - ٢٤٦

(٢) الاشتقاق لابن السراج ٣٣

(٣) هو أبو إسحاق الزجاج ، كما في الخصائص ٦٦/١

(٤) الاشتقاق لابن السراج ٣٣ - ٣٤

العرب آراء اللغويين المختلفة حول الانتقال الدلالي لهذه العبارة ، وحدود هذا الانتقال ، فقال : « وعقيرة الرجل : صوته ، إذا غنى ، أو قرأ ، أو بكى . وقيل : أصله أن رجلاً عُقِرَتْ رِجْلُهُ ، فوضع العقيرة على الصحيحة ، وبكى عليها بأعلى صوته ، فقيل : رفع عقيرته ، ثم كثر ذلك حتى صيّر الصوت بالغناء عقيرة . قال الجوهري : قيل لكل من رفع صوته عقيرة ، ولم يقيد بالغناء . قال : والعقيرة : الساق المقطوعة . قال الأزهرى : وقيل فيه : هو رجل أصيب عضو من أعضائه ، وله إبل اعتادت حُداءه ، فانتشرت عليه إبله ، فرفع صوته بالأنين لما أصابه من العقر فى بدنه ، فتسمعت إبله ، فحسبته يحدو بها ، فاجتمعت إليه . فقيل لكل من رفع صوته بالغناء : قد رفع عقيرته ^(١) » .

هذا ، وقد أدّى عدم إدراك الحدث التاريخي ، وشاهد الحال فى هذا القول ، إلى ظن بعض المثقفين أن العقيرة هى : الخنجرة ، كما حدث لواحد من أعلام الصحافة المصرية ، وهو موسى صبرى ، الذى كتبت ذات يوم يقول : « هذا الوزير الأنيق الرشيق ، هو الذى يفتح اليوم عقيرته ليل نهار ، تهجما على مصر ، وعلى صحافة مصر ، وعلى شعب مصر ^(٢) » .

والمثال التالى يوضح لنا أهمية معرفة الحدث التاريخي ، الذى ينتج دلالة معينة لكلمة من الكلمات ؛ إذ قد يؤدى الجهل بذلك إلى الحُدْس والتخمين ، والضرب فى بيداء مقفرة من الظنون والأوهام .

(١) لسان العرب (عقر) ٢٧٠/٦ وانظر : الصحاح (عقر) ٧٥٤/٢ وتهذيب اللغة ٢٢٠/١ وغريب الحديث لابن قتيبة ٣٧٣/٢ والزاهر ٥٨/٢ والنهاية لابن الأثير ٢٧٥/٣

(٢) مقال بعنوان : الديمقراطية الغربية والشيوعيون ، بصحيفة الأخبار ، فى يوم الخميس الموافق ١٩٧٨/٦/٢٢ م .

فكلمة : « التقاوى » مثلا ، وهى كلمة مستعملة عند الفلاحين فى مصر ، بمعنى : « البذور » التى تزرع فى الأرض ، يرى الدكتور أحمد عيسى أنها من « التقاوى بين الشركاء : أن يشتروا سلعة رخيصة ، ثم يتزايدون بينهم حتى يبلغوا غاية ثمنها ، فاستعارها العامة للبذور التى تذر فى الأرض ، لتنت مثلها أضعافا مضاعفة (١) » .

وفى الحقيقة لا توجد مناسبة بين المعنيين . ومن معرفتنا للحدث التاريخي ، يتضح لنا أن الكلمة جمع لكلمة : « تقوية » ، وأن « البذور » كانت تصرف للفلاحين من قبل السلطان ، تقوية لهم على الزراعة ؛ فسميت البذور : « تقوية » وجمعها : « تقاوى » .

وقد عثرت على ما يؤيد هذا فى كتاب : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، للمقدسى أحد علماء القرن الرابع الهجرى ، الذى يقول فى حديثه عن دخل إقليم مصر : « يعمد الفلاح إلى الأرض ، فيأخذها من السلطان ويزرعها ، فإذا حصد ودرس وجمع ، رُشمت بالعرام وترك . ثم يخرج الخازن وأمين السلطان ، فيقطعون كرى الأرض ، ويعطى ما بقى للفلاح . قال : وفيهم من يأخذ من السلطان تقوية ، فيزاد عليه فى كرى الأرض بمقدار ما اقتطعه (٢) » .

فكلمة : « التقاوى » بهذا المعنى المستعمل اليوم قديمة (٣) ، لا كما يظن الشيخ إبراهيم حمروش ، من أنها ترجع إلى عهد محمد على باشا ، فيما روى عنه الشيخ محمد على النجار فى قوله (٤) : « تطلق كلمة : التقاوى ،

(١) المحكم فى أصول الكلمات العامة ٤٨

(٢) أحسن التقاسيم ، للمقدسى ٢١٢

(٣) وردت كذلك فى كتاب : حوادث الدهور ١/٢٧٤ فى قوله : « واتسعت

الأراضى بالرى ، واحتاجت الفلاحون إلى التقاوى ، لزراعة الأرض » .

(٤) لغويات ، لمحمد على النجار ٨٥

في لسان عامة المصريين على البنور تبذر للزرع ، ولا تراهم ينطقون لها بواحد ، فما سمعنا لها منهم مفردا . وقد حرصت منذ دهر على أن أقف على حقيقة هذه الكلمة ومأثاتها اللغوية ، فلم يبد لي فيما وقفت عليه من المعاجم شيء يشفي الغلة وينقع الصدى ؛ ففي المعاجم أن التقاوى مصدر تقاوى الشريكان ، إذا تزايدوا في الشركة بينهما ، وذلك أن يكون بين الرجلين دار مثلا ، فيقومأها ليشتري أحدهما نصيب الآخر . ومناسبة هذا لما عرف في هذه الأيام لا تكاد تبين .

« وقد جرى عَرَضاً في بعض حديث أستاذنا الحجة الثقة الشيخ إبراهيم حمروش ذكر التقاوى ، فذكر أن هذا الاستعمال يرجع إلى عهد رأس الأسرة العلوية التي كانت تحكم مصر ، وهو محمد علي الكبير ؛ ذلك أنه كان يُعْطَى الفلاحون من أهراء السلطان ومخازن الولاية ، ما يعينهم على الزرع من البنود . وكان ذلك يخرج من الديوان ، ويكتب في كتب الأعطية : يعطى فلان كذا كيلجة أو إردبا تقوية له . فلما كثر قرن عطاء البذر بالتقوية ، وكان بينهما هذا التحالف ، غلبت التقوية على البذر وعرفت فيه . فكان إذا قيل : أخذت التقوية ، فإنما يعني أخذ البذر . وجمع التقوية على التقاوى ، وغلب هذا اللفظ : « التقاوى » على البنود ، ما قل منها وما كثر .

« على أني رأيت في خطط المقرئ : (التقاوى) بهذا المعنى ؛ ففيه في الكلام على رباط الآثار : حتى احتاج إلى إحضار تقاوى الناحية المرصدة بها للتخصير » .

وقد وردت كلمة : « التقاوى » كذلك في كلام لعبد اللطيف البغدادي ^(١) (المتوفى سنة ٦٢٩ هـ) قال فيه عن مجاعة أصابت مصر سنة ٥٩٧ هـ : « وكثير مما روى يبور لعجز أهله عن تقاويه والقيام عليه » .

ويضرب « أولمان » مثالا مشابها ؛ فيقول : كيف اكتسبت الكلمة :
Collation أى : الموازنة والمراجعة التفصيلية ، مثلا ، معنى : الأكلة الخفيفة ؟
من البديهي أنه ليست هناك مشابهة بين المعنيين ، بل إن احتمال وجود أية
صلة بينهما ، احتمال يبدو بعيداً أول الأمر . ولكن التاريخ يمدّنا بما يفسر
هذه الحالة . لقد كانت العادة فى بعض الأديرة ، أن يتناول الرهبان طعاما
خفيفا ، بعد فراغهم من قراءة سير الرّؤاد الأوائل من رجال الدين ، ومراجعة
هذه السير ، فكان هذا الارتباط العرضى ، كافيا لأن ينحرف بالكلمة ،
ويقودها إلى هذا التطور فى المعنى ^(١) .

وهذه كلمة : « القرافة » التى ذكرها الوهرانى (المتوفى سنة ٥٧٥ هـ)
فقال : « خرجت ليلة الجمعة إلى القرافة من درب الصفا ^(٢) » ، كما قال فى
موضع آخر : « انقطاع ابن الصابونى إلى الله عز وجل فى القرافة ^(٣) » -
هذه الكلمة تعنى فى هذين النصين ^(٤) مجموعة المقابر ، كما نستعملها فى
الوقت الحاضر تماما .

ولولا معرفتنا بتاريخ إطلاق هذه الكلمة على معناها الحالى ، لغمض
علينا أصل هذا المعنى . وربما ربطها بعض الاشتقاقيين بالقرف ، بمعنى :
القدر والوسخ ، فى العامية . وهى فى الأصل للقرحة إذا يبست وتقرشت ^(٥) .

(١) دور الكلمة فى اللغة ١٧٤

(٢) منامات الوهرانى ٨٦

(٣) منامات الوهرانى ٢٣٢

(٤) انظر نصوصا أخرى فى « القرافة » فى تاريخ مصر للمسيحى ١٤ : ١٥ : ٥٢ ؛

٥٨ : ٥٣

(٥) الصحاح (قشر) ١٤١٥/٤

ولكن التاريخ حفظ لنا التفسير الصحيح لدلالة هذه الكلمة على معناها ؛ يقول شهاب الدين الخفاجي : « قرافة : بطن من معافر ، عرفوا باسم أبيهم ، نزلوا محلة بمصر فعرفت بهم ، وهي الآن مقبرة . قاله ابن هشام في تذكرته ^(١) » .

ويبدو أن هذه الكلمة ظلت تطلق على مقبرة معينة بمصر ، حتى أوائل القرن التاسع الهجري ، فقد قال الفيروزابادي (المتوفى سنة ٨١٧ هـ) : « قرافة : بطن من معافر ، ومقبرة بمصر بها قبر الشافعي رحمه الله تعالى ^(٢) » .

وتعميم دلالة الكلمة على كل مقبرة في عصرنا الحاضر ، أمر يرفضه الشيخ محمد علي الدسوقي ، الذي يقول : « القرافة عَلَمٌ على مقبرة الإمام الشافعي ، فاستعمالها في غيرها خطأ » ^(٣) .

ولكن الكلمة دخلت إلى المعجم الوسيط ، بمعناها العام الذي يستخدمه الناس في مصر اليوم ؛ ففيه : « القرافة : المقبرة . وهو اسم قبيلة يمنية حاورت المقابر بمصر ، فغلب اسمها على كل مقبرة ^(٤) » .

★ ★ ★

وكلمة : « حرامي » التي وردت عند الوهراني في قوله : « حرامية الفرنج ^(٥) » ، كما ذكرها سبط ابن الجوزي في قوله : « قد طلع علينا

(١) شفاء الغليل ٢١٥ وعنه في تهذيب الألفاظ العامية ٩٧/٢

(٢) القاموس المحيط (قرف) ١٧٩/٣

(٣) تهذيب الألفاظ العامية ٩٧/٢

(٤) المعجم الوسيط ٧٢٩/٢

(٥) منامات الوهراني ٢٣

حرامية^(١) » بصيغة الجمع : « حرامية » معناها : لصوص ، كما نستعملها في العصر الحاضر تماما .

ولولا معرفتنا بتاريخ إطلاق هذه الكلمة على معناها الحالي ، لغمض علينا أصل هذا المعنى ، وربما ربطها بعض الاشتقاقيين بالحرام الذى هو ضد الحلال ، كما فعل الدكتور أحمد عيسى الذى يقول : « الحرام نقيض الحلال ، والحرام ما حرم الله ، والنسب إليه حرامى ، فهو الذى يأتى بما حرم الله من قتل وسلب ونهب وإضرار ^(٢) » .

ولكن التاريخ حفظ لنا القصة ، التى تفسر دلالة هذه الكلمة على اللصوص ؛ يقول أحمد أمين : « كان فى كل بلدة تقريبا فى المدن أو القرى طائفتان : طائفة تنتسب إلى سعد ، وطائفة تنتسب إلى حرام ؛ فهذا سعدى أى منتسب إلى سعد ، وهذا حرامى ، أى ينتسب إلى حرام . ويظهر أن سعدا انتصرت على حرام ، فتدلى حرام حتى كان من نسبه لصوص ، وسمى اللص حراميا ^(٣) » .

كما يقول محمود تيمور : « وفى الباحثين من يقرأ أصل الكلمة بأقرب ما توحى إليه ، وأظهر ما ترجع إليه ، فيخطئ فى هذا التسهيل خطأ المبعد فى التصعيب . ومن أمثلة ذلك : فهم كلمة : (الحرامى) بمعنى اللص ، على نسبة إلى الحرام ، مع أن الكلمة من بقايا حقيقة تاريخية فى عصر بعيد ، تلك هى أن قبيلة بنى حرام ، كانت تنهم بالخبث والتلصص ، فقليل فى كل

(١) ذيل مرآة الزمان ، فى حوادث سنة ٦٧٢ هـ

(٢) المحكم فى أصول الكلمات العامة ٦٢

(٣) قاموس العادات والتقاليد ١٦١

من يستحققر ويسرق : هو حرامى ^(١) .

ومن أطباق الحلوى الشهيرة بمصر طبق « أم على » ، وهو عبارة عن رفاق باللبن والسكر والمكسرات ، يؤكل ساخن بعد أن يخرج من الفرن مباشرة .

وقد حكى الأستاذ أنيس منصور فى عموده اليومى : « مواقف » بصحيفة الأهرام فى ١٧/٥/١٩٨٩ م ، قصة إطلاق « أم على » على هذا الطبق ، فقال : « كان العشاء على مائدة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان ، عندما طلب منى الرئيس حسنى مبارك ، أن أتحدث عن خلفية تاريخية لأم على ، ذلك الطعام المصرى اللذيذ . فأمر على هذه هى الزوجة الأولى للسلطان عز الدين أيبك التركمانى ^(٢) . وشجرة الدر اسمها : أم خليل ، وكانت شخصية قوية ، وهى عندما طلبت من زوجها أن يطلق (أم على) وعدها بذلك ، ولكن فوجئت به يستعد للزواج من واحدة ثالثة ، فطلبت من خادوماتها أن يهجمن عليه فى الحمام ، وأن يقتلنه بالقباقيب ، واستطاعت أم على أن تنتقم من شجرة الدر ، وأن تقضى عليها بالقباقيب أيضا ، وألقوا جثتها عارية بالقرب من القلعة عدة أيام . واحتفلت أم على بهذه المناسبة ، فقدمت للفقراء ألوف الأطباق من اللبن والسكر والخبز . أما طبق أم على نفسها ، فكان مختلفا قليلا ، فقد دفعها الانتقام الشديد ، إلى أن قطعت حلمتى نُدْبَى شجرة الدر ، ووضعتهما فى طبقها وأكلته . واعتاد الناس بعد ذلك أن يضيفوا الزبيب والجوز واللوز إلى هذا الطبق اللذيذ !

(١) العامية الفصحى لمحمود تيمور ، بحث بمجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة

١٣٥/١٣ وانظر : معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة ، للعدنانى ١٥٠

(٢) فى الأصل : « للصالح نجم الدين أيوب » ، وهو سهو .

وقد اكتفى أحمد أمين بوصف طبق أم على ، دون أن يعرج على التفسير التاريخي ، لتسميته بهذا الاسم ؛ فقال : « أم على : طعام لذيق مشهور ، يصنع من الرقاق الرفيع واللبن والسمن ، فإذا فردت راقات منه ، وضع في منتصف الصينية جوز ولوز وزبيب وبندق مكسر ، ثم أكملت الصينية مع إضافة اللبن والسمن أيضا ، ثم تدخل في الفرن ، فتكون أكلة لذيفة ^(١) » .

وكلمة : « الجُرْسَة » بمعنى : الفضيحة ، يوضح أصل معناها الحدث التاريخي ، الذي نشأت في سياقه ؛ فقد درج الحكام في مصر منذ أيام الفاطميين ، أن يؤدبوا المخالفين للحكم ، ومرتكبي الجرائم والسفالات ، بضربهم بالسياط ، والطواف بهم على جمل في الشوارع والطرقات ، والتشهير بهم بدق جرس أمامهم ، والنداء على فعلتهم الذميمة ، حتى يتعظ الخلق ؛ يقول المسيحي : « وفي يوم السبت ، لثلاث خلون من شهر رمضان ، ضرب إنسان بالسياط ، وحُمل على جمل ، وطيف به في البلد ، وفي يده جرسان يُجرَس على نفسه ، ويصيح بلاء صوته ؛ هذا جزاء من يسرق في اليوم دفعتين . وذكر أنه كان مُجرَّساً يجرس على المحبسين ^(٢) » .

كما يقول شهاب الدين الخفاجي : « جَرَسَه : إذا شَهَّرَه . وأصله أن من يُشَهَّر ، يجعل في عنقه جرس ، ويركب على دابة مقلوبا ، أي وَجْهُه من جهه ذَنبها ^(٣) » .

(١) قاموس العادات والتقاليد ٧١

(٢) تاريخ مصر للمسيحي ٦٢ حوادث سنة ٤١٥ هـ

(٣) شفاء الغليل ٦٧ وانظر كذلك : قاموس العادات والتقاليد ١٣٦

أما التعبير الذى يتردد على ألسنة بعض الممثلين المصريين فى المسرحيات والتمثيليات ، وهو تعبير : « والله أَقْلَبُهَا دَنْدَرَةً ! » بمعنى : الوعيد بالتخريب الشامل لكل شيء ، فوراءه قصة دامية ، وفجيرة مؤلمة ، وحادثة مروعة ، لباحرة نيلية قديمة ، اسمها : « دَنْدَرَةٌ » ، غرقت فى النيل يوم الجمعة ١٩٥٩/٥/٨ م ، وراح ضحيتها أكثر من مائة شخص ، غرق معظمهم ، لا لأنهم كانوا لا يعرفون السباحة ، ولكن لأنهم وجدوا أنفسهم فجأة وسط بقعة كبيرة من الزيت المغلى ، الذى انتشر بسرعة على سطح النيل ، بعد أن تحطم خزان الوقود والزيت فى الباحرة المهالكة ، التى مالت وجنحت ، ثم هوت إلى قاع النيل ^(١) .

وهذا شيء مما نشر فى مجلة المصور بتاريخ ١٩٥٩/٥/١٥ م ، عن هذه الحادثة المشؤمة ؛ لكى تقف الأجيال القادمة على التفسير التاريخى لعبارة : « أَقْلَبُهَا دَنْدَرَةً » ، التى سوف تطالعهم فى أدب عصرنا ، وقد تنتقل إليهم حية على الألسنة ، عبر مئات السنين :

« خرجت الباحرة النيلية دندرة ، التابعة لوزارة الأشغال ، من ميناء روض الفرج ، وعليها نحو ٣٠٠ من أعضاء نقابة المهن الزراعية ، وزوجاتهم وأبنائهم وأصدقائهم ، مولية وجهها شطر القناطر الخيرية ، ممتية من عليها بيوم ضاحك مشرق . وقبل أن تصل إلى غايتها بنحو ثلاثة كيلومترات ، بدأ شبح الخطر يراودها ، فقفز خمسون من راكبيها إلى اللنش الذى كان يقطرها ، فلابدوا بالنجاة . وبعد لحظات معدودات تجسم الخطر ، وألقى ربانها

(١) انظر : مجلة المصور بتاريخ ١٩٥٩/٥/١٥ م ، والأهرام بتاريخ ١٩٥٩/٥/٢٢ م ، ومجلة الجيل بتاريخ ١٩٥٩/٥/٢٥ م ، والجمهورية بتاريخ ١٩٥٩/٦/١٥ م . وأنا مدين بتجميع ما نشر فى هذه الصحف والمجلات عن الحادثة ، إلى تلميذى النجيب يسرى عبد العال ، حفظه الله .

مراسيه يحاول الوصول بها إلى الشاطئ ، ولكنها مالت قبل أن تصل إلى الشاطئ بخطوات معدودة ، وبدأت تغترف الماء ، وبدأ الماء يغير عليها بشراسة ، فألقى خمسون آخر بأنفسهم في اليم يطلبون الحياة . وفي لحظة مشئومة ، جنحت دندرة ، ثم هوت بمن عليها إلى القاع ، وحاول بعض من على ظهرها أن يلوذوا بالنجاة ، فراحوا يضربون الماء ، ويصارعون الموت ، وقلوبهم هلعة على من خلفوهم وراءهم ، وأيديهم ووجوههم تحترق من أثر الزيت الملتهب ، الذي غمر صفحة النهر القاسي . أما الباقون وهم نحو مائة ، فقد استسلموا لمشيئة الله ، واستقرت أجسادهم في جوف النيل .

ومن التعبيرات الشائعة ، التي تجرى على ألسنة أولاد البلد ، في الافتخار بذكائهم وفطنتهم ، وأنهم ممن لا تنطلي عليهم الحيل : « إنت فاكرنى كاورك ؟ » ، أو « هُوَ أنا داقق عصافير ؟ » . والسبب في إطلاق هذين التعبيرين على الأغبياء والسُّدَج ، ذلك الوشم المعروف لدى الناس ، برسم طائر على الجبينين ، من عن يمين الجبهة وشمالها ، ولم يكن يتحلى به سوى عوام الناس والسُّدَج منهم .

أما كلمة : « كاورك » فقد كانت ماركة تطلق على نوع من السجائر ، ذات العلب التي كانت تتميز بطائر مرسوم على غطائها ، فأصبح هذا الطائر رمزا لهذا النوع من السجائر ، كما أصبحت كلمة : « كاورك » مقترنة في أذهان الناس برسم هذا الطائر الذي يشبه طائر الوشم .

وأما التعبير المعروف : « فَتَحَ عينك تاكل مَلْن » ، الذي يقال للحث على الحرص والתיقظ ، فإن منشأه فيما يبدو ، يعود إلى ما كان يحدث في مهرجانات « الموالد » و « الأعياد » ؛ إذ تجدد فيها دائما مكانا

للتدريب على إصابة الهدف في استخدام البندقية . وكان جزاء من يوفق في ذلك في الماضي ، قطعة من الملبن ، يحصل عليها من صاحب هذه الأماكن ، أيام أن كانت قطعة الملبن تساوى مليما واحدا !!

وكذلك التعبير : « فلان يَخْنَصِر » ، بمعنى : يختلس شيئا من المال الذى أوْتَمَن عليه ، فإن أغلب الظن أنه مأخوذ مما يصنعه صبية الجزارين بالذبايح ، التى يصحبونها مذبوحة من المذبح الحكومى إلى محل الجزارة ؛ فقد رأيت بعضهم يقطع شيئا يسيرا من هنا وهناك من لحوم هذه الذبايح ، بسكين صغيرة معه تسمى : « الخَنْصَر » ، ويضعه فى جيب قميصه .

ويقال فى وصف من يحصل على المال من حله وحرامه : « فلان يَهْلَب » . ولعل ذلك راجع إلى ما كان يفعله لصوص المنازل قديما ، عندما كانوا يتسلقون أسوارها بالتعلق بالحبال ، بعد أن يشتوها بما يشبه « هَلْب » السفينة ، الذى يربط فى نهاية الحبل ، ويرمى به فى أعلى السور ، لينشب فيه هذا الهلب .

ويقال عن الخلوى المعروفة « بالمهلبية » ، وهى التى تصنع باللبن والنشا والسكر ، إنها منسوبة إلى : « المهلب بن أبى صفرة ^(١) » .

وكلمة : « الشَّرْطَى » ، ما كانت تتضح المناسبة بينها وبين رجل البوليس ، لولا التفسير التاريخى ، الذى نعثر عليه فى بطون تراثنا العربى ؛ فقد قال الأصمعى : سَيَّ الشَّرْطُ شَرْطاً ؛ لأنهم جعلوا لأنفسهم عِلْماً يُعرفون به . ومنه : أشرط الساعة ، أى علاماتها ^(٢) .

(١) تهذيب الألفاظ العامية ١٢٣/١

(٢) إصلاح المنطق ٢٢٩

ويقدم الهمداني تفسير آخر ، حين يقول : « وأشُرط نفسه إشرطا : إذا حمل نفسه على الخطر . والشُرط من هذا ، إلا أنهم جعلوا لأنفسهم علماً يعرفون به ^(١) » .

وبين لنا « الخوارزمي » لون الأعلام التي كانت للشُرطى ؛ فيقول : « الشُرطة : العلامة ، وجمعها : شُرط . والشُرطيون هم أصحاب أعلام سود . ورئيسهم صاحب الشُرط ^(٢) » .

من الطرافة بمكان أن كلمة : « العوالم » بمعنى : المغنيات والراقصات ، اللاتي اشتهرن بذلك في شارع محمد علي ، من شوارع القاهرة ، حتى يومنا هذا - هذه الكلمة لا صلة لها بمادة : « العلم » في العربية ؛ لأن مفرد لها : « عالمة » ليس إلا تعريفاً للكلمة العربية : (يِلْمِي) almā بمعنى : « الجارية » أو « الفتاة » . وهي مؤنث (يِلْمِي) élem بمعنى : « غلام » ، ومؤنثه : « غلامه » ؛ لأن الغين العربية تقابل العين في العربية . فالعوالم بهذا التفسير التاريخي ، تعنى : الجوارى والقيان .

هذا ، وإن بعض ما ذكر في كتب الأمثال العربية ، من حكايات تاريخية ، تفسر لنا شيئاً مما روى من الأمثال ، يمكن أن يدخل في هذا الباب : « شاهد الحال » ، وإن كان بعض ما جاء به المؤلفون من قصص وحكايات ، يبدو عليها الصنعة ، وتعدّ من قبيل القصص التبريري ^(٣) .

(١) الألفاظ الكتابية ٦٧

(٢) مفاتيح العلوم ٧٢

(٣) انظر : الأمثال العربية القديمة ٥٠

ونضرب فيما يلي مثالا واحدا من تراثنا في الأمثال العربية ، وهو المثال القائل : « الصيْف ضَيَّعَتِ اللَّبَنَ » ؛ فقد حكى مؤلفو الأمثال معناه وقصته على النحو التالى : « معناه : طلبت الشيء فى غير وقته ؛ وذلك أن الألبان تكثر فى الصيف ، فيضرب هذا مثلا للرجل يترك الشيء وهو ممكن ، ويطلبه وهو متعذر . وأصله أن عمرو بن عمرو بن عُدَس بن زيد ، تزوج ابنة عمه دَخْتَنُوس بنت لقيط بن زُرارة بن عُدَس بن زيد ، وقد كان أَسَنَّ ، فأبغضته واشتد بغضها له ، وكان أكثر قومه مالا ، وأعظمهم شرفا ، فلم تزل تؤلّع به وتهجره حتى طلقها ، فتزوجها بعده ابن عمها عمير بن معبد بن زُرارة ، وكان شابا قليل المال ، فمرت بها إبل عمرو ، وكأنها الليل من كثرتها . فقالت لخادمتها : ويلك ! انطلقى إلى أبى شريح ، فقولى له فليسقنا من اللبن ، فانطلق الرسول إليه ، فقال له : إن ابنة عمك دختنوس تقرأ عليك السلام ، وتقول لك : اسقنا من اللبن ، فقال الرسول : قل لها : الصيْف ضَيَّعَتِ اللَّبَنَ ، فأرسلها مثلا ^(١) . »

★ ★ ★

(١) انظر : الزاهر لابن الأنبارى ٢٣٥/٢ - ٢٣٦ والفائز للمفضل بن سلمة ١١١
ومجمع الأمثال للميدانى ١٠/٢

١٣ - تَعَاقُبُ الْمَظَوِّرِ

كثيرا ما يحدث أن تتعاقب على الكلمة الواحدة ، مجموعة من التطورات الصوتية ، التي تبعتها على مر الزمان عن أصلها الذي كانت عليه . وإن رصد هذه الحركة التطورية في الكلمات اللغوية أمر ضروري ، حتى لا تقع الأجيال المقبلة في حيرة ، وهي تبحث عن العلاقة بين الكلمة في صورتها الأخيرة وما تدل عليه .

فهذه مثلا كلمة : « الشراب » الذي يلبس في الرجل ، قد تحيّر لغويا يعثر عليها بعد ألف عام في نص من النصوص ، وقد أصبحت من كلمات المشترك اللفظي ، لما يُشرب ، وما يُلبس في الرجل . وقد يدعى هذا اللغوى الذي لا يعرف أصل الكلمة بالمعنى الثانى ، أن هذا المعنى إنما نشأ بسبب « منقوع الشرايات » ، ويزعم أن الناس في عصرنا كانوا يشربون هذا المنقوع !

والذى نعرفه اليوم بلا مراء ، أن هذه الكلمة فارسية الأصل ، فهي فيها : « گُورَب » gōrb ومعناها : « قبر الرجل » . وقد دخلت التركية : جُوراب gōrāb والسريانية (ܕܝܐ ܕܝܠܐ) gorbā والعربية : جَوْرَب ġawrab وما تزال في العربية الفصحى كذلك ^(١) .

غير أن هذه الكلمة تطورت تطورا شديدا متعاقبا ، في لهجات الخطاطب العربية ، فانكمش الصوت المركب فيها أولا ، وصارت : gōrab ، ثم انحل صوت الجيم المزدوج إلى أحد عنصريه المكونين له ، وهو الشين المجهورة ، ثم ضاع منها الجهر ، فأصبحت : « شُورَب » ، ثم انتقل النبر في الكلمة إلى المقطع الثانى منها ، فصارت : « شُرَاب » ، وما تزال الكلمة مستعملة

(١) انظر : الألفاظ الفارسية المعربة ٤٨

على هذا النحو في بعض اللهجات العربية ، غير أن قانون المماثلة بين الحركات ، جعل فتحة الراء تؤثر في ضمة الشين ، فتقلبها فتحة ؛ وبذلك صارت الكلمة أخيرا : « شَرَاب » .

وليس يبعد عن بعض هذه المراحل التطورية ، ما حدث لكلمة : « حَوْصَلَة الطائر » ، في بعض العاميات العربية ؛ إذ حدث فيها أولا أن انكمش الصوت المركب ، فصارت الكلمة : « حُوصَلَة » ، ثم انتقل النبر إلى المقطع الثاني ، فصارت الكلمة أخيرا : « حُصَالَة » .

وقريب من هذا ما حدث لكلمة : « مَوْلَى » العربية ، بمعنى السيد ، على يد الأتراك ؛ إذ انكمش فيها الصوت المركب أولا ، فصارت الكلمة : « مولى » mōlā ، ثم أغلق المقطع الأول عن طريق تشديد الحرف الثاني ، فصارت الكلمة : « مُلَّا » mullā . وقد توقف بعض الأتراك بالكلمة عند هذا الحد ، وفي أسمائهم القديمة : « مراد مُلَّا » مثلا . غير أن الكلمة تطورت عند بعضهم تطورا آخر بالمخالفة الصوتية ، فأبدل الأتراك من اللام الأولى نونا ، وبذلك صارت الكلمة : « مُنْلا » ^(١) .

أما كلمة : « صَمِيط » ، التي تطلق على نوع معروف من الخبز ، ويسمى أحيانا : « العيش الفينو » ، فالأصل فيها كلمة : « سَمِيد » بمعنى الدقيق الأبيض من الحنطة ، وهي معربة في العصر العباسي من الإغريقية ^(٢) . وقد مرت هذه الكلمة بكثير من التطورات الصوتية المتعاقبة عبر العصور ؛ إذ تحول فيها أولا الصوت الأسناني (الدال) بفعل قانون السهولة والتيسير إلى (دال) ، فصارت الكلمة : « سميد » ، ثم ضاع جهر الدال فتحولت

(١) وانظر : لحن العامة والتطور اللغوي ٣٠٣

(٢) انظر : غرائب اللغة العربية ٢٦٠

تاء : « سَمِيت » ، ثم تطورت صيغة (فَعِيل) إلى (فَعِيل) ، كما عرفنا من قبل في قانون المماثلة ، فصارت الكلمة : « سَمِيت » ، ثم فخمت السيد فصارت الكلمة : « صَمِيت » ، وتأثرت التاء بهذا التفخيم فتحولت طاء ، وصارت الكلمة أخيرا : « صَمِيط » . وكان الباعة المتجولون ينادون في قطارات الركاب قبل ربع قرن مضى على هذا الخبز المصنوع من دقيق السميد الفاخر ، فيقولون : « صَمِيط وبيض وجبنة بقرش واحد ! » .

وقد تحدثنا هنا من قبل عن أداة الاستقبال في العامية العربية المعاصرة ، وهي الهاء في مثل : « هاعمل كذا » ، وعرفنا أن أصلها كلمة : « رائج » من « الرواح » ، وأنها قد فرغت من معناها الأصلي ، وعانت كثيرا من البلى اللفظي ، فصارت : « رايح اعمال كذا » ، ثم « راح اعمال كذا » ، ثم « حاعمل كذا » ، وأخيرا « هاعمل كذا » .

أما كلمة : « وَرَيْنى الشيء الفلانى » ، فهي مقلوبة عن : « رَوَيْنى » (ويقال أحيانا : رَاوَيْنى ، في نطق أهل العراق) . وأصلها : الأمر من الفعل « رَأى » المضعف العين ، بعد إبدال همزته واوا .

وكلمة : « عصفور » للطائر الصغير المغرّد المعروف ، ليست في الحقيقة إلا المقلوب لكلمة : « صغفور » . وهذه الأخيرة ناتجة بسبب المخالفة الصوتية من : « صُفُور » ، التي تساوى الكلمة العبرية (שִׁפּוֹר) sippōr وتقابل في العربية كلمة : « صَفَّار » ، بمعنى الكثير التصفير ، وهي شيء من السمات المميزة للعصفور !

أما الجيم في : « جَمَر الخبز » ، بمعنى : وضعه على الجمر لكي يلين ، فقد أدى الاعتقاد بأنها مقلوبة في بعض العاميات المصرية عن القاف ، إلى تطور في اتجاه آخر ، تقلب فيه هذه القاف المتوهمة همزة ، أى أن الكلمة مرت في تطورها على ألسنة العامة بالخطوات التالية : جَمَر « قَمَر » أَمَر .

ومثل هذا تماما حدث للكلمة : « زجاج » ، التي صارت بالقلب المكانى : « جزاز » ، فتوهمت العامة أن جيمها مقلوبة عن القاف ؛ ومن هنا رأينا الكلمة فى لافتة : « محطة معمل القزاز » القريبة من الاسكندرية ، ثم أصاب القاف فى هذه الكلمة ما أصاب غيرها ، فتحولت إلى همزة ، وصارت الكلمة : « إزاز » .

وكلمة : « رَجُل » ، لم تتحول فى نطق بعض أهل فلسطين إلى : « إَجْر » ، وكذلك فى اللغة الحبشية (١٩٧٤) إلا بسبب المخالفة الصوتية من : « رَجْر » ، التى يفترض أنها ناتجة بسبب المماثلة الصوتية من : « رَجُل » .

وإذا كانت كلمة : « التَّوَلَّب » فى العربية الفصحى ، تعنى : الحمار الصغير ، أو الجحش ^(١) ، وكلمة : « الدَّوَلْب » تعنى كذلك : الحمار الصغير ^(٢) ، فإن هذا يعنى أن الأصل هو : « التولب » ، ثم جهرت التاء ، فصارت الكلمة : « الدولب » ، وحصل فيها بعد ذلك قلب مكانى ، فصارت الكلمة أخيرا : « الدَّوَلْب » .

وقد سبق أن عرفنا أن الفعل : « حَمَّش » فى العربية الفصحى ، بمعنى : حَدَّش ، تطور بالمخالفة الصوتية إلى : « خَرَمَشَ » فى أيام أبى منصور الجواليقى ^(٣) (المتوفى سنة ٥٣٩ هـ) ، ثم تطورت « خَرَمَشَ » هذه فى نطقنا المعاصر ، فى أحد اتجاهين : إما بإبدال الميم بباء ، فتصير الكلمة : « خَرَبَشَ » ، وإما بالقلب المكانى ، فتصير الكلمة : « خرشم » . والحريرى يعد « خريش » فصيحة ، و « خرمش » من اللحن !

(١) الصحاح (تلب) ٩١/١

(٢) الصحاح (دبل) ١٦٩٥/٤

(٣) انظر : تكملة ما تلحن فيه العامة ١٣٩

ومثل ذلك في كلام العامة الفعل : « لخبط » ، الذى نتج بطريق المخالفة الصوتية من الفعل القديم : « خَلَطَ » عن طريق القلب المكافئ من صيغة : « خَلَبَطَ » المستعملة في العامة كذلك ، هي وصيغة : « خَرَبَطَ » الناتجة بإبدال اللام راء .

ونحوه كذلك الفعل : « حَمَلَقَ » بمعنى : فتح عينيه ونظر نظرا شديدا ^(١) ، لابد أن القلب المكافئ قد أصابه ، فتحول إلى « محلق » ، وإلا ما تطور إلى الفعل المستخدم لدى العامة : « بخلق » بإبدال الميم باء ، ثم تحولت قافه إلى همزة ، فصار : « بحلاً » .

أما كلمة : « مُكَلَّثَم » بمعنى : منتفخ الوجه ، في العربية الفصحى ، فقد مرت بمراحل من التطور ، حتى وصلت إلى : « مِكلْضَم » بمعنى : متجهم الوجه ؛ فقد ضاع الصوت الأسنانى ، وتحولت الثاء أولاً إلى تاء ، ثم جهرت فصارت دالا ، ثم فخمت فصارت ضادا . وقد تغير معناها عبر كل هذه التطورات ، من انتفاخ الوجه إلى تجهم الوجه . والعلاقة بين المعنيين واضحة .

وهذه الكلمة الأخيرة ، تؤيد ما نؤمن به من أن التطور الصوتى قد يصحبه تطور دلالى . ولدينا الأمثلة الكثيرة على ذلك ؛ فمنها مثلاً كلمة : « ثَقِيل » التى تطورت مرة إلى : « ثَقِيل » بنفس معناها ، ومرة أخرى إلى : « سَقِيل » ، ثم : « سَقِيل » مع تغير معناها ؛ إذا أصبحت تدل على ثقل الدم والرزالة والسماجة !

ومثلها كلمة : « هيفاء » في العربية الفصحى ، بمعنى : الطويلة الممشوقة القوام ، الضامرة البطن والخاصرة ^(٢) . وعندما ترك العامة همزتها ،

(١) الصحاح (حملق) ١٤٦٥/٤

(٢) الصحاح (هيف) ١١٤٤/٤

فصارت : « هايفة » ، تحول معناها إلى : الطيش والسفه .

وكلمة : « مَثْلُوم » من « الثلثة » ، وهى فى العربية الفصحى : كسر فى حرف الشئ^(١) ، عندما أبدل العامة من ثائها تاء ، فقالوا : « فلان مَثْلُوم » و « فلانة مَثْلُومة » ، صارت الكلمة سباً وقذفاً بالفسق وسوء السلوك .

١٤ - سيادة الحالة الواحدة من الحالات الإعرابية

تعبّر بعض اللغات عن المعاني المختلفة في جملها ، بما يسميه النحاة العرب « بعلامات الإعراب » ، ويسميه المحدثون من علماء اللغة « بالمورفيمات الإعرابية » .

وفي طريق تطور اللغة ، تفقد هذه المورفيمات الإعرابية وظيفتها ، وتعتمد اللغة في هذه الحالة على نظام ترتيب الكلمات في جملها ، وعندئذ تختار هذه اللغة صورة واحدة ، من الصور الإعرابية ، وتبقى عليها ، وتهمل الصور الأخرى ، وهذا هو معنى « سيادة الحالة الواحدة من الحالات الإعرابية » .

وقبل أن نضرب الأمثلة المختلفة ، نحب أن نذكر هنا أن اختيار اللغة ، لواحدة من هذه الصور الإعرابية ، اختيار غير مشروط ، فلا يستطيع أكبر عباقرة اللغة أن يعرف لماذا آثرت لغة ما ، صورة معينة من الصور الإعرابية ، وأهملت ما عداها ؟ وسوف يتضح مدى صدق هذه المقولة ، التي نزعّم أننا أصحابها ، من الأمثلة التي سنسوقها هنا كذلك .

وأول هذه الأمثلة : ما جرى للأفعال الخمسة في اللهجات العربية المعاصرة ؛ فمن المعروف أن هذه الأفعال ، تعرب في العربية الفصحى ، بثبوت النون في الرفع ، وحذفها في النصب والجزم . وعندما فقدت المورفيمات الإعرابية وظيفتها في اللهجات المعاصرة ، اختار الكثير من اللهجات صورة محذوف النون ، بصفة دائمة ؛ فيقال في مصر مثلاً : « تاكلى وتشربى وتنامى » و « تاكلوا وتشربوا وتناموا » . واختارت لهجة القصيم ، في قلب الجزيرة العربية ، ثبوت النون بصفة دائمة ؛ وقد سمعت واحداً من

أبناء القصيم ، وقد سأله آخر عن « البذران » بمعنى : الأولاد ، فأجابه بقوله :
« دا يلعبون هناك » (١) !

وهذا الذى حدث فى لهجات العربية ، نراه فى اللغات السامية ،
التي فقدت مورفيماتها الإعرابية وظائفها كذلك ؛ فبينما تختار اللغة السريانية
الاحتفاظ بالنون دائما ، فتقول مثلا : (ܬܩܬܝܠܝܢ) tektlīn « تقتلين » ، نرى
العبرية والحبشية تستقران على الصورة المحذوفة النون ؛ فتقول العبرية (תַּקְלִיךְ)
tiklīr والحبشية (ተቐብሉ) tektlīr كذلك .

وإلزام المثني الياء فى اللهجات العربية المعاصرة ، صورة أخرى من
صور سيادة الحالة الإعرابية الواحدة ؛ فيقال فى مصر مثلا : « راح منى
قلمين » و « اشتريت قلمين » و « كتبت بقلمين » !

وهذا قد حدث مثله تماما فى العبرية والسريانية ؛ ففى العبرية مثلا :
(יָדַיִם) yādāyim « يدان » ، وفى السريانية (ܝܕܝܢ) trēn « اثنان » .
أما ما ورد فى لهجة « بلحارث بن كعب » قديما ، من إلزام المثني الألف ،
فليس مما نحن فيه . وقد سبق أن ذكرنا تفسير ذلك ، فى موضوع السهولة
والتيسير ، بانكماش الصوت المركب ، ثم تحول الإمالة إلى فتح خالص ، على
النحو التالى : ay < ē < ā وهو منهج متكامل لهذه القبيلة فى كل صوت مركب
على هذا النحو ؛ فى مثل : « السلام عليكم » و « العابد » ونحوهما .

والأسماء الخمسة ، وهى كما نعرف : أبوك ، وأخوك ، وحموك ، وفوك ،
وذومال ، كانت وما تزال فى العربية الفصحى ، ترفع بالواو ، وتنصب بالألف ،

(١) روى لنا مثل هذا فى لهجة مصر فى القرن الثامن الهجرى أيضا ، فى قول صاحب
مسالك الأبصار (٨٧) : « كيف تسحرى العقرب ؟ » .

وتجر بالياء . ولكنها فى العاميات المعاصرة ، لزمّت الواو فى كل حال ؛ فيقال مثلا : « أبوك جه » و « شفت أبوك » و « مَرَّيت بأبوك » .

وهذا هو عين ما حدث فى السريانية كذلك ؛ إذ يقال فيها : (*āḥḥ*)
abūk دائما ، على العكس من العبرية التى اختارت حالة الجر بالياء دائما ،
 كما فى مثل : (*ābīkā*) (*אבִּיכָא*) .

وبعض اللهجات اليمنية المعاصرة ، يكثر فيها التكنى بمثل : « باحسين »
 و « بابطين » و « باخشوين » . ولعل ذلك يرجع إلى إلزامهم الأسماء
 الخمسة حالة النصب بالألف ، فى بعض المناطق والأزمان .

وكذلك الحال فى جمع المذكر السالم ، الذى لزم الياء دائما ، فى
 اللهجات العربية كلها ؛ مثل قولنا : « الناس الطيبين ما لهمش بخت »
 و « ما شفتش العيال المشاغبين ؟ » و « يا سلام على الناس الحلوين ! »

ومثل ذلك حادث فى العبرية والسريانية ؛ ففى الأولى يقال مثلا
 (*ḥaṭṭaʾīm*) (*חַטָּאִים*) « خطاءون » ، كما يقال فى الثانية مثلا : (*ḥaṭṭaʾīm*)
 (*ḥaṭṭaʾīm*) « كاتبون » .

وتشبه ظاهرة « سيادة الحالة الإعرابية » ظاهرة أخرى ، من ظواهر
 التطور اللغوى ، المعروفة فى اللغات ، وهى الظاهرة التى يمكن أن نسميها :
 « طغيان حالة إعرابية على أخرى » . ومن المؤكد أننا لا يمكن أن نرى مثل
 هذه الظاهرة فى لغة من اللغات ، إذا كانت محتفظة بالمورفيمات الإعرابية ،
 فى الدلالة على وظائف أجزاء الجمل المختلفة فيها .

ومن أمثلة ذلك : طغيان صيغة الإسناد إلى جمع الغائبين فى الماضى
 المضارع ، على صيغة الإسناد إلى جمع الغائبات ، فى مثل : « البنات
 اتخطبوا واتجوزوا » ، ومثل : « هم الستات يقدروا يعيشوا من غير رجالة ؟ » .

وقد حدث هذا في اللغة العربية كذلك ، في نحو (قتلوا) kātilū بمعنى : « قتلوا » أو « قتلن » .

وقد اختفت نون النسوة في كثير من اللهجات العربية المعاصرة ، وطفئت عليها الصيغة المذكورة في الضمائر ونحوها ، في مثل قولنا : « الستات حملهم ثقيل » . ويبدو أن الطغيان هنا قديم ؛ ففي أخبار مصر للمسيحي (المتوفى سنة ٤٢٠ هـ) ، نقرأ النص التالي : « شاهد من سكر النساء ، وتهتكهم ، وحملهم في قفاف الحمالين سكارى ، واجتماعهم مع الرجال أمراً يقبح » .

ومن الأمثلة كذلك : طغيان صيغة المضارع للمخاطبات بـ « يا » على صيغة الغائبات في العربية ؛ إذ يقال في الحالتين مثلاً (قتلوا) tikīlūna بمعنى : « يقتلن » و « تقتلن » .

وقد حدث مثل هذا في العربية ، في القرن السادس الهجري ؛ إذ يروى لنا الحريري (المتوفى سنة ٥١٦ هـ) أن العامة في عصره كانوا « يقولون : الحوامل تطلقن ، والحوادث تطرقن ، فيغلطون فيه ؛ لأنه لا يجمع في هذا القبيل بين تاء المضارعة والنون ، التي هي ضمير الفاعلات . ووجه الكلام أن يلفظ فيه بياء المضارعة المعجمة باثنتين من تحت ، كما قال الله تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ . وعلى هذا يقال : الغواني يمرحن ، والنوق يسرحن ^(١) » .

ويعلل « يوهان فك » لهذا السلوك اللغوي ، بأن العامة « لم تعد لهم ألفة بصيغة المضارع المؤنث للمخاطب والغائب في حالة الجمع ، التي استعيرت عنها في اللغة الدارجة بصيغة المذكر ، والتي امتازت في اللغة

(١) درة الغواص ٨٥ وانظر : تصحيح التصحيف ١٨٧

الفصيحة بنون النسوة ؛ مثل : يكتبن وتكتبن ، إزاء المذكر : يكتبون وتكتبون ، فعمدوا إلى التفرقة بين الجنسين ، بمجرد التاء أول الفعل في حالة جمع المؤنث الغائب (تكتبن) ظنا منهم أن التاء هي علامة التأنيث في صيغ المضارع ^(١) .

وأحيانا نرى في كتابات المعاصرين شيئا من هذه الظاهرة ، مثل قول بعضهم : « أما عن المصريات ، فترى لمياء أنهن لا تختلفن كثيرا عن السعوديات ^(٢) » .

(١) العربية ٢٢٢

(٢) مجلة لواء الإسلام - شعبان ١٤٠٣ هـ (السنة ٥٨ العدد ٦) ص ٧١

١٥ - الاشتقاقُ الشَّعْبِيّ

الاشتقاق الشعبي (Volksetymologie) للكلمة معناه : المفهوم الشعبي عند العامة لكلمة من الكلمات ، يربطها بكلمة أخرى شائعة ، والظن بأنها مشتقة من هذه الكلمة ، أو كما يقول ماريوي : « الخطة التي عن طريقها يخلق عقل الجماعة علاقة مزيفة ، وإن كانت مستحسنة بين كلمتين » ^(١) ؛ فإن « الذهن يميل إلى أن يصل بين الكلمات ، تبعاً لشكلها الخارجي ، وأحياناً على عكس ما يقتضى المعنى ، بل على عكس ما يقتضى العقل السليم ، وقد تسوق مشابهة غامضة ، بين كلمة وكلمة أخرى أشد شيوعاً ، أو أكثر شهرة ، إلى التقريب بينهما ؛ ومن هنا تنشأ بعض التشويّهات الغريبة » ^(٢) .

والقاعدة هي أن الكلمات النادرة الوقوع ، أو الكلمات الأجنبية ، هي التي تتعرض بصفة خاصة ، لسوء الفهم وللربط الخاطيء ، ببعض مفردات اللغة القومية ، مثال ذلك الكلمة belfry بمعنى : « برج الناقوس » ترجع في أصلها إلى الكلمة الفرنسية القديمة : berfrei (في الفرنسية الحديثة : beffroi) وهي كلمة جرمانية قديمة مركبة ، معناها : « البرج يحتذى به » . ويرجع السبب في وجود حرف اللام فيها ، وكذا السبب في معناها الحديث ، إلى افتراض وجود علاقة وهمية بينها ، وبين كلمة : bell بمعنى : ناقوس » ^(٣) .

ومن أمثلة ذلك : ربط المتحدثين بالعربية ، بين « الحانوتي »

(١) أسس علم اللغة ١٥٩

(٢) اللغة لفندريس ٢٣٣

(٣) دور الكلمة في اللغة لأولمان ٨٠ - ٨١

و « الحانوت » ، ولا علاقة بين من يجهز الموتى للغسل والدفن ، وكلمة : « الحانوت » ، وإنما هو منسوب إلى : « الحَنُوط » ، وهو نوع من الطيب يخلط للميت خاصة ، فالنسب إليه : « حَنُوطِي » ^(١) ، غير أن اشتباه هذه الكلمة صوتياً بكلمة : « حانوت » هو الذى أدى إلى هذا الاشتقاق الشعبى .

وقد روى لنا الدكتور أحمد عيسى أن العامة « ترى شخصاً مضطرب النفس ، وبه غثيان وقىء ، فتقول : راح على بولاق » ^(٢) . وأصل الجملة كما يذكر هو : عَلَقَ بُلُوقُ الْمُتَّى ، وهى جملة تركية معناها : بلا نظام ، أو تلبك ، أو وقع فى حيص بيص ، فنطقها العامة فى مصر : « على بولاق » وهو من الاشتقاق الشعبى .

وإذا كانت المعاجم العربية تذكر : « الحُنْذُور » ، على أنه حذقة العين ^(٣) ، فهمنا الاشتقاق الشعبى عند العوام ، يربط هذه الكلمة بكلمة أخرى شائعة عندهم ، وهى : « الحنطور » للعربية التى يجرها الخيل ، ولم نعجب لقولهم : « أدُّيك على حنطور عينك » بمعنى : أضرب حذقة عينك !

وكادت امرأة مصرية حاسرة الرأس ، تتشاجر مع خادم مسجد الكاظمين ببغداد ، عندما قال لها : « إِنْتِ سَافَرَة » ؛ لأنها ربطتها بالاشتقاق الشعبى بكلمة : « سافلة » !

وكان أحد الألمان يصف الجو بالبرودة ، بقوله بالألمانية : kalt أمام أحد الإخوة العراقيين ، وكان قد فرغ فى التو من الأكل فى مطعم بألمانيا ،

(١) المحكم فى أصول الكلمات العامة ٦٠

(٢) المحكم فى أصول الكلمات العامة ١٥٥

(٣) الصحاح (حذر) ٦٢٥/٢

فرد عليه العراقي قائلاً : الحمد لله ! ظاناً أنه يسأله بالعربية ، عما إذا كان قد فرغ من أكله !

وقد حكى لي الدكتور عبد الوهاب التازي ، أن بعض المغاربة يطلقون على طائر اللقلق : « بلا رجل » ، وهو اشتقاق شعبي من الكلمة اليونانية : « بلارج » Pélargos ^(١) .

كما ذكر لي الدكتور حسين مجيب المصري ، أن الحلواء المعروفة والمسماة : « كل واشكر » ، هي في الأصل العبارة الفارسية : « گل شگر » ، بمعنى : ورد لذيد ؛ لأن كلمة : « گل » معناها : ورد ، وكلمة : « شگر » معناها : سُكَّر . وهذا هو الاشتقاق الشعبي عند العوام .

وكذلك عبارة : Roulement bille الفرنسية ، تحولت إلى : « رُمان بلي » بالاشتقاق الشعبي !

كما روى لي بعض العراقيين أن العامة في بغداد ، ينطقون كلمة : « بروفيسور » : « بوفيسل » ، وهذا أيضاً من الاشتقاق الشعبي .

ومن أمثلة ذلك في عربية العصر العباسي : استخدام لفظ : « مصلحة » للدلالة على : الثغر ، أو القوات المربطة على الحدود ، وهو اشتقاق شعبي ، وخلط للكلمة الأصلية ، وهي : « المصلحة » ^(٢) من السلاح ، بكلمة : « المصلحة » الشائعة بمعنى : المطلب أو المنفعة ^(٣) .

« ولو أننا نظرنا إلى عبارة : (لقمة القاضي) ، وهي تلك الحلوى من

(١) انظر : غرائب اللغة العربية ٢٥٥ وتثقيف اللسان ٢٠٥ وتصحيح التصحيف

(٢) انظر : الصحاح (سلح) ٣٧٦/١

(٣) انظر : العربية ، لبوهان فك ١١٣

عجيب وسكر مذاب ، وتساءلنا عن السبب في تسميتها على هذا النحو ،
أكانت مما يصنع للقاضي على سبيل التكريم ؟ أم أنها من منتجات رجل اسمه :
(القاضي) ؟

« لا هذا ولا ذاك ، ولكن الأتراك في مصر كانوا يسمونها : (لقمة
القادين) ، وكلمة : (قادين) تعني : السيدة ، أو المرأة في التركية ،
ولاشك أن من سمات الجمال ، أن يكون فم المرأة صغيرا ، لا يتسع إلا
لإدخال هذه اللقمة ذات الحجم الصغير ، ولهذا سميت : (لقمة القادين) .
« فلما تلقت الأذن المصرية هذه العبارة ، لم تتبين ملاحظها الصوتية ،
فاذا بها تحولها إلى أقرب تركيب مناسب لها في العربية .

« ولنأخذ مثالا آخر ، على مثل هذا التحريف السماعي على ألسنة
العوام ؛ فالوقاد الذي [كان] يعمل في القطار [البخارى] ، لتزويده دائما
بالوقود والنار ، يسمى في التركية : (آتش جى) ، أى : عامل النار . ولكن
العامة في مصر وجدوا أن القطار يتوقف في محطات مختلفة ، ليتزود بالماء ،
وكان الذى يقوم بهذه العملية هو ذلك (الآتش جى) ، فكان أن ربطوا بين
الاسم والعمل في كلمة : (العطشجى) أى : الذى يروى عطش القطار ،
وهو نوع من التقريب بين الكتلة الصوتية والمدلول الظاهر ^(١) » .

وهذه الظاهرة تشيع بين الأطفال ، ذوى الخبرات اللغوية المحدودة ،
فقد سمعت طفلة تردد في أغنية جماعية ، من أغاني « الهراء اللغوى » ، هذه
العبارة : « آدى الجنة وادى النار وادى عذابكم يا كفّار » ، فتقول :
« وادى عذابكم يا كل فار ! » ، وهو أمر يناسب الحصيلة اللغوية لمن في
مثل سنّها .

وقد ضرب لنا قنديرس ، أمثلة كثيرة لهذه الظاهرة من اللغات المختلفة ، فذكر أن « التسمية اللاتينية : *culcita puncta* ومعناها الحرفى : ملحقة ذات غرز ، صارت فى الفرنسية : *courte pointe* (الغرزة القصيرة) ، مع أن فكرة القصر ، لا صلة بينها وبين تصريف المادة التى نحن بصدددها . والرقص الإنجليزى المسمى : *countrydance* (رقص الريف) مع أنه منقول من فرنسا ، دخل اسمه فى اللغة الفرنسية من جديد بصيغة : *contredanse* (عكس الرقص) ، وهى عبارة لا معنى لها . ونحن نعرف الصيغ الطريفة ، التى تأخذها أسماء الأمراض والأدواء العصية ، فى أفواه العامة ، فهى كنز لا يفنى من التسلية ، للمشغلين بتسجيل الطرائف ... ومن أمتع هذه التشويهات ، ذلك الذى جعل من : *pipe de Kummer* (غليوم كومير = اسم صانعه) *pipe d'écum de mer* (غليوم زيد البحر) ... كما جاء من التسمية الإنجليزية : *aunt sallay* (العمة سلى = اسم للعبة) التسمية الفرنسية : *ane salé* (الحمار المملح) . وجاء من الإيطالية : *girasole* (نوع من الخضروات) الكلمة الإنجليزية : *Jerusalem* اسماً لهذا النوع من الخضروات ^(١) »

وقد يشبه هذا ما يطلقه الناس فى بعض الأحيان على مرض « الأنفلونزا » من : « أنف الورد » أو : « ألفين ورد » على سبيل السخرية !

(١) اللغة لقنديرس ٢٣٣ وانظر فى بعض الأمثلة : دور الكلمة فى اللغة ، لأولمان ٨٩

١٦ - أخطاء السمع

هناك انقلابات صوتية ، ليست إلا نتيجة لأخطاء السمع ، فإن الطفل يعتمد في تلقي اللغة عن المحيطين به ، على حاسة السمع ، ولما كانت هذه الحاسة عرضة للزلل في إدراكها للأصوات ، ولاسيما تلك الأصوات المتقاربة في المخارج ، كان من الطبيعي أن يجانب الطفل السداد في بعض ما ينطق به ، محاكياً من حوله ، وليس ذلك قاصراً على الطفل إذ قد يخطئ الشخص البالغ كذلك في السمع ، ويخلط بعض الأصوات بأصوات أخرى قريبة منها في المخرج ، وأذكر أننا كنا نكتب وراء مُمِل ، ينطق بكلمة : « شعث » ، فكتبها بعضنا : « شعف » بالفاء ، لا بالثاء .

وإلى هذا السبب ، وهو الخطأ السمعي ، يرجع في نظري معظم أمثلة ما يسمى في اللغة العربية ، بحالات : « تعاقب الأصوات » ، فقد عقد القالي في كتابه « الأمالي » فصلاً للكلمات التي تتعاقب فيها الفاء والثاء ، ^(١) عدّد من بينها : « جدف » و « جدث » للقبر ، و « الحثالة » و « الحفالة » للردى من كل شيء ، و « الفناء » و « الثناء » لفناء الدار ، و « الفوم » ، و « الثوم » ، وأورد قراءة ابن مسعود : « وثومها وعدسها » و « اللّقام » و « اللّثام » لغطاء الوجه ... وغير ذلك ، وقد حدث مثل ذلك تماماً في اللغات المختلفة ، فمثلاً الاسم : Theodor هو في الروسية : Feodor واسم البلد : Athen هو في الروسية : Afinni ^(٢) .

كما عقد القالي فصلاً آخر ، للكلمات التي تتعاقب فيها الميم والباء ^(٣) ، مثل : « قحمة » و « قحبة » للمرأة العجوز ، وأصابتنا « أزمة »

(١) الأمالي للقالي ٣٦/٢

(٢) انظر : H. Kofler, Reste altarabischer Dialekte, WZKM 47, 86

(٣) الأمالي للقالي ٥٤/٢

و « أزية » و « كمحته » و « كبحته » إذا جذبت عنانه ، و « مهلا »
و « بهلا » ... وغير ذلك ، وقد ذكر أمثلة كثيرة من هذا القبيل ونحوه ،
كل من « ابن السكيت » في كتابه : « القلب والإبدال » و « أبن الطيب
اللغوى » في كتابه الضخم في : « الإبدال » .

وقد عدّ القدماء من اللغويين العرب ، هذه الأمثلة وما شابهها من
المترادفات ، وهي في الواقع ليست من الترادف بمعناه الحديث في شيء^(١) ،
بل نشأت من الأخطاء السمعية ، لشدة تقارب هذه الأصوات ، وعدم
وضوح الفرق بينها في السمع تماماً .

(١) انظر : في اللهجات العربية ، للدكتور أنيس ١٦٦

١٧ - التَّطَوُّرُ الدَّلَالِي

للتطور الدلالي عوامل مختلفة تؤدي إليه ، ومظاهر معينة يسلكها هذا التطور ونشرح فيما يلي هذين الأمرين ^(١) :

أما عوامل التطور ، فمنها عوامل مقصودة متعمدة ، كقيام المجامع اللغوية ، والهيئات العلمية بمثل ذلك ، عند وجود الحاجة إلى خلع دلالات جديدة ، على بعض الألفاظ ، التي تطلبها حياة اجتماعية ، أو اقتصادية ، أو سياسية جديدة ، وهذه العوامل المتعمدة لا تهمنا هنا .

وهناك عوامل أخرى لا شعورية ، تتم دون عمد أو قصد ، منها السياق المضلل الذي نسمع فيه الكلمة لأول مرة ، فإننا « عندما نسمع جملة أو نقرأها ، نرى الكلمات التي تشتمل عليها ، يفسر بعضها بعضا ، فإذا كانت واحدة منها غير مألفة لنا - والواقع أن هناك دائما فترة في حياتنا ، نسمع فيه الكلمة لأول مرة - حاولنا بطبيعة الحال تفسيرها ، معتمدين على سياق النص ، وهذه هي الخطة التي يتبعها التلاميذ ، عندما يحاولون ترجمة نص أجنبي ... هذه الفكرة التي نحصل عليها بالتخمين قد تكون زائفة ، ولكنها تصحح في غالب الأمر ؛ لأن الكلمة نفسها تقابلنا بعد ذلك في جمل أخرى ، مع كلمات أخرى تحدد لنا معناها ، وعلى هذا النحو يثبت في الذهن معنى كل كلمة ، وهناك كلمات محدودة الاستعمال ، لا تظهر مطلقاً إلا في صحبة بعض الكلمات الأخرى ، وفرصة الخطأ في هذه الكلمات أوسع لأن الاستعمال لا يقدم لنا الوسيلة لتحديد قيمتها ، وفي هذه الحال كثيراً ما تبتعد الكلمة عن دلالتها الأصلية ، بسبب المعنى

(١) انظر تفصيلاً أكثر في كتابي : دلالة الألفاظ للدكتور أنيس ، وعلم اللغة للدكتور علي عبد الواحد وافي .

الزائف الذى يضاف إليها ^(١) . وقد سبق أن ذكرنا خطأ إحدى المذيعات فى وصف « البخل » بأنه « بخل مدقع » لأنها تسمع هذا الوصف دائماً ، مع كلمة : « الفقر » بمعنى : « الفقر الشديد » ، وهو معنى لازم للمعنى الأصلي للكلمة ، ومن يدرى لعلها تصف « المرض الشديد » ، قياساً على هذا ، بأنه « مرض مدقع » ، وهذا من وهم السياق الذى تدور فيه هذه الكلمة .

« وربما تتغير مدلولات كثيرة ؛ لأن الشيء الذى تدل عليه ، قد تغيرت طبيعته أو عناصره أو وظائفه ، أو الشؤون الاجتماعية المتصلة به ، وما إلى ذلك فكلمة : (الريشة) مثلاً ، تطلق على آلة الكتابة ، أيام كانت تتخذ من ريش الطيور ، ولكن مدلولها الأصلي قد تغير الآن ، تبعاً لتغير المادة المتخذة منها آلة الكتابة ، فأصبحت تطلق على قطعة المعدن ، وكذلك قُلْ فى مدلول القطار ، الذى كان يراد به مجموعة الإبل المنتظمة فى سيرها ، ثم استعير للقاطرة الحديثة لأنها تجمع فى سيرها طائفة من العربات » ^(٢) . وما سُمى « الخاتم » بهذا الاسم ، إلا لأنه كان ينقش عليه اسم صاحبه ، ويستخدم فى ختم الرسائل والوثائق والصكوك ، غير أنه فقد هذه الوظيفة بعد ذلك ، ولم يبق له إلا الاسم ، وتغيرت بذلك دلالاته .

ومن عوامل التطور الدلالى سوء الفهم ، وهو عامل له صلة بما ذكرناه من قبل فى موضوع « القياس » لأن الإنسان يقيس ما لم يعرف ، على ما عرف من قبل ، ويستنبط على أساس هذا القياس ، فيصيب فى استنباطه حيناً ، ويصل إلى الدلالة الصحيحة ، ويخطئ حيناً آخر ، فيستخرج دلالة

(١) اللغة لقندريس ٢٥٢ - ٢٥٣

(٢) مباحث لغوية للدكتور إبراهيم السامرائى ٩٢

جديدة ، قد تصادف الشيوخ والذيوخ بين الناس . وقد سبق أن عرفنا أن كلمة : « عتيد » تطورت دلالتها في أذهان الناس ، إلى معنى « عتيق » ، أو « عتيد » بسبب القياس الخاطيء على هاتين الكلمتين .

ومن العوامل كذلك : تطور أصوات الكلمة ، بحيث تصبح تلك الكلمة ، ماثلة لكلمة أخرى لها معنى آخر ؛ فإن كلمة : « كماش » الفارسية ، بمعنى : نسيج من قطن خشن ، قد تطورت فيها الكاف فأصبحت قافاً ، فشابهت الكلمة العربية : « قماش » . بمعنى : أراذل الناس ، وما وقع على الأرض من فتات الأشياء ، ومتاع البيت ، فأصبحت هذه الكلمة العربية ، ذات دلالة جديدة على المنسوجات .

ومن العوامل التي تؤدي إلى التطور الدلالي أيضا : اختصار العبارة ، فتؤدي كلمة واحدة منها ، ما كانت تؤدي العبارة كاملة ، قبل اختصارها ، وعندئذ تتغير دلالة هذه الكلمة ، وتصبح بعد أجيال غير واضحة الصلة بينها وبين معناها الجديد . مثال ذلك قولنا في اللهجة العامية المصرية : « فلان من الذوات » أو « من أولاد الذوات » ، أى من الأغنياء ، فهذه الكلمة مختصرة بلاشك من عبارة : « ذوات الأملاك ^(١) » .

ومثلها : « فلان بلغ » ، يعنى : بلغ الحلم وسن الشباب ، و « فلانة أدركت » ، أى أدركت سن الحيض (معروفة جيدا في الريف المصرى) ، و « فلان عندو ضغط » ، يعنى : عنده ضغط دم ، و « فلان مبسوط » ، يعنى : مبسوط (واسع) الرزق .

وفي الإنجليزية تستعمل الصفة : constitutional اسما للدلالة على :

(١) يرى أحمد أمين في قاموس العادات (ص ٢٠٥) أنها « كلمة تطلق على الطبقة

الغنية . أصلها : ذوات الحيثة ، ثم اكتفى بالقسم الأول » .

« المشى لأغراض صحية » ، والسبب هو أن الكلمتين : walk + constitutional « قد ظهرتا معا جنبا إلى جنب على فترات متعددة ، مكونة عبارة تقليدية ، وفي نهاية الشوط ، اشتد الترابط بينهما اشتدادا وثيقا ، حتى تمكن العنصر الأول وحده ، من أن يؤدي معنى العبارة كلها » ^(١) .

وقد فطن إلى مثل هذا سيوييه ، حين قال : « وإنما أضمرنا ما كان يقع مظهرها ؛ استخفا ، ولأن المخاطب يعلم ما يعنى ، فجرى بمنزلة المثل ، كما تقول : لا عليك ! وقد عرف المخاطب ما تعنى ، أنه لا بأس عليك ، ولا ضرر عليك ، ولكنه حذف لكثرة هذا فى كلامهم » ^(٢) .

وهناك عامل آخر ، يسبب التطور الدلالى للكلمة ، وهو كثرة دوراتها فى الحديث فإننا « نلاحظ أن معنى الكلمة ، يزيد تعرضاً للتغير ، كلما زاد استعمالها ، وكثر ورودها فى نصوص مختلفة ، لأن الذهن فى الواقع يُوجّه كل مرة فى اتجاهات جديدة ، وذلك يوحى إليها بخلق معان جديدة ؛ ومن هنا ينتج ما يسمى (بالتأقلم) . ويجب أن يفهم من هذا الاسم ، قدرة الكلمات على اتخاذ دلالات متنوعة ، تبعاً للاستعمالات المختلفة التى تستعمل فيها ، وعلى البقاء فى اللغة مع هذه الدلالات . وعندنا مثال جميل عن التأقلم فى كلمة : bureau بمعنى : (مكتب) ؛ إذ كانت تدل فى الأصل على نوع من نسج الصوف الغليظ ... ثم أطلقت على قطعة الأثاث التى تغطى بهذا النسج ، ثم على قطعة الأثاث التى تستعمل للكتابة أيا كانت ، ثم على الغرفة التى تحتوى على هذه القطعة من الأثاث ، ثم على الأعمال التى تعمل فى هذه الغرفة ، ثم على الأشخاص الذين يقومون بهذه

(١) دور الكلمة فى اللغة ١٥٨

(٢) الكتاب ١١٤/١

الأعمال ، وأخيراً على أية مجموعة من الأشخاص ، تقوم بإدارة إحدى الإدارات أو الجمعيات . وخلق معنى جديد ، لا يقضى بالضرورة على المعاني السابقة ، فهنا يمكن لكل المعاني أن تبقى حية في اللغة ، إذا استثنينا الأول منها (نوع من النسيج) . وحركة التغيرات المعنوية لا تسير دائماً في خط مستقيم ، بل تسير في كل الاتجاهات حول المعنى الأساسي . وكل واحد من المعاني الثانوية ، يمكن أن يصير بدوره مركزاً جديداً للإشعاع المعنوي » ^(١) .

ومن عوامل التطور الدلالي كذلك : عامل « الابتذال » الذي يصيب الألفاظ في كل لغة ، لظروف سياسية أو اجتماعية أو عاطفية ؛ فمثلاً كلمة : « الحاجب » كانت تعني في الدولة الأندلسية : « رئيس الوزراء » ، ثم صارت على النحو المألوف الآن ، وإن « الانحدار الذي يصيب الكلمات ، ليعكس بطريقة ملموسة : إما الاحتقار الذي تكنه الطبقات الاجتماعية بعضها لبعض ، وإما البغض المتبادل بين الأوطان والأجناس ، وإما التعصب الأعمى من جانب الجماهير ، وإما عدم احترام المتعصبين لآراء غيرهم ، فالناس يتباغضون ويتناحرون ، ويتبادلون الاحتقار ، ويتبادلون بالألقاب ، واللغة حارس أمين على آثار هذه الحماقات المستمرة ، فالكلمات brigand (قاطع طريق) و ribaud (إباحي) و assassins (قاتل) و grivois (خليع) التي كانت تطلق في أول أمرها ، على بعض الكتائب العسكرية ، تدين بمعناها الحالية ، إلى غلظة الأخلاق الحربية واستهتارها » ^(٢) .

وقد ثبت أن « تغيرات المعنى » تخضع لمجموعة من العلاقات والارتباطات ، ولتركيب العقلي للمتكلم بصفة عامة ، فهي لا بد أن تعكس

(٣) اللغة لقنندريس ٢٥٣ - ٢٥٤

(٢) اللغة لقنندريس ٢٦٦

اتجاهات معينة ، لها صفة الثبوت والاطراد ، أو قل إنها تعكس بعض الخواص الأساسية للعقل الإنساني ، فاللامساس (taboo) وحسن التعبير (التفاؤل والبعد عما يتشائم منه) وانحطاط المعنى ، تسير كلها في اتجاهات متشابهة ، تشابها جوهريا في لغات مختلفة . وهذه هي الحال أيضا في الاستعارة والمجاز المرسل ، اللذان يعكسان بعض الخصائص المتماثلة ، ولو لم يكن هناك تأثير متبادل بين هذه اللغات ^(١) .

وأهم مظاهر التطور الدلالي ثلاثة : تخصيص الدلالة ، وتعميم الدلالة ، وتغيير مجال استعمال الكلمة ، أى أن معنى الكلمة يحدث فيه تضيق أو اتساع أو انتقال ^(٢) ، « فهناك تضيق عند الخروج من معنى عام إلى معنى خاص ... وهناك اتساع في الحالة العكسية ، أى عند الخروج من معنى خاص إلى معنى عام ... وهناك انتقال عندما يتعادل المعنيان أو إذا كانا لا يختلفان من جهة العموم والخصوص ، كما في حالة انتقال الكلمة من المحل إلى الحال ، أو من السبب إلى المسبب ، أو من العلامة الدالة إلى الشيء المدلول عليه ... إلخ . ولسنا في حاجة إلى القول بأن الاتساع والتضيق ينشآن من الانتقال في أغلب الأحيان ، وأن انتقال المعنى يتضمن طرائق شتى ، يطلق عليها النحاة أسماء اصطلاحية » ^(٣) ومن هذه الأسماء الاصلاحية : المجاز المرسل (métonymie) والاستعارة (métaphore) وغير ذلك .

(١) دور الكلمة في اللغة ١٨٨

(٢) انظر أمثلة من الإنجليزية لكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة في كتاب : دور

الكلمة في اللغة ١٦٥ - ١٦٦

(٣) اللغة لفندريس ٢٥٦

فإذا أخذنا مثلاً كلمة : bureau السابقة هنا ، نجد أنه لا وجه للشبه بين معنيها : المكتب الذى يجلس إليه الإنسان ويكتب ، والمصلحة الحكومية « ولكن بينهما ارتباطاً من نوع آخر ، فالمكتب الذى نكتب عليه ، يوضع عادة فى الأماكن التى تدار منها الأعمال . وعلى هذا فالفكرتان مرتبطتان ، بعضهما ببعض فى ذهن المتكلم ، أو قل إنهما تنتميان بالمجاز المرسل (metonymy) ، ويظهر هذا المجاز فى صور متعددة فقد يطلق الظرف على المظروف ، أو المحل على الحال ، كما فى نحو : شرب كوباً من الماء ، وبيت الرجل ، والمقصود أهله ، وقد يطلق اسم الأداة أو الآلة على وظيفتها ، أو اسم العلم على آثاره ونتائجه ، كإطلاق اللسان على اللغة ، وإطلاق الكتابة بمعنى العمل ، على الكتابة التى على الحائط مثلاً . وكذلك قد يسمى الشيء باسم مخترعه أو مؤلفه أو مكانه الأصلي ، مثل سندوتش لذيذ ، واشترى فلان قطعة كشمير ^(١) وهو نوع من الصوف ينسب إلى مقاطعة « كشمير » المعروفة .

ومن حالات التخصيص الدلالى « تلك الحالة التى يطلق فيها الاسم العام ، على طائفة خاصة ، تمثل نوعها خير تمثيل فى نظر المتكلم ؛ ذلك أن الإنسان إذا وثق من أن محدثه قادر على فهمه ، أعفى نفسه من استعمال اللفظ الدقيق المحدد ، واكتفى بالتقريب العام ، فعندما يطلب من الفتاة الفلاحة ، أن تدخل (البهائم) ، لم تتردد لحظة فى كون المقصود بها ، البقر الذى لا يزال فى الحقل ؛ لأن البقر فى نظرها هو البهائم بمعنى الكلمة . وبالطبع لو تكلم الراعى أو الحوذى عن البهائم ، كان المقصود بها فى الحالة الأولى الأغنام ، وفى الثانية الخيل . والكلمات العامة لا تكاد تستخدم فى الاستعمال بقيمتها العامة ، اللهم إلا إذا كان ذلك عند الفلاسفة ، فكل

(١) دور الكلمة فى اللغة ١٧٣

واحد من المتكلمين ، يطلقها على نوع خاص من أنواع النشاط . وقد تكلم علماء اللغة عن المعاني المختلفة لكلمة : (عملية) ؛ فإن معناها يختلف تبعاً لما إذا كان الكلام في الجراحة ، أم في المالية ، أم في الفن الحرفي ، أم في شئون الغابات ، أم في الرياضة ، تبعاً لذلك نعرف ، ما إذا كان يدور حول قطع عضو من أعضاء الجسم ، أو عقد صفقة من صفقات البورصة ، أو قيادة كتيبة من الجيش في ميدان القتال ، أو تعليم الأشجار التي يجب أن تقطع ، أو حل مسألة حسابية » (١) .

ومن أمثلة هذا النوع من التطور الدلالي في العربية : تخصيص كلمة : « الطهارة » لمعنى : « الختان » في أذهان الناس ، وتخصيص كلمة : « الحريم » للدلالة على النساء بعد أن كانت تطلق على كل حمى محرم . وكذلك إطلاق كلمة : « العيش » على : « الخبز » في بعض اللهجات العربية الحديثة . وقد ذكر الزبيدي أن عامة الأندلس في القرن الرابع الهجري ، كانوا يطلقون كلمة : « الوادي » على النهر خاصة ، مع أنها في الأصل للبطن المظمئن من الأرض عموماً ، كما كانوا يطلقون « اللحاف » على ذلك الغطاء ، الذي يوضع على الأسرة خاصة ، كما هو شائع الآن في اللهجات الحديثة ، ومعناه في الأصل : « كل ما يلتحف به » (٢) . ومن أمثلة ذلك عصرنا الحاضر : استعمال كلمة : « الصينية » بمعناها المعروف الآن ، وكانت تطلق في الأصل ، على كل ما يرد من بلاد الصين ، وقد حدث هذا التطور الدلالي ، منذ الزمن البعيد ، في تلك الكلمة ؛ فقد قال التعالبي (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ) : « كانت العرب تقول لكل طرفة من الأواني

(١) اللغة لقندريس ٢٥٧ - ٢٥٨

(٢) لحن العوام للزبيدي ٢٤٠ : ٢٤٢

وما أشبهها : صينية ، وقد بقى هذا الاسم الآن على هذه الصواني المعروفة ^(١) .

أما تعميم الدلالة ، فإنه ينحصر « في إطلاق اسم نوع خاص من أنواع الجنس على الجنس كله . وهذه هي حال الاطفال ، الذين يسمون جميع الأنهار ، باسم النهر الذى يروى البلدة التى يعيشون فيها ، هكذا يفعل الطفل الباريسى ، عندما يصيح وقد رأى نهراً : je vois une Seine (أرى سيناً) . وتلك غلطة طفل لا يدوم لها أثر ، ولكن هناك أخطاء مماثلة ، قد استمر بقاؤها ، ففى السلافية الجنوبية ، صار اسم الوردة ، يطلق على الزهرة عموماً ... وقد امتد أثر هذه الواقعة امتداداً جعل كلمة : Blume (زهرة) ، تختفى من اللهجات الألمانية المجاورة ، ويحل محلها كلمة : Rose (أصل معناها : وردة) ، فيقال : Die Wiese ist voll Rosen بمعنى : « الحقل مملوء بالأزهار » ^(٢) .

ويشبه هذا ما حدث فى لهجاتنا العربية الحديثة ، من إطلاق « الورد » على كل « زهر » . ومن أمثلة هذه الظاهرة عندنا كذلك : إطلاق « البأس » على كل شدة ، وهى فى الأصل بمعنى : « الحرب » ، وإطلاق : « البحر » على النهر والبحر .

كما يشبه هذا إطلاق أهل الأندلس ، فى القرن الرابع الهجرى ، كلمة : « البلاط » على البيت المحصن البناء ، وهى فى الأصل للحجارة المفروشة بالأرض ، وجعلهم كلمة : « الاستحمام » للاغتسال بالماء مطلقاً حاراً كان أو بارداً ، وهى فى الأصل للاغتسال بالماء الحميم ، أى الحار ^(٣) ؛ إذ يقال : « ابردت بالماء ، أى صببت علىّ ماءً بارداً واقتدرت به . وقد استحمت به ، إذا صببت عليك ماءً حاراً » ^(٤) . وقد ذكر الحريرى (المتوفى سنة ٥١٦ هـ)

(١) ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبي ٥٤٣

(٢) اللغة لفندريس ٢٥٨

(٣) لحن العوام للزبيدي ٢٢٢ ؛ ٢٥٦

(٤) إصلاح المنطق ٣٧٨

من ذلك : استعمال الناس كلمة : « القافلة » لجماعة الركب مطلقاً راحلة كانت أو قادمة ، وهي في الأصل للرفقة الراجعة ، من الفعل : قَفَلَ بمعنى : « رجع » ^(١) .

ومن ذلك استعمال : (تعال) للأمر بالجيء مطلقاً « وأصلها الأمر لمن كان في سفلى أن يأتي محلاً مرتفعاً ، ثم استعملت لمطلق الجيء » ^(٢) ، قال ابن قتيبة : تعال : تَفَاعَلَ من علوت ، قال الفراء : أصلها : عالٍ إلينا ، وهو من العُلُو ، ثم إن العرب لكثرة استعمالهم إياها صارت عندهم بمنزلة : هَلُم ، حتى استجازوا أن يقولوا للرجل وهو فوق شَرَف : تعال ، أى اهبط ، وإنما أصلها الصعود ^(٣) .

ويشبه خطأ الطفل الباريسى ، في إطلاق اسم « نهر السين » على كل نهر يراه ما حدث لأحد أطفالى ، في أوائل مراحل نموه اللغوى ؛ إذ أطلق كلمة : « العصاية » على كل شئ طويل ، يشبه : « العصا » ، كعمود النور ، والنخلة ، وما شابه ذلك .

أما انتقال الدلالة لغير التخصيص والتعميم ، فمن أمثله استعمال كلمة : « الشجرة » بمعنى : « النخلة » ، و « الطير » بمعنى : « الذباب » ، و « الوغى » بمعنى : « الحرب » ، وأصلها : اختلاط الأصوات في الحرب ، وما إلى ذلك . و « أسماء أجزاء الجسم » تعد الميدان التقليدى لانتقالات المعنى ، فترى عدداً كبيراً منها يتأرجح في اللغات المختلفة ، وينتقل بسهولة من عضو إلى عضو ، أو من جزء إلى جزء آخر ... فأصل واحد هو الذى

(١) درة الغواص في أوهم الخواص ١٧٢

(٢) شفاء الغليل للخفاجى ٥٣

(٣) تأويل مشكل القرآن ٤٢١ وانظر الزاهر لابن الأنبارى ٢٧٧/٢

أعطانا الكلمة اللاتينية : menium (ذقن) والغالية : mant (فك) والألمانية : Mund (فم) أما الكلمة الفرنسية : bouche (فم) ، فقد جاءت من اللاتينية : bucca التى تدل على : الخدّ ^(١) .

ويشبه هذا إطلاقنا : « الشنب » على : « الشارب » ، والشنب هو : ماء الثغر . وكذلك إطلاق المصريين كلمة : « الذقن » على : « اللحية » ، والذقن هو : مجتمع عظام اللحيين من الفك . وكذلك إطلاقهم كلمة : « الصدر » على ثديي المرأة تادباً و « الكعب » على « العقب » ، وهو فى الأصل للعظم الناقى فى مفصل القدم ، وما شابه ذلك .

وذكر الزبيدى (المتوفى ٣٧٩ هـ) أن أهل الأندلس فى القرن الرابع الهجرى كانوا يطلقون « الأطناب » على شقاق القبة المخيطة بها ، وهى فى الأصل : حبال القبة . كما كانوا يسمون الحزام بالقلادة ، وهى فى الأصل للعقد الذى يوضع فى العنق ^(٢) . ويذكر ابن الإمام (المتوفى بعد سنة ٨٢٧ هـ) أن الناس فى عصره كانوا يطلقون على المغنية لفظة : « غانية » والغانية فى الأصل « إنما هى المرأة الجميلة ، كأنها غنيت بجمالها عن الزينة ، أى استغنت » ^(٣) فقد خلطوا بين الفعلين : « غَنَى » بمعنى : « استغنى » ، و « غَنَى » من : الغناء .

كما يذكر الشيخ محمد على الدسوقي أن « استعمال (الجيب) فى الرقعة التى فى جيب القميص والقباء ونحوهما ، مجاز علاقته المجاورة . وفى شفاء الغليل : جيب القميص طوقه . وأما الجيب الذى توضع فيه الدراهم ، فمولد لم تستعمله العرب . صرح به ابن تيمية ^(٤) » .

(١) اللغة لتدريس ٢٦٠

(٢) لحن العوام للزبيدى ٢٠٩ ، ٢١٣

(٣) الجمانة فى إزالة الرطانة ٣٥

(٤) تهذيب الألفاظ العامية ٨٠/١ وانظر كذلك : شفاء الغليل ٣٥

والأصل فى معنى كلمة : « التنزه » ، القرب من الطهارة والبراءة ، ثم انتقل استعمالها عند العرب إلى ما يشبه هذا ، وهو الخروج إلى البساتين والخضر . قال أبو عبيد : « وأصل التنزه : البعد مما فيه الأدناس ، والقرب مما فيه الطهارة والبراءة ... ثم كثر استعمال الناس للتنزه فى كلامهم ، حتى جعلوها فى البساتين والخضر . ومعناه راجع إلى ذلك الأصل ^(١) » .

وقال ابن السكيت عن هذه الكلمة : « ومما تضعه العامة فى غير موضعه قولهم : خرجنا نتنزه ، إذا خرجوا إلى البساتين ، وإنما التنزه التباعده عن المياه والأرياف . ومنه قيل : فلان يتنزه عن الأقدار ، أى يتباعده عنها ^(٢) » .

(١) غريب الحديث لأبى عبيد ٨١/٣ وانظر كذلك : الزاهر ٣٢٦/١

(٢) إصلاح المنطق ٢٨٧ ؛ ٣١٤ وانظر أيضا : الفاخر ١١٦

١٨ - تجديد الألفاظ

أحياناً تبتذل بعض الألفاظ ، ويمجها المجتمع ، ويعافها الذوق ، ومن الألفاظ الدائمة التطور والتغير ، تلك التى تشير إلى التبول والتبرز ، والعملية الجنسية ، وأعضاء التناسل ، فلا يكاد اللفظ منها يشيع ، حتى يمجه الذوق الاجتماعى ، وتأباه الآداب العامة ، فيستعاض عنه بآخر من اللغة نفسها ، أو من لغة أجنبية : « والأسباب الاجتماعية واضحة جداً ، فى تغيير الكلمات مراعاة للياقة ؛ إذ ليس من اللائق أن يتكلم فى أحد المجتمعات ، عن أفعال معروفة بالفظاظة ، أو بأنها مما يجرح الحياء ، وتستبعد الألفاظ التى تعبر عنها ، من بين المفردات التى يستعملها الأشخاص المهذبون ، فالتعبير عن هذه الأفعال ، عبارات متنوعة ، تبقى مستعملة حتى تصير بدورها خشنة ، وجارحة للأذن ... والذى يقطع بكون الكلمة لائقة أو غير لائقة إنما هو العرف ، واللفظ بذاته ، يختلف حاله فى إقليم عنه فى الآخر ، فكلمة : pissoir (مكان البول) فى الألمانية ، أقل منها جرحاً للأذن فى الفرنسية ، لأن استعارة كلمة من الخارج ، تخفف من افتضاح الشيء ، الذى يُعبر بها عنه ، فهى تلعب دور الكناية » (١) .

ويشبه ذلك ما حدث فى العربية ، فى أسماء الحمامات ، وأماكن قضاء الحاجة ، فمنها ما وضع قبل العصر الحديث ، بزمن لا نعرف مداه ، لفقدان الوثائق التى تبين لنا ذلك الزمن ، فى كثير من الأحيان ؛ فمثلاً كلمة : « الكنيف » ، يعيها ابن سنان الخفاجى (فى القرن الخامس الهجرى) فى شعر الشعراء (٢) ؛ فيقول : « ومثل هذا قول عروة بن الورد العبسى :

(١) اللغة لقندريس ٢٨٠

(٢) سر الفصاحة لابن سنان ٨٢

قُلْتُ لِقَوْمٍ فِي الْكَنِيفِ تَرَوُّحُوا عَشِيَّةً بَيْنَنَا عِنْدَمَا وَإِنْ رَزَحُ
وَالْكَنِيفُ أَصْلُهُ السَّاتِرُ . وَمِنْهُ قِيلَ لِلتَّرْسِ : كَنِيفٌ . غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ اسْتَعْمَلَ فِي
الْآبَارِ الَّتِي تَسْتَرُ الْحَدِثَ ، وَشَهَرَ بِهَا ، فَأَنَا أَكْرَهُهُ فِي شَعَرِ عُرْوَةٍ ، وَإِنْ كَانَ
وَرَدَ مُورِداً صَحِيحاً ؛ لِمُوَافَقَةِ هَذَا الْعَرَفِ الطَّارِئِ . عَلَى أَنَّ لِعُرْوَةٍ عِذْراً ، وَهُوَ
جَوَازٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا الِاسْتِعْمَالُ حَدِثَ بَعْدَهُ ، بَلْ لَا أَشْكُ أَنَّهُ كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ
الْعَرَبَ أَهْلَ الْوَبَرِ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ هَذِهِ الْآبَارَ .

هَذَا ، غَيْرَ أَنَّنَا لَا نَعْرِفُ مَتَى اسْتَعْمَلْتَ كَلِمَاتٍ مِثْلَ : « الْمَرْحَاضُ »
و « بَيْتُ الْأَدَبِ » وَ « الْحَمَامِ » وَ « دَوْرَةُ الْمِيَاهِ » وَكُلُّهَا لَا تَرَالُ حَيَةً فِي رَيْفِ
بِلَادِنَا ، حَتَّى يَوْمَنَا هَذَا ، غَيْرَ أَنَّ النَّاسَ فِي الْمَدَنِ ، اسْتَعَارُوا لِلدَّلَالَةِ عَلَى هَذَا
الْمَكَانِ ، كَلِمَاتٍ مِنَ اللُّغَاتِ الْأَجْنِبِيَّةِ ، مِثْلَ « الْكَابِنِيَّةِ » وَ « التَّوَالِيَةِ » ،
وَأَخِيرًا « الدَّبْلْيُوسِي » (W.C) .

وَالْأَلْفَاظُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى التَّبَوُّلِ وَالتَّبَرُّزِ ، هِيَ الْأُخْرَى فِي تَغْيِيرِ مُسْتَمَرٍّ ،
فَفِي الْعَامِيَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِثْلًا : « يَشْتَخُّ » وَ « يَعْمَلُ زَى النَّاسِ » وَ « يَرْوَحُ
الْحَمَامِ » وَ « يَعْمَلُ كَابِنِيَّةً » وَ « يَرْوَحُ التَّوَالِيَةَ » وَمَا إِلَى ذَلِكَ . وَالْأَلْمَانُ
يَقُولُونَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى ذَلِكَ الْآنَ : *Darf ich verschwenden!* وَمَعْنَاهَا حَرْفِيًّا : هَلْ
تَسْمَحُ لِي أَنْ أُخْتَفِىَ ؟ .

وَيَحْكِي ابْنُ فَارَسٍ اللَّغْوِيُّ ، أَنَّهُ قَدْ جَرَى بَيْنَ يَدَيِ الْوَزِيرِ ابْنِ الْعَمِيدِ
« أَسْمَاءُ الْفَرْجِ » وَكَثَرَتْهَا ، فَقَالَ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ : مَاذَا أَرَادَتْ الْعَرَبُ بِتَكْثِيرِهَا
مَعَ قُبْحِهَا ؟ فَقَالَ : لَمَّا رَأَوْا الشَّيْءَ قَبِيحًا ، جَعَلُوا يَكْتُونُ عَنْهُ ، وَكَانَتْ
الْكُنْيَةُ عِنْدَ فَشْوَاهَا تَصِيرُ إِلَى حَدِّ الْأَسْمِ الْأَوَّلِ ، فَيَنْتَقِلُونَ إِلَى كُنْيَةٍ أُخْرَى ،
فَإِذَا اتَّسَعَتْ أَيْضًا رَأَوْا فِيهَا مِنَ الْقُبْحِ ، مِثْلَ مَا كُنُوا عَنْهُ مِنْ أَجْلِهِ . وَعَلَى
هَذَا فَكَثُرَتِ الْكُنْيَايَاتُ ، وَلَيْسَ غَرَضُهُمْ تَكْثِيرُهَا ^(١) .

(١) مثالب الوزيرين ، لأبي حيان التوحيدي ٢٥٤

ومعنى هذا الكلام أن « الابتذال في الألفاظ ، وما تدل عليه ، ليس وصفا ذاتيا ، ولا عرضا لازما ، بل لاحقا من اللواحق المتعلقة بالاستعمال في زمان دون زمان ، وصقع دون صقع ^(١) » .

« والواقع أن الثروة الطائلة من المترادفات ، التي ولدتها جميع اللغات لتخفيف صدمة الموت ووقعه على النفس ، إنما ترجع إلى قانون الاستهلاك بكثرة الاستعمال ، والحاجة الدائمة إلى التجديد ، وليس دور هذا القانون في هذا المضمار ، بأقل من دور الموت نفسه ، ذلك المجال الذي يضطرنا إلى التنويع والتجديد في اصطلاحاته ، بسبب ماله من تأثير عاطفى ^(٢) .

وبعض الألفاظ يصاب بما يشبه « الحظر » على استعمالها في المجتمع ، لأن الناس يتشاءمون من ذكرها ، فيستبدلون بها كلمات أخرى ، كاستعمالهم « المبروكة » للحمى ، و « المرض الخبيث » للسرطان .

وهذه الظاهرة هي ما يطلق عليه اسم « اللامساس » أو « الحظر » ، وهو ترجمة لكلمة : taboo وتطلق على كل ما هو مقدس ، أو ملعون ، يحرم لمسه ، أو الاقتراب منه ، من الأشياء وأسمائها ؛ بسبب الاعتقاد الخرافى فى سحر الكلمة ، « فإذا ما اصطدمت كلمة ما بحظر الاستعمال ، تحت تأثير عامل اللامساس ، حلت محلها كلمة أخرى خالية من فكرة الضرر والأذى . وهذه العادة ليست مقصورة بحال من الأحوال على المجتمعات البدائية ، فهي معروفة فى كل البيئات ، وفى كل أنواع الحضارات بمستوياتها المختلفة . وتحريم استعمال الكلمات بتأثير فكرة اللامساس ، نتيجة طبيعية للخرافات اللغوية وأثر من آثار الاعتقاد فى سحر الكلمة ^(٣) .

(١) الزهر ١٩١/١ ومنهاج البلقاء (ملحق) ص ٣٨٦

(٢) دور الكلمة فى اللغة ١٨٢

(٣) دور الكلمة فى اللغة ١٧٧

ونحن نعرف في الديانة اليهودية أن كلمة : « يهوه » في العبرية ، بمعنى : الإله ينطقها اليهود : « أذوناي » بمعنى : « سادق » ؛ بسبب الخوف الذي يسيطر عليهم ، لارتباط الاسم القديم بالكوارث واللعنات ، التي حلت عليهم ، خلال تاريخ اليهود الطويل ^(١) .

« وهناك عادات مماثلة ، نلاحظها في المأثورات الشعبية ، لكثير من الأجناس والأمم ، ففي بلاد المجر في العصور الوسطى ، كان الأطفال يسمون أحيانا بأسماء وقائية ، كأن يدعى الواحد منهم : (بالموت الصغير) ، أو (ليس حيا) ، أو (القذارة) ، أو (الوسخ) ؛ وذلك لصرف الأرواح الشريرة عن هذه المخلوقات ... وعندنا نحن من العادات الخرافية والخزعبلات ، ما يعكس هذه الرهبة العميقة الجذور : رهبة تأثير الكلمة ، وسحرها العجيب » ^(٢) .

« ولا ينحصر الأثر الناجم من تحريم المفردات ، في استبدال كلمة مكان كلمة فحسب ، بل يتعداه أيضا إلى تشويه الكلمات الموجودة ، فتغيير حرف من الكلمة ، أو نقله ، يخفف ما ينطوى عليه من الخطر ، أو مما لا يليق ، دون أن ينقص ذلك من قيمتها الدلالية . وفي استطاعة كل إنسان في هذه الحال ، أن يفهم المراد على الفور ، فالحجاب لا يستر إلا الجهات الجارحة والمؤذية للحياة ، ويشف عن معالم الكلمة الكبرى ، ولونها العام ، ونرى الشتائم في كثير من اللغات ، تصاب بشيء من التشويه المقصود ، الذي يمكن من إدخالها في أرقى الأوساط » ^(٣) .

(١) انظر : اللغة العبرية ، للدكتور رمضان عبد التواب ٧٥

(٢) دور الكلمة في اللغة ١٧٨

(٣) اللغة لتأديس ٢٨٢

ويكفى أن نذكر هنا بالتشويه الحاصل في عبارة : « ينعل ديكك »
ففيها القلب المكاني في الكلمة الأولى ، وتغيير بعض معالم الكلمة الثانية ،
غير أن دلالة العبارة على معناها ، لا تزال كاملة ، ومثل ذلك تشويها للعبارة
التي نتشاءم من ذكرها ، كقولنا : « يا نهار اسوح » أو « يا نهار احوس »
أو « يا نهار اسوخ » ، بدلا من : « يا نهار اسود » !

وقد دلنا الفراء على أن ذلك مذهب العرب قديما ، في الكلمات
والعبارات التي يستقبحونها ، فيعمدون إلى تشويها ، بتغيير بعض أصواتها ،
للتخفيف من حدة وقعها على السمع ؛ يقول الفراء : « ومن كلام العرب أن
يقولوا : قاتله الله ، ثم يستقبحونها ، فيقولون : قاتعة وكاتعة ، ويقولون : جوعاً ،
دعاء على الرجل ، ثم يستقبحونها فيقولون : جوداً ، وبعضهم : جوساً
ومن ذلك قولهم : ويحك وويسك ، إنما هي : ويلك ، إلا أنها دونها بمنزلة ما
مضى » (١) .

١٩ - الأعراب وترتيب أجزاء الجملة

تختلف - في ترتيب الكلمات داخل الجملة - تلك اللغات التي تلحق بكلماتها ، علامة معينة (Morphem) للدلالة على وظيفتها في الجملة ، وهى تلك العلامة التى نسميها الإعراب - عن اللغات التى لا تستخدم مثل هذه العلامة ، والنوع الأول تمتاز الكلمات فيه ، بحرية الحركة فى داخل الجمل ؛ فمثلا اللغة اللاتينية تلحق بكلماتها تلك المورفيمات الإعرابية ، لذلك يمكن أن يقال فيها عبارة مثل عبارة : « بيت الملك » بطريقتين مختلفتين : (domus regis) أو (regis domus) فكلمة domus بمعنى : « بيت » فى حالة رفع ، وكلمة : regis بمعنى : « ملك » فى حالة جر !

أما الفرنسية ، وهى لغة متطورة عن اللاتينية ، فإنها لا تستخدم الجملة السابقة إلا بصورة واحدة هى : la maison du roi وترجمتها الحرفية : « البيت بتاع الملك » . ومع فقدان الفرنسية لعلامات الإعراب اللاتينية ، فى هذه الجملة ، فإنها استعاضت عنها بعلامتين أخريين ، للدلالة على علاقة الملكية ، هما (la) وهى أداة التعريف (ال) و (du) بمعنى : (بتاع) فى العامية المصرية . و « على العكس من ذلك ، توجد لغات ، لا يعبر فيها عن هذه العلاقة ، إلا بمكان كل من الكلمتين بالنسبة للأخرى فيقال فى الغالية مثلا : ti brenhin (ti منزل + brenhin ملك) ، مع وضع المالك دائما بعد الشيء المملوك . ويقال فى الصينية : wang tien (wang ملك + tien بيت) ، مع وضع الشيء المملوك بعد المالك ، على عكس المثال السابق ، وفى كلتا هاتين اللغتين ، لا يعبر عن علاقة التبعية ، بأية علامة خارجية ، ولا يشار إليها إلا بترتيب وضع الكلمات ، الذى يجب لذلك بالطبع أن يكون ثابتاً ، لا يعتريه تغيير . فاللغات التى فقدت إعراب الحالات على وجه عام ، استعاضت فى تأدية العلاقات ، التى كان يعبر عنها

بالإعراب إما بكلمات مساعدة (حروف جر أو أدوات أو غير ذلك) ، وإما بوضع كل كلمة بالنسبة للكلمات الأخرى » (١) .

ولقد كانت جملة مثل : « بطرس يضرب بولس » تقال في اللاتينية بأربعة أوجه هي : Petrus caedit Paulum « بطرسُ يضرب بولسَ » أو : Paulum caedit Petrus « بطرسُ بولسُ يضرب » أو : Paulum Petrus caedit « بولسُ بطرسُ يضرب » . وقد بقي من الوجوه الستة الممكنة في هذه الجملة : وجهان يتقدم فيهما الفعل : caedit ، غير أن الذى منع من ذلك في اللاتينية عدم وجود النظام الفعلى في جملها ، أى الجمل التى تبدأ بفعل في أولها .

وإذا قارنا اللاتينية بالفرنسية المتطورة عنها ، نجد الجملة السابقة ، لزمّت حالة واحدة في ترتيب كلماتها ؛ إذ يقال في الفرنسية مثلاً : Pierre frappé Paul « بيار يضرب يول » ، بتقديم الفاعل فالفعل فالمفعول .

وهذا يماثل ما حدث في العربية تماماً ؛ فقد كانت الجملة العربية ، تظفر بحرية كبيرة إلى حد ما ، في ترتيب أجزائها ، بسبب وجود الإعراب في الفصحى ، والاكتفاء به في كثير من الأحيان ، للدلالة على وظيفة الكلمة في الجملة ، ومن هنا تعددت أشكال الجملة العربية من ناحية موقع كل جزء فيها ؛ فجملة مثل : « ضرب محمد عليا » يمكن أن تقال في العربية الفصحى ، بأوجه أخرى ؛ مثل : « ضرب عليا محمد » أو « محمد ضرب عليا » أو « عليا ضرب محمد » ، تبعاً لاختلاف المقصود من الكلام ، والجزء الذى يعنى المتحدث إبرازه والاهتمام به ، أكثر من غيره .

وقد ساعد على هذه الحرية في بناء الجملة العربية ، وجود الإعراب ،

فلما فقد هذا الإعراب ، كان الواجب أن يلزم بناء الجملة نظاماً واحداً ، وهو ما حدث في اللهجات العربية الحديثة ، فإن جملة : « ضرب محمد علياً » مثلاً ، أصبحت في اللهجات الحديثة : « محمد ضرب علي » ، بتقديم الفاعل ، والتثنية بالفعل ، ثم الإتيان بالمفعول به .

وفي ذلك يقول أنطوان ميه : « وجود إعراب غنى بالحالات ، بحيث يكفي للعبارة عما هو ضروري لبناء الجملة - يعنى من الاعتماد على قواعد الترتيب . وعلى العكس من ذلك ، يجب أن تكون هناك قواعد دقيقة لترتيب الكلمات ، عندما لا يوجد أى عنصر من عناصر الإعراب ، كما هو الحال في اللغة الصينية ، أو عندما لا يوجد إلا عدد محدود كما هي الحال في الفرنسية » ^(١) .

كما يقول ماريو پاى ^(٢) : في لغات معينة كالصينية مثلاً ، يحتل نظام الجملة مكاناً هاماً ، نظراً لعدم وجود مورفيمات الإعراب ، وفي لغات أخرى كاللاتينية ، يلعب نظام الجملة دوراً ثانوياً بسيطاً ، حيث إن المعدات الصرفية ، المتمثلة في النهايات التصريفية ، توجه اهتماماً إلى معظم المشاكل المتعلقة بالتغيرات التي تؤثر في المعنى ، وفي معظم اللغات الغربية الحديثة ، يوجد مزيج من النوعين ، وهو مزيج غير محتاج إليه في بعض الأحيان .

وفي الجملة الإنجليزية : John hit George لا يدل السامع على الضارب والمضروب هنا ، إلا نظام الجملة لا غير ؛ وفي : He hit me نجد دليلين اثنين ، فإن He لم تأت في موقع محجوز دائماً للفاعل فحسب ، بل تدل كذلك بصيغتها (he وليس him) على الفاعلية ، وفي الوقت نفسه جاءت me في

(١) علم اللسان لأنطوان ميه ٤٤٧

(٢) أسس علم اللغة ٥٤

الوضع المعتاد المخصص للمفعول ، ودلت على المفعولية كذلك بصيغتها
(me وليست I) .

وإذا أدخلنا في الاعتبار لغات أخرى ، وأردنا المقارنة ، نجد أنه في
الصينية ، ليس من الممكن إلا أن نقول : He hit I بدون تغيير الضمير
لاختلاف محله ، وحينئذ فموقعية الضمير وحدها ، هي التي تبين الفاعل من
المفعول .

وعلى خلاف ذلك ، نجد اللاتينية تستخدم الصور التالية للجملة
السابقة : Me hit he و Hit he me و Hit me he وكذلك في الحالات التي تحل
فيها الأسماء الظاهرة محل الضمائر ، اعتماداً على ما تحويه تلك الأسماء من
نهايات معينة تشير إلى الفاعل والمفعول .

مراجِعُ الكِتَابِ

١ - المراجع العربية

- ١ - أبحاث في اللغة العربية ، للدكتور داود عبده - بيروت ١٩٧٣ م .
- ٢ - الإبدال ، لأبى الطيب اللغوى - تحقيق عز الدين التنوخى - دمشق ١٩٦٠ م .
- ٣ - أبنية الفعل في اللغات السامية ، للدكتور رمضان عبد التواب - مجلة كلية اللغة العربية بالرياض (العدد الرابع) ١٩٧٤ م .
- ٤ - الإتيان في علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطى - القاهرة ١٣٦٨ هـ .
- ٥ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، للمقدسى - نشر دى غوييه - ليدن ١٩٠٦ م .
- ٦ - الإحكام في أصول الأحكام ، لابن حزم - القاهرة (بلا تاريخ) .
- ٧ - أخطاؤنا في الصحف والدواوين ، لصلاح سعدى الزعبلوى - دمشق ١٩٣٩ م .
- ٨ - أدب الكاتب ، لابن قتيبة الدينورى - تحقيق جرونرت - ليدن ١٩٠٠ م .
- ٩ - الأذكياء ، لأبى الفرج بن الجوزى - تحقيق الدكتور محمد الخولى - القاهرة ١٩٧٠ م .
- ١٠ - أساس البلاغة ، للزمخشري - طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٢ م .
- ١١ - أسس علم اللغة ، لماريوى - ترجمة الدكتور أحمد مختار عمر - طرابلس ليبيا ١٩٧٣ م .
- ١٢ - الأشباه والنظائر في النحو ، لجلال الدين السيوطى - حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥٩ هـ .
- ١٣ - الاشتقاق ، لابن السراج - تحقيق محمد صالح التكريتى - بغداد ١٩٧٣ م .
- ١٤ - إصلاح المنطق ، لابن السكيت - تحقيق أحمد شاكر وهارون - القاهرة ١٩٥٦ م .
- ١٥ - الأصمعيات ، للأصمعى - تحقيق أحمد شاكر وهارون - القاهرة ١٩٥٥ م .

- ١٦ - الأصوات اللغوية ، للدكتور إبراهيم أنيس - القاهرة ١٩٥٠ م .
- ١٧ - الأصول في النحو ، لابن السراج - تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلي - بيروت ١٩٨٥ م .
- ١٨ - أصول الكلمات العامية ، لحسن توفيق العدل - القاهرة ١٨٩٩ م .
- ١٩ - الأضداد ، لأبي بكر بن الأنباري - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - الكويت ١٩٦٠ م .
- ٢٠ - إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، لابن خالويه - تحقيق عبد العزيز الميمنى - القاهرة ١٩٤١ م .
- ٢١ - إعراب القرآن ، للنحاس ، تحقيق الدكتور زهير غازي زاهد - بغداد ١٩٧٧ م .
- ٢٢ - إعراب القرآن ، المنسوب للزجاج - تحقيق إبراهيم الإياري - القاهرة ١٩٦٣ م .
- ٢٣ - الأغاني ، لأبي الفرج الإصفهاني - بولاق ١٢٨٥ هـ .
- ٢٤ - الإفادة والاعتبار ، لعبد اللطيف البغدادى - تحقيق الدكتور علي محسن مال الله - بغداد ١٩٨٧ م .
- ٢٥ - الأفعال ، للسرقسطي - تحقيق الدكتور حسين شرف - القاهرة ١٩٧٥ م وما بعدها .
- ٢٦ - الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ، للبطلبوسى - نشر عبد الله البستاني - بيروت ١٩٠١ م .
- ٢٧ - ألف باء ، للبلوى - القاهرة ١٢٧٨ هـ .
- ٢٨ - ألفاظ عامية فصيحة ، للدكتور داود التنير - القاهرة ١٩٨٧ م .
- ٢٩ - الألفاظ الفارسية المعربة ، للسيد أدى شير - بيروت ١٩٠٨ م .
- ٣٠ - الأمالي ، لابن الشجرى - حيدرآباد الدكن بالهند ١٣٤٩ هـ .
- ٣١ - الأمالي ، لأبي علي القالى - بولاق ١٣٢٤ هـ .
- ٣٢ - الأمثال ، لأبي عكرمة الضبي - تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب - دمشق ١٩٧٤ م .

- ٣٣ - الأمثال العربية القديمة ، للمستشرق الألماني رودلف زهايم - ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب - بيروت ١٩٧١ م .
- ٣٤ - إنباه الرواة على أنباه النحاة ، للقفطى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٥٠ - ١٩٧٣ م .
- ٣٥ - الإنصاف فى مسائل الخلاف ، لأبى البركات بن الأنبارى - تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٥٣ م .
- ٣٦ - الإيضاح العضدى ، لأبى على الفارسى - تحقيق الدكتور حسن شاذلى فرهود - القاهرة ١٩٦٩ م .
- ٣٧ - إيضاح الوقف والابتداء فى كتاب الله عز وجل ، لأبى بكر بن الأنبارى - تحقيق محبى الدين رمضان - دمشق ١٩٧١ م .
- ٣٨ - البحر المحيط ، لأبى حيان الأندلسى - مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٨ هـ .
- ٣٩ - بحوث ومقالات فى اللغة ، للدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٨٨ م .
- ٤٠ - البديع ، لابن المعتز - تحقيق كراتشكوفسكى - لندن ١٩٣٥ م .
- ٤١ - بغية الوعاة ، للسيوطى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٦٤ - ١٩٦٥ م .
- ٤٢ - البيان فى غريب إعراب القرآن ، لأبى البركات بن الأنبارى - تحقيق الدكتور طه عبد الحميد طه - القاهرة ١٩٧٠ م .
- ٤٣ - البيان والتبيين ، للجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٩٤٨ - ١٩٥٠ م .
- ٤٤ - تأويل مشكل القرآن ، لابن قتبية - تحقيق السيد أحمد صقر - القاهرة ١٩٥٤ م .
- ٤٥ - تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية ، لحفى ناصف - القاهرة ١٩٥٨ م .
- ٤٦ - تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، للخطيب البغدادى - القاهرة ١٩٣١ م .
- ٤٧ - تاريخ العرب قبل الإسلام ، للأصمعى - تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين - بغداد ١٩٥٩ م .
- ٤٨ - تاريخ مصر ، للمسيحى - تحقيق أيمن فؤاد سيد - القاهرة ١٩٧٧ م .

- ٤٩ - تثقيف اللسان وتلقيح الجنان ، لابن مكي الصقلي - تحقيق عبد العزيز مطر - القاهرة ١٩٦٧ م .
- ٥٠ - تخريج الدلالات السمعية ، للخزاعي التلمساني - تحقيق الشيخ أحمد أبو سلامة - القاهرة ١٩٨٠ م .
- ٥١ - تذكرة الكاتب ، لأسعد داغر - القاهرة ١٩٢٣ م .
- ٥٢ - تذكرة النحاة ، لأبي حيان الأندلسي - تحقيق الدكتور عفيف عبد الرحمن - بيروت ١٩٨٦ م .
- ٥٣ - التذكير والتأنيث في اللغة ، للدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٦٧ م .
- ٥٤ - تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، لابن مالك - تحقيق محمد كامل بركات - القاهرة ١٩٦٧ م .
- ٥٥ - تصحيح التصحيف وتحريف التحريف ، للصفدي - تحقيق السيد الشرقاوى ومراجعة الدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٨٧ م .
- ٥٦ - تصحيح الفصيح ، لابن درستويه - تحقيق عبد الله الجبوري - بغداد ١٩٧٥ م .
- ٥٧ - التطور النحوى ، للمستشرق برجستراسر - أخرجه وصححه وعلق عليه الدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٨٢ م .
- ٥٨ - تفسير الطبرى = جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، للطبرى - القاهرة ١٣٢١ هـ .
- ٥٩ - تقويم اللسان ، لابن الجوزى - تحقيق عبد العزيز مطر - القاهرة ١٩٦٨ م .
- ٦٠ - التكملة فيما يلحن فيه العامة ، للجوالقى - نشر ديرنبورج - ليزر ١٨٧٥ م .
- ٦١ - التنبيه على غلط الجاهل والنبه ، لابن كمال باشا - نشر لاندبرج - لندن ١٨٨٩ م .
- ٦٢ - تهذيب الألفاظ العامية ، للشيخ محمد على الدسوقي - القاهرة ١٩٢٠ - ١٩٢٣ م .
- ٦٣ - تهذيب اللغة ، لأبى منصور الأزهري - تحقيق عبد السلام هارون وآخرين - القاهرة ١٩٦٤ - ١٩٦٧ م .
- ٦٤ - التيسير في القراءات السبع ، لأبى عمرو الدانى - استانبول ١٩٣٠ م .

- ٦٥ - ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، للثعالبي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٦٥ م .
- ٦٦ - الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ، للخطيب البغدادي - تحقيق الدكتور محمود الطحان - الرياض ١٩٨٣ م .
- ٦٧ - الجمانة في إزالة الرطانة ، لابن الإمام - تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب - القاهرة ١٩٥٣ م .
- ٦٨ - الجمل ، للزجاجي - نشر العلامة ابن أبى شنب - باريس ١٩٥٧ م .
- ٦٩ - الجيم ، لأبى عمرو الشيباني - تحقيق إبراهيم الإياري وآخرين - القاهرة ١٩٧٤ - ١٩٧٥ م .
- ٧٠ - حلية الأولياء ، لأبى نعيم الإصفهاني - القاهرة ١٩٣٢ - ١٩٣٨ م .
- ٧١ - الحماسة البصرية ، لصدر الدين البصري - تحقيق مختار الدين أحمد - حيدرآباد الدكن بالهند ١٩٦٤ م .
- ٧٢ - حاسة ابن الشجرى - تحقيق عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصى - دمشق ١٩٧٠ م .
- ٧٣ - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ، لابن تغرى بردى - تحقيق فهم شلتوت - القاهرة ١٩٨٩ م .
- ٧٤ - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، لعبد القادر البغدادي - بولاق ١٢٩٩ هـ .
- ٧٥ - الخصائص ، لابن جنى - تحقيق محمد على النجار - القاهرة ١٩٥٢ - ١٩٥٦ م .
- ٧٦ - خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، للخزرجي - القاهرة ١٣٢٢ هـ .
- ٧٧ - دراسات لغوية ، للدكتور عبد الصبور شاهين - القاهرة ١٩٧٦ م .
- ٧٨ - درة الغواص في أوهام الخواص ، للحريري - مطبعة : الجوائب باستانبول ١٢٩٩ هـ .

- ٧٩ - الدرر اللوامع على مع الهوامع ، لأحمد بن الأمين الشنقيطي - القاهرة ١٣٢٨ هـ .
- ٨٠ - دروس في علم أصوات العربية ، لجان كانتينو - ترجمة صالح القرملاوي - تونس ١٩٦٦ م .
- ٨١ - دفع الإصر عن كلام أهل مصر ، للشيخ يوسف المغربي - نشره مصورا الدكتور عبد السلام عواد - موسكو ١٩٦٨ م .
- ٨٢ - دلالة الألفاظ ، للدكتور إبراهيم أنيس - القاهرة ١٩٥٨ م .
- ٨٣ - دور الكلمة في اللغة ، لأولمان - ترجمة الدكتور كمال بشر - القاهرة ١٩٦٢ م .
- ٨٤ - ديوان الأخطل - نشر أنطون صالحاني - بيروت ١٨٩١ م .
- ٨٥ - ديوان أوس بن حجر - تحقيق محمد يوسف نجم - بيروت ١٩٦٠ م .
- ٨٦ - ديوان جرير بن عطية الخطفي - نشر محمد إسماعيل الصاوي - القاهرة ١٩٥٣ م .
- ٨٧ - ديوان جرير ، بشرح محمد بن حبيب - تحقيق نعمان أمين طه - القاهرة ١٩٦٩ م .
- ٨٨ - ديوان خفاف بن ندبة السلمي - تحقيق الدكتور نوري القيسي - بغداد ١٩٦٧ م .
- ٨٩ - ديوان رؤية بن العجاج - تحقيق أهلورت - ليزج ١٩٠٣ م .
- ٩٠ - ديوان الطرماح بن حكيم - تحقيق كرنكو - لندن ١٩٢٧ م .
- ٩١ - ديوان عمرو بن قميئة - تحقيق حسن كامل الصيرفي - القاهرة ١٩٦٥ م .
- ٩٢ - ديوان كثير عزة - تحقيق إحسان عباس - بيروت ١٩٧١ م .
- ٩٣ - ديوان أبي محجن الثقفي - تحقيق امتياز علي عرشي - مجلة ثقافة الهند في سبتمبر ١٩٥٢ م .
- ٩٤ - ديوان مزاحم العقيلي - نشر كرنكو - لندن ١٩٢٠ م .
- ٩٥ - ذيل فصيح ثعلب ، لعبد اللطيف البغدادي - نشر محمد عبد المنعم خفاجي (ضمن كتاب : فصيح ثعلب والشروح التي عليه) - القاهرة ١٩٤٩ م .

- ٩٦ - ذيل مرآة الزمان ، للبيونيني - حيدرآباد الدكن بالهند ١٩٥٤ وما بعدها .
- ٩٧ - الركام اللغوى للظواهر المندثرة فى اللغة ، للدكتور رمضان عبد التواب - المجلة العربية (السنة الثانية) العدد الأول - الرياض ١٩٧٧ م .
- ٩٨ - الزاهر فى معانى كلمات الناس ، لأبى بكر بن الأنبارى - تحقيق الدكتور حاتم الضامن - بغداد ١٩٧٩ م .
- ٩٩ - الزينة فى الكلمات الإسلامية العربية ، لأبى حاتم الرازى - تحقيق حسين الحمدانى - القاهرة ١٩٥٧ - ١٩٥٨ م .
- ١٠٠ - السبعة فى القراءات ، لابن مجاهد - تحقيق الدكتور شوقى ضيف - القاهرة ١٩٧٢ م .
- ١٠١ - سر صناعة الإعراب ، لابن جنى - تحقيق مصطفى السقا وآخرين - القاهرة ١٩٥٤ م .
- ١٠٢ - سر الفصاحة ، لابن سنان الخفاجى - نشر عبد المتعال الصعيدى - القاهرة ١٩٥٣ م .
- ١٠٣ - سيرة ابن هشام = السيرة النبوية ، لابن هشام - نشر قسطنفد - ليدن ١٨٦٠ م .
- ١٠٤ - شرح أشعار الهذليين ، للسكرى - تحقيق عبد الستار فراج - القاهرة ١٩٦٥ م .
- ١٠٥ - شرح الأشموى على ألفية ابن مالك - مطبعة عيسى الحلبي بالقاهرة (بلا تاريخ) .
- ١٠٦ - شرح التسهيل ، لابن مالك - تحقيق الدكتور عبد الرحمن السيد - القاهرة ١٩٧٤ م .
- ١٠٧ - شرح التصريف الملوكى ، لابن يعيش - تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة - حلب ١٩٧٣ م .
- ١٠٨ - شرح الشافية ، للأسترايادى - تحقيق محمد الزفزاف وآخرين - القاهرة ١٣٥٦ هـ .

- ١٠٩ - شرح شواهد الشافية ، لعبد القادر البغدادي - تحقيق محمد الزفراف وآخرين - القاهرة ١٣٥٦ هـ .
- ١١٠ - شرح الفصيح للهروي - تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي (ضمن : فصيح ثعلب والشروح التي عليه) - القاهرة ١٩٤٩ م .
- ١١١ - شرح كتاب سيبويه ، للسيرافي - مخطوط بدار الكتب المصرية - برقم ٥٢٨ نحو تيمور .
- ١١٢ - شرح مرايح الأرواح ، لديكنقوز - القاهرة ١٩٣٧ م .
- ١١٣ - شرح ابن يعيش لمفصل الزنجشري - المطبعة المنيرية بالقاهرة (بلا تاريخ) .
- ١١٤ - شعراء عباسيون ، للمستشرق فون جرنباوم - ترجمة الدكتور محمد يوسف نجم - بيروت ١٩٥٩ م .
- ١١٥ - شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل ، لشهاب الدين الخفاجي - القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- ١١٦ - شواهد التوضيح ، لمشكلات الجامع الصحيح ، لابن مالك النحوي - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - القاهرة ١٩٥٧ م .
- ١١٧ - الصاحبى فى فقه اللغة ، لابن فارس - تحقيق مصطفى الشومى - بيروت ١٩٦٣ م .
- ١١٨ - الصاهل والشاحج ، لأبى العلاء المعرى - تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن - القاهرة ١٩٧٥ م .
- ١١٩ - الصحاح = تاج اللغة وصحاح العربية ، للجوهري - تحقيق أحمد عبد الغفور عطار - القاهرة ١٩٥٦ م .
- ١٢٠ - الصعقة الغضبىة فى الرد على منكرى العربية ، لابن عبد القوى الحنبلى - تحقيق الدكتور إبراهيم الإدكاوى - القاهرة ١٩٨٦ م .
- ١٢١ - طبقات الشافعية الكبرى ، للسبكى - تحقيق عبد الفتاح الحلوى ومحمود الطناحى - القاهرة ١٩٦٣ وما بعدها .
- ١٢٢ - طبقات النحويين واللغويين ، لأبى بكر الزبيدى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٥٤ م .

- ١٢٣ - ظاهرة المخالفة الصوتية ودورها في نمو المعجم العربى ، للدكتور أحمد عبد المجيد هريدى - القاهرة ١٩٨٩ م .
- ١٢٤ - عبث الوليد ، لأبى العلاء المعرى - القاهرة ١٩٧٠ م .
- ١٢٥ - غرات اللسان فى اللغة ، لعبد القادر المعرى - دمشق ١٩٤٩ م .
- ١٢٦ - العربية ، دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب ، ليوهان فك ، مع تعليقات المستشرق الألماني شبيتالر - ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٨٠ م .
- ١٢٧ - العربية ، لهنرى فليش - ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين - بيروت ١٩٦٦ م .
- ١٢٨ - العربية فى السودان ، للأمين الضير - بيروت ١٩٦٧ م .
- ١٢٩ - علم اللسان ، لأنطوان ميه - ترجمة محمد مندور (ضمن : النقد المنهجى عند العرب) - القاهرة ١٩٦٩ م .
- ١٣٠ - علم اللغة ، للدكتور على عبد الواحد وافي - القاهرة ١٩٦٢ م .
- ١٣١ - علم اللغة ، للدكتور كمال بشر - القاهرة ١٩٧٠ م .
- ١٣٢ - العين ، للخليل بن أحمد الفراهيدى - تحقيق الدكتور عبد الله درويش - بغداد ١٩٦٧ م .
- ١٣٣ - العين ، للخليل بن أحمد الفراهيدى - تحقيق الدكتور مهدي الخزومى والدكتور إبراهيم السامرائى - بغداد ١٩٨٠ - ١٩٨٥ م .
- ١٣٤ - عيون الأخبار ، لابن قتيبة الدينورى - القاهرة ١٩٢٨ - ١٩٣٠ م .
- ١٣٥ - غاية النهاية فى طبقات القراء ، لابن الجزرى - تحقيق برجشتراسر ويرتسل - القاهرة ١٩٣٢ - ١٩٣٥ م .
- ١٣٦ - غرائب اللغة العربية ، للأب رفائيل نخلة اليسوعى - بيروت ١٩٦٠ م .
- ١٣٧ - غريب الحديث ، لأبى عبيد القاسم بن سلام - حيدرآباد الدكن ١٩٦٤ م .
- ١٣٨ - غريب الحديث ، لابن قتيبة الدينورى - تحقيق الدكتور عبد الله الجبورى - بغداد ١٩٧٧ م .

- ١٣٩ - الفائق في غريب الحديث ، للزمخشري - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم -
القاهرة ١٩٤٥ - ١٩٤٨ م .
- ١٤٠ - الفاخر ، للمفضل بن سلمة - نشر عبد العليم الطحاوي - القاهرة ١٩٦٠ م .
- ١٤١ - الفاضل ، لأبي العباس المبرد - تحقيق عبد العزيز الميمنى - القاهرة ١٩٥٦ م .
- ١٤٢ - فصول في فقه العربية ، للدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٨٠ م .
- ١٤٣ - فصيح ثعلب والشروح التي عليه - نشر محمد عبد المنعم خفاجي -
القاهرة ١٩٤٩ م .
- ١٤٤ - فعلت وأفعلت ، لأبي حاتم السجستاني - تحقيق الدكتور خليل إبراهيم
العطية - بغداد ١٩٧٩ م .
- ١٤٥ - فقه اللغات السامية ، لكارل بروكلمان - ترجمة الدكتور رمضان
عبد التواب - الرياض ١٩٧٧ م .
- ١٤٦ - الفلسفة اللغوية ، لجرجي زيدان - مراجعة الدكتور مراد كامل -
دار الهلال بالقاهرة (بلا تاريخ) .
- ١٤٧ - في قواعد الساميات ، للدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٨٣ م .
- ١٤٨ - في اللهجات العربية ، للدكتور إبراهيم أنيس - القاهرة ١٩٥٢ م .
- ١٤٩ - قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، لأحمد أمين - القاهرة ١٩٥٣ م .
- ١٥٠ - القاموس المحيط ، للفيروزابادى - القاهرة ١٩١٣ م .
- ١٥١ - القلب والإبدال ، لابن السكيت - نشر هفتر (ضمن : الكنز اللغوى)
- بيروت ١٩٠٣ م .
- ١٥٢ - الكامل في اللغة والأدب ، للمبرد - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم
والسيد شحاتة - القاهرة ١٩٥٦ م .
- ١٥٣ - الكتاب ، لسيبويه - بولاق ١٣١٦ - ١٣١٧ هـ .
- ١٥٤ - كراهة توالى الأمثال في أبنية العربية ، للدكتور رمضان عبد التواب - مجلة
المجمع العلمي العراقى (الجزء الثامن عشر) ١٩٦٩ م .
- ١٥٥ - لحن العامة والتطور اللغوى ، للدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٦٧ م .

- ١٥٦ - لحن العوام ، لأبى بكر الزبيدى - تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب -
القاهرة ١٩٦٤ م .
- ١٥٧ - لسان العرب ، لابن منظور الإفريقى - بولاق ١٣٠٠ - ١٣٠٧ هـ .
- ١٥٨ - لغات البشر ، لما ريوياى - ترجمة الدكتور صلاح العرنى - القاهرة ١٩٧٠ م .
- ١٥٩ - اللغة ، لفندريس - ترجمة عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص - القاهرة
١٩٥٠ م .
- ١٦٠ - اللغة بين المعيارية والوصفية ، للدكتور تمام حسان - القاهرة ١٩٥٨ م .
- ١٦١ - اللغة العربية ، قواعد ونصوص ومقارنات ، للدكتور رمضان عبد التواب -
القاهرة ١٩٧٧ م .
- ١٦٢ - اللغة والتطور ، للدكتور عبد الرحمن أيوب - القاهرة ١٩٦٤ م .
- ١٦٣ - اللغة والمجتمع ، للدكتور على عبد الواحد وافي - القاهرة ١٩٤٦ م .
- ١٦٤ - لغويات ، للشيخ محمد على النجار - القاهرة (بلا تاريخ) .
- ١٦٥ - اللهجة العامية المصرية فى القرن الحادى عشر ، للدكتور رمضان عبد
التواب - حويلات كلية دار العلوم ١٩٧٠ م .
- ١٦٦ - ما تلحن فيه العامة ، للكسائى - تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب -
القاهرة ١٩٨٢ م .
- ١٦٧ - ما يجوز للشاعر فى الضرورة ، للقزاز القيروانى - تحقيق الدكتور رمضان
عبد التواب والدكتور صلاح الدين الهادى - القاهرة ١٩٨١ م .
- ١٦٨ - مباحث لغوية ، للدكتور إبراهيم السامرائى - بغداد ١٩٧١ م .
- ١٦٩ - مثالب الوزيرين ، لأبى حيان التوحيدى - دمشق ١٩٦١ م .
- ١٧٠ - مجالس ثعلب - تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٩٦٠ م .
- ١٧١ - مجالس العلماء ، للزجاجى - تحقيق عبد السلام هارون - الكويت ١٩٦٢ م .
- ١٧٢ - مجمع الأمثال ، للميدانى - القاهرة ١٣١٠ هـ .
- ١٧٣ - المحتسب فى تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، لابن جنى -
تحقيق على النجدى ناصف وآخرين - القاهرة ١٣٨٦ هـ .
- ١٧٤ - المحكم فى أصول الكلمات العامية ، للدكتور أحمد عيسى - القاهرة ١٩٣٩ م .

- ١٧٥ - المحيط في اللغة ، للصاحب بن عباد - تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين - بغداد ١٩٧٥ م .
- ١٧٦ - المخصص في اللغة ، لابن سيدة الأندلسي - بولاق ١٣١٦ - ١٣٢١ هـ .
- ١٧٧ - المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان ، لابن هشام اللخمي - تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب (تحت الإعداد) .
- ١٧٨ - المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، للدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٨٥ م .
- ١٧٩ - المذكر والمؤنث ، لأبي بكر بن الأنباري - تحقيق الدكتور طارق الجنابي - بغداد ١٩٧٨ م .
- ١٨٠ - المترجل ، لابن الخشاب - تحقيق علي حيدر - دمشق ١٩٧٢ م .
- ١٨١ - المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، للسيوطي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين - القاهرة ١٩٥٨ م .
- ١٨٢ - مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، لابن فضل الله العمري - تحقيق أمين فؤاد سيد - القاهرة ١٩٨٥ م .
- ١٨٣ - المسائل البصريات ، لأبي علي الفارسي - تحقيق الدكتور حسن الشاطر - القاهرة ١٩٨٥ م .
- ١٨٤ - معاني القرآن ، للفراء - تحقيق الشيخ محمد علي النجار - القاهرة ١٩٥٥ م وما بعدها .
- ١٨٥ - معاني القرآن وإعرايه ، للزجاج - تحقيق الدكتور عبد الجليل شلبي - بيروت ١٩٧٣ م .
- ١٨٦ - معجم الأدباء ، لياقوت الحموي - نشر أحمد فريد رفاعي - القاهرة ١٩٣٦ م .
- ١٨٧ - معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة ، لمحمد العدناني - بيروت ١٩٨٦ م .
- ١٨٨ - مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ، لابن هشام المصري - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - القاهرة (بلا تاريخ) .
- ١٨٩ - مفاتيح العلوم ، للخوارزمي - القاهرة ١٩٤٢ م .

- ١٩٠ - مقاييس اللغة ، لابن فارس اللغوى - تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٣٦٦ - ١٣٧١ هـ .
- ١٩١ - المقتصد فى شرح الإيضاح ، لعبد القاهر الجرجانى - تحقيق الدكتور كاظم بحر المرجان - بغداد ١٩٨٠ م .
- ١٩٢ - المقتضب ، لأبى العباس المبرد - تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة - القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٦٨ م .
- ١٩٣ - مقدمتان فى علوم القرآن ، مقدمة المبائى وابن عطية - نشر آرثرچفرى - القاهرة ١٩٧٠ م .
- ١٩٤ - الممتع فى التصريف ، لابن عصفور - تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة - حلب ١٩٧٠ م .
- ١٩٥ - من أسرار اللغة ، للدكتور إبراهيم أنيس - القاهرة ١٩٦٦ م .
- ١٩٦ - منامات الوهرانى ، لركن الدين بن محرز الوهرانى - تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش - القاهرة ١٩٦٨ م .
- ١٩٧ - مناهج البحث فى اللغة ، للدكتور تمام حسان - القاهرة ١٩٥٥ م .
- ١٩٨ - المنصف ، لابن جنى - تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين - القاهرة ١٩٥٤ م .
- ١٩٩ - مناهج البلغاء وسراج الأدباء ، لحازم القرطاجنى - تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة - بيروت ١٩٨١ م .
- ٢٠٠ - منهج السالك ، لأبى حيان - تحقيق سيدنى جالزر - واشنطن ١٩٤٧ م .
- ٢٠١ - مولد اللغة ، للشيخ أحمد رضا العاملى - بيروت ١٩٥٦ م .
- ٢٠٢ - الموفى فى النحو الكوفى ، للكنغراوى - نشر محمد بهجة البيطار - دمشق (بلا تاريخ) .
- ٢٠٣ - نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ، لأبى البركات بن الأنبارى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٦٧ م .
- ٢٠٤ - النشر فى القراءات العشر ، لابن الجزرى - نشر على محمد الضباع - القاهرة (بلا تاريخ) .

- ٢٠٥ - نشوء اللغة ونموها واكتسابها ، للأب أنستاس مارى الكرملى - القاهرة ١٩٣٨ م .
- ٢٠٦ - نفائس عرائس الكلام ، لخسروزاده - مختصر : تنبيه الأنام فى توجيه الكلام - مخطوط فى برلين ٧٠٩٩
- ٢٠٧ - نهاية الأرب فى فنون الأدب ، لشهاب الدين النويزى - القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٥٥ م .
- ٢٠٨ - النهاية فى غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير - تحقيق محمود الطناحى - القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٦٥ م .
- ٢٠٩ - النوادر فى اللغة ، لأبى زيد الأنصارى - نشر سعيد الشرتونى - بيروت ١٨٩٤ م .
- ٢١٠ - الواضح المبين فى ذكر من استشهد من المحبين ، للحافظ مغلطاي - نشر أوتو شبيز - شتوتجارت ١٩٣٦ م .
- ٢١١ - الوسيط ، معجم من صنع مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٧٢ م .

٢ - المراجع الإفرنجية

- G. Bergstrasser , Sprachatlas von Syrien und Palästina , Leipzig 1915 .
C. Brockelmann , Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen , Bd. I-II, Berlin 1908 - 1913 .
C. Brockelmann , Syrische Grammatik , Leipzig 1955 .
C. Brockelmann , Semitische Sprachwissenschaft , Leipzig 1906 .
D. Jones , An Outline of English Phonetics , London 1972 .
Der Sprach-Brockhaus , Wiesbaden 1956 .
G. Kampffmeyer , Die arabische Verbalpartikel b(m) , Marburg 1900 .
H. Kofler , Reste altarabischer Dialekte , WZKM , Wien 1940 - 1942 .
E. Littmann , Morgenländische Wörter im Deutschen , Tübingen 1924 .
W. Whitney , Life and Growth of Language , London 1880 .

فهرس الْمَوْضُوعَات

مقدمة الطبعة الثانية (٦ - ٣)

مقدمة الطبعة الأولى (٨ - ٧)

المبادئ الأساسية :

اللغة كائن حى عرضة للتطور فى مختلف عناصرها - العربية الجاهلية حلقة فى سلسلة حلقات طويلة ، من التطور والتغير - العربية الفصحى تشتمل على بعض حلقات التطور - ارتباط الفصحى بالقرآن الكريم جعلها ذات ظرف خاص ، لم يتوفر لأية لغة من لغات العالم (٩ - ١٤)

مجالات التطور اللغوى :

الصوت والبنية والدلالة والتركيب - استقرار النظام الصوتى والنظام الصرفى بعد فترة من عمر الطفل - المفردات عرضة للتطور المستمر - بقايا النظام الصرفى البائد والركام اللغوى - عوامل سرعة التطور اللغوى - التطور اللغوى لا يحدث على نحو مشئت غير مطرد (١٥ - ١٨)

١ - القوانين الصوتية :

معنى القانون الصوتى - الفرق بينه وبين قوانين الطبيعة والكيمياء - خصائص التطور الصوتى : اللاشعورية ، والجماعية ، والبطء والتدرج ، والتحدد بمكان وزمان ، والاطراد (١٨ - ٢٣)

التغيرات التاريخية والتركيبية للأصوات :

أولا : التغيرات التاريخية :

معنى التغير التاريخى - أمثلة من العربية والساميات : الپاء المهموسة - الجيم الفصيحة وتغيراتها - القاف بين السامية الأم والعربية الفصحى ولهجاتها (٢٤ - ٢٩)

ثانيا : التغيرات التركيبية : معنى التغير التركيبى .

(أ) قانون المماثلة : أنواع التماثل الصوتى - شرط التماثل بين الأصوات - أمثلة للتأثر المقبل الكلى فى حالة الاتصال - أمثلة للتأثر المقبل الكلى فى حالة الانفصال - أمثلة للتأثر المقبل الجزئى فى حالة الاتصال - أمثلة للتأثر المقبل الجزئى فى حالة الانفصال - أمثلة للتأثر المدبر الكلى فى حالة الاتصال - أمثلة للتأثر المدبر الكلى فى حالة الانفصال - أمثلة للتأثر المدبر الجزئى فى حالة الاتصال - أمثلة للتأثر المدبر الجزئى فى حالة الانفصال (٢٩ - ٤٨)

التأثير المتبادل : أمثلة .

تبادل التأثير بين الحركات والصوامت :

المماثلة بتأثير الحركة على الصامت وأمثلتها - المماثلة بتأثير الصامت على الحركة وأمثلتها - موقف اللغويين العرب من استخدام الأصل القديم الذى تغير بالمماثلة : الأصل أجود - الأصل مستعمل بتكلف - الأصل لم يستخدم البتة (٤٩ - ٥٦)

(ب) قانون المخالفة : معنى المخالفة الصوتية - أمثلة من الساميات - أمثلة من العاميات القديمة - أمثلة من العاميات المعاصرة - تفسير الإبدال الظاهرى فى زحلوقة وزحلوقة - شواهد على ورود الكلمتين فى قوافى الأبيات وانتفاء التصحيف - تسميات القدماء لظاهرة المخالفة - السبب فى المخالفة الصوتية - المخالفة بين الحركات فى نون المثنى ونون الرفع ونصب جمع المؤنث السالم بالكسرة - المخالفة الكمية بين المقاطع - رأى الدكتور أحمد هريدى فى أن التخالف بالإبدال لا يكون فى أول أصوات الكلمة - طرق التخلص من التماثل الصوتى بغير المخالفة - العازل المحتلب والعازل القديم - التخالف بالحذف وسبب منع الصرف فى كلمة (أشياء) - أمثلة للتخالف بالحذف فى غير العربية (٥٧ - ٧٥)

٢ - قانون السهولة والتيسير :

رأى علماء اللغة فى هذا القانون - سقوط الهمز فى القديم والحديث -

التصريفات والاشتقاقات الجديدة المترتبة على سقوط الهمز - انكماش الصوت المركب في القديم والحديث - تفسير إلزام المثني الألف في لغة بلحارث بن كعب - اندثار الأصوات الأسنانية في بعض اللهجات الحديثة والقديمة - الأصوات الأسنانية واللغات السامية - الرد على من ينكر أثر قانون السهولة والتيسير في التطور اللغوي - القضاء على التفرعات الكثيرة في الظاهرة الواحدة - علامات التأنيث في العربية والعاميات - القلب المكاني وأمثله في اللغات المختلفة - أمثلة من العربية والساميات - أمثلة من اللهجات المعاصرة - المقلوب يشتق منه كالأصل تماما - نقد آراء اللغويين القدامى في ذلك (٧٦ - ٩٣)

٣ - أثر النظام المقطعي :

تعريف المقطع الصوتي عند العلماء - أنواع المقاطع الصوتية في الفصحى - من النظام المقطعي في العربية - شروط المقطع الأول والمقطع الرابع في الفصحى - معاملة الآرامية وبعض العاميات العربية للمقطع الأول (٩٤ - ٩٨)

٤ - القياس :

مراحل النمو اللغوي عند الطفل والقياس - مصطلح القياس الخاطيء - توحيد أشكال الظاهرة الواحدة - أمثلة من العربية والساميات - جنابة كلمة (أشياء) على ما هو من وزنها في منع الصرف - معارضة القياس للقانون الصوتي - القياس يكمل طريق القانون الصوتي بطرد الباب على وتيرة واحدة - أمثلة من العربية الفصحى ولهجة قبيلة كلب - القياس ونشوء كلمات جديدة في اللغة بالاشتقاق - أثر القياس في تطور الصيغ والدلالة - أمثلة من الفصحى والعاميات والأفراد - أمثلة من كتب لحن العامة - تسميات القدماء لظاهرة القياس الخاطيء (٩٩ - ١١٤)

٥ - الخذلة أو المبالغة في التفصح :

وضعنا للمصطلح في مقابل المصطلحات الأجنبية - التعريف بالظاهرة - أمثلتها في بعض اللغات - قلب الميم باء والباء ميمما عند قبيلة مازن - القاف والغين في السودان وجنوب العراق - الخذلة في نطق الهمزة - تفسير مثل

(أرخ) و (أقت) وما يشبههما -- حذقة الشاعر جرير في الهمزة - الحذقة في الصوت المركب وأمثلتها في عصور العربية وأصقاعها المختلفة ولغة الأفراد - الحذقة في الأصوات الأسنانية والقاف والهمزة (١١٥ - ١٢٣)

٦ - العادات اللغوية للشعوب :

المصطلح العرفي والمصطلح الغري - معنى الظاهرة - قلب الفتحة الطويلة المنبورة ضمة مماله في العبرية والآرامية والعامية العربية في بلاد سوريا وفلسطين - الجاحظ وحديثه عن الظاهرة وتمثيله لها - أبو حاتم الرازي وحديثه عن الظاهرة وتمثيله لها (١٢٤ - ١٢٥)

٧ - انتقال النبر :

تعريف النبر - اختلاف العلماء في وجوده في العربية الفصحى - الرد على من أنكروا وجوده فيها - موقعه من مقاطع الكلمة - انتقال النبر وأثره في صيغ الكلمات في الفصحى واللهجات العامية - النبر ولهجة الأندلس العربية - النبر وأثره في أبنية العربية والساميات (١٢٦ - ١٣١)

٨ - قانون الأصوات الحنكية :

تفسير القانون - تطور صوت الجيم بين العربية والساميات - الكسكسة والكشكشة من ألقاب اللهجات العربية القديمة - ميل الأصوات المزدوجة إلى الانحلال إلى أحد عنصريها (١٣٢ - ١٣٤)

٩ - بلى الألفاظ :

كثرة الاستعمال تبلى الألفاظ - أمثلة للبلى اللفظي في الفصحى واللهجات القديمة والحديثة - كلمة (أيش) فاشية في كلام العرب قديما وحديثا - الأدوات والحروف الدالة على المعاني أصلها كلمات كاملة - السين جزء من سوف في العربية - رأى ابن مالك وبراهينه على ذلك - لام الاستغاثة وشين النفي وحاء الاستقبال بقايا كلمات - تخليط الشيخ محمد على الدسوقي في هاء الاستقبال (١٣٥ - ١٤٤)

١٠ - الفصل الخاطيء :

معنى الظاهرة - أمثلتها من العاميات : الحانوقى ، وحنطور العين ، وكل واشكر ، والرمان بلى ، ولقمة القاضى ، والعطشجى ونحوها - جاب ، ومال ، وويل ، كلمات ناتجة بسبب الفصل الخاطيء - أمثلة من اللغات الأجنبية (١٤٥ - ١٤٧)

١١ - سياحة الألفاظ :

المقصود بهذا المصطلح عندنا - إعادة الاقتراض واستيراد الصادرات من المصطلحات الموازية - أمثلة لسياحة الألفاظ : تفيدة - مرقى - سوزان - كابل - أميرال - شيك - كحول - ترسانة - مسكرة - أرابسك - أمثلة من الساميات : بطرس - يعقوب - إسحاق - بنزايون (١٤٨ - ١٥٤)

١٢ - شاهد الحال :

المراد بالمصطلح - التقلب بين مصطلحات أخرى - شاهد الحال عند ابن جنى - أمثلة من القديم والحديث : رفع فلان عقيرته - التقاوى - القرافة - الحرامى - طبق أم على - الجرسة - أقلبها دندرة - فاكرنى كاورك - فتح عينك تاكل ملبن - فلان ييخنصر - فلان ييهلب - الشرطى - العوالم - شاهد الحال وقصص الأمثال القديمة (١٥٥ - ١٧٠)

١٣ - تعاقب التطور :

تعرض بعض الألفاظ للتطور المتعاقب - الصورة الأخيرة وبعدها عن أصلها - أمثلة للتعاقب : الشراب - حصالة الطائر - الملاء والمنلا - الصميط - هاعمل كذا - ورى - العصفور - أمر العيش - الإراز - خرمش - لخبط - بخلق - مكلضم - سقىل ومتلوم (١٧١ - ١٧٦)

١٤ - سيادة الحالة الواحدة من الحالات الإعرابية :

فقدان الإعراب وسيادة إحدى الحالات الإعرابية - اختيار الحالة غير مشروط - أمثلة للسيادة : نون الرفع فى الأفعال الخمسة - إلزام المثنى الياء - إلزام المثنى الألف عند بلحارث بن كعب قديما ليس من هذا الباب - حالات

الأسماء الخمسة في الساميات والعاميات - إلزام جمع المذكر السالم الياء -
طفغان وإو الجماعة على نون النسوة - تاء المضارعة للغائبات في العبرية
وفصحى القرن السادس والفصحى المعاصرة (١٧٧ - ١٨١)

١٥ - الاشتقاق الشعبي :

تعريف الظاهرة - أمثلتها في اللغات - بعض أمثلة في العربية قديما وحديثا -
الأطفال وأغانى الهراء اللغوى (١٨٢ - ١٨٦)

١٦ - أخطاء السمع :

حدوث الظاهرة للمصغار والكبار - تعاقب الأصوات وأخطاء السمع -
الكلمات ذات الأصوات المتعاقبة بسبب الخطأ السمعى ليست من المترادفات
اللغوية (١٨٧ - ١٨٨)

١٧ - التطور الدلالى :

عوامل التطور الدلالى - العوامل المتعمدة واللاشعورية - السياق المضلل -
تغير الاسم وبقاء المسمى والعكس - سوء الفهم والقياس الخاطيء -
تطور أصوات الكلمة - اختصار العبارة - التأقلم وكثرة دوران الكلمة في
الاستعمال - عامل الابتذال - مظاهر التطور الدلالى - أمثلة
لتخصيص الدلالة - أمثلة لتعميم الدلالة - أمثلة لانتقال الدلالة في العربية
وغيرها (١٨٩ - ٢٠٠)

١٨ - تجديد الألفاظ :

الابتذال وأثره في موت الألفاظ أو تغير معناها - التقاليد الاجتماعية والمحظورات -
تعليل كثرة الألفاظ المبتذلة في المعجم التاريخى للغة - الخرافات واللامساس -
سحر الكلمة والأرواح الشريرة - تشويه الألفاظ - مذهب العرب القدماء في
هذا (٢٠١ - ٢٠٥)

١٩ - الإعراب وترتيب أجزاء الجملة :

مورفيمات الإعراب وترتيب أجزاء الجملة - موقف اللغات من مورفيمات الإعراب - بين اللاتينية والفرنسية - بين العربية الفصحى والعاميات - حرية ترتيب أجزاء الجملة تزيد بازدياد عناصر الإعراب - أمثلة من اللغات المختلفة (٢٠٦ - ٢٠٩)

مراجع الكتاب :

١ - المراجع العربية (٢١٠ - ٢٢٣)

٢ - المراجع الإفريقية (٢٢٤)

فهرس الموضوعات (٢٢٥ - ٢٣١)

تم بحمد الله

رقم الإيداع ١٩٨١/٤٦٣٠

١ - ٧٩ - ٧٢٩٢ - ٩٧٧

هذا الكتاب

يعالج جانباً مهماً من حياة اللغة ، وهو جانب التطور اللغوى .
وكلمة « التطور » عند علماء اللغة لا تعنى أكثر من مرادف لكلمة
« التغير » . وقد وضع المؤلف هذا المعنى ، وقطع بذلك الطريق على
الأدعياء ، الذين يرون فى كلمة « التطور » حكماً معيارياً ، يقرن
بالصواب والخطأ .

وقد برهن المؤلف فى كتابنا هذا ، على أن اللغات لا تسير فى
حياتها على نحو من الصدفة المطلقة ، ولا تخبط فى تنقلها على ألسنة
الناس خبط عشواء ، بل يحكمها فى هذا وذاك قوانين ، تكاد ترقى إلى
مكانة القوانين الطبيعية ثباتاً وقوة .

وشرح المؤلف هذه القوانين المختلفة بالتفصيل ، واستشهد على
تفسيراته اللغوية هنا وهناك ، بالكثير من الأمثلة ، التى تثبت فاعلية هذه
القوانين ، وترد على القُثم الذين يوجههم الحقد ، ويقودهم الهوى
والغرض ، فينكرون أثر بعض هذه القوانين .

وفى هذه الطبعة الجديدة من الكتاب إضافات كثيرة ، وأبواب
جديدة ، فى موضوعات : سياحة الألفاظ ، وشاهد الحال ، وتعاقب
التطور ، وسيادة الحالة الإعرابية ، إلى جانب الأبواب القديمة فى المماثلة
والمخالفة ، والسهولة والتيسير ، ونظام المقاطع ، والقياس ، والحدلقة ،
والبلى اللفظى ، والفصل الخاطىء ، والاشتقاق الشعبى ، وتغير الدلالة ،
وتجديد الألفاظ ، والإعراب ونظام الجملة .

ولاشك أن عشاق الدراسات اللغوية الجادة ، سيجدون بغيتهم
فى إضافات هذه الطبعة الجديدة ، فلهم وحدهم ، ألف هذا الكتاب ؛
وبالله التوفيق